

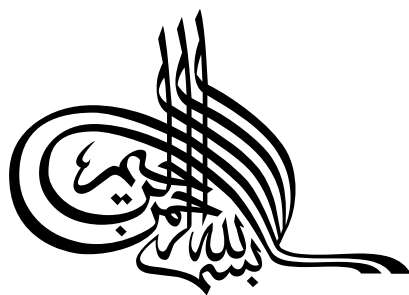
الإقليد

مفتاح للعلم والعبادة والدعوة والسلوك

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي





مَهَيِّدٌ

الحمد لله ربّ العالمين على كلّ حال، المتفضل على عباده
بجلائل النعم وجزائل النوال، المتصف بالعزة والعظمة والجلال،
﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠].

أحمده تبارك وتعالى بالغدو والآصال، وأعوذ بنور وجهه الكريم
من ظلمات الشكّ والشرك والضلال، وأشهد ألاّ إله إلا الله
العظيم الأحد الكبير المتعال، المعبود الحقّ وقد سجدت له
الشخوص والظلال، القاهر فوق عباده، القويّ شديد المحال،
وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله كريم الخصال، النور الهادي
لأمتة والمنقذ لهم بإذن ربه من الضلال، سيد ولد آدم بحقّ
والشفيع يوم الأهوال، الصبر رداؤه، والحياء إزاره، والحلم تاجه،
وليس له في الناس مثال، اللهم صلّ وسلّم وبارك عليه وعلى
الصّحب والآل، ومن تبعه بحسن امتثال، أما بعد:



فإنّ هذه الرسالة مستلّة من كتابي (ولا تفرقوا)، وهي خلاصة
الكتاب أفردتها في زمن العزوف عن قراءة المطولات، ومن أراد
الزيادة فليرجع إلى الأصل، وفق الله الجميع لهواه ومرضاته.

إبراهيم الدميحي

٠٥٠٥١١٩٦٤٥

aldumaiji@gmail.com

مَقَالِيدُ الْوَصَايَا

أَعْظَمُ الْوَصَايَا هِيَ وَصِيَّةُ اللَّهِ لِلأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١] ولما استوصى معاذُ حبيبهِ ﷺ أجابه بجوامعه الفريدة: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَحْمُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»^(١). فهَلَّا استشعرنا هذه المعاني حقًّا!

* ومن الوصايا: العنايةُ التامة والحراسة الدائمة لجناب تعظيم رب العالمين والخوف منه وخشيته، وتذكُّر لقائه والوقوف بين يديه، وتدبر قوله سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ۞ وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ

(١) الترمذي (١٩٨٧) وقال: حديث حسن صحيح.



عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ
سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ [العنكبوت: ٥- ٧]
فاستبشر خيراً بربك، وظنّ به كلّ خير، وافرح به بكلّ مكانك،
وأحبه من كلّ قلبك، وشوق نفسك للقائه، واستحي منه حق
الحياء، واعبده حقّ العبادة.

وفي ليلة من ليالي الشتاء الطويل كنتُ مع الوالد رحمه الله في
الصحراء ومعنا أقارب وأصحاب، فأراد رحمه الله أن يعظنا؛ فتلى
علينا آيةً واحدةً، كانت كافية لمن كان له قلب، وهي قول الله
تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾
[المؤمنون: ١١٥]. فلم يفسرها ويشرحها ويعلق عليها، بل اكتفى
بتلاوتها، واكتفينا بتدبرها وقرع أفئدتنا بها.

واعلم - رحمني الله وإياك - أنّ الموت ليس فكرة مخيفة لمن حسن
تصوره واستقام عمله، وليس الشأن في موعد الرحيل، فكلنا
راحل، إنما الشأن: ماذا بعد الرحيل! فضع يدك على فؤادك ثم

أسأله: أي فؤادي، متى خَفَقْتُكَ الأخيرة! اللهم اجعلها على الإيمان.

وما الموت إلا رحلةٌ غيرُ أنّها من المنزل الفاني إلى المنزل الباقي
واعلم أن ذكر الموت لا يجلب الحزن، بل يذهب ويجلوه إن
أحسن عرضه فكرةً أو بياناً، بيان ذلك؛ أن تذكر الموت يزهد في
الدنيا، فإذا نزل ضيف الزهادة في القلب تبخّرت هموم الدنيا
ونجرت أحمالها من دار القلب، فإن كان لفراق حبيب فالملتقى
قريب للمؤمنين، وإن كان لمظلمة عليه فالحساب قريب، وإن كان
لضيق ذات يده فالغنى كلّ الغنى في الجنة لأولياء الله، وإن كان
لخافة فالأمن هناك، وكلُّ الفلاح والفوز والتوفيق والسعد فيما
هناك.. وهكذا. فالدنيا مهما استدارت شدّاتها فهي لا تستحق
الحزن لأجلها لمن كان ينظر للآخرة بعين قلبه، والموت هو الحبل
الموصل لنعيم الآخرة للمتقين، ومن الصحابة - بلال وعمار رضي
الله عنهما - من كان يقول عند احتضاره أو قرب رحيله: «غداً
ألقي الأعبة محمداً وحزبه». ومنهم - كمعاذ وحذيفة رضي الله



عنهما - من كان يهتف للموت مُرَحِّباً عند مجيء رسوله: «حبیبٌ جاء على فاقه».

ولما سأل سليمان بن عبد الملك أبا حازم: مالنا نكره الموت؟ فأجابه: «لأنكم أخربتم آخرتكم وعمّرتم دنياكم، فكرهتم النُّقْلة من العمران إلى الخراب». ومن جميل وصاياه رحمه الله: «كل أمر تكره الموت لأجله فاتركه، ثم لا يضرك متى مت».

والحياء من الله عز وجل باب عظيم للدخول عليه منه، ولقد قال عمر في وصف صهيب رضي الله عنه: «نِعَمَ العبدُ صهيب لو لم يَخَفِ الله لم يعصه»^(٢). أي أنّ محبته لله تعالى وحياءه منه كافيان لترك العصيان. ويكفي المؤمن تذكّر معية ربه سبحانه: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠] ومن جعل بينه وبين الله بابٌ؛ دخل منه يوماً ما.

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٣١ / ٤٨٠) غريب الحديث لابن

سلام (٣ / ٣٩٤).

واحفظ عهدك وسترك مع الله تعالى واملاً قلبك من مهابته وإجلاله والحياء منه، قال أحمد بن عاصم رحمه الله: «أُحِبُّ أَلَا أَمُوتَ حَتَّى أَعْرِفَ مَوْلَايَ، وَلَيْسَ مَعْرِفَتُهُ إِلَّا بِإِقْرَارِهِ، وَلَكِنَّ الْمَعْرِفَةَ إِذَا عَرَفْتَهُ اسْتَحْيَيْتَ مِنْهُ». وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «مَنْ هَتَكَ سِتْرَهُ مَعَ اللَّهِ؛ هَتَكَ اللَّهُ سِتْرَهُ مَعَ النَّاسِ»، ﴿أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: ١٤].

* ومنها: مداومةُ تفقّد إخلاص الوجه لله وحده لا شريك له، والحذر من حظوظ النفس الأمارة، فإن النفس قَلْبٌ، وقل لمن لم يُخلص: لا تتعب. ويا نفسُ أخلصي تتخلصي. ومن رأى إخلاصه؛ فإخلاصه محتاج لإخلاص. وتذكّر: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أُولَئِكَ الثَّلَاثَةُ أَوَّلُ خَلْقِ اللَّهِ يُسَعَّرُ بِهِمُ النَّارُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٣).

وما كان لله فلا تتردد فيه ابتداءً، ولا تتندّم عليه لاحقاً، فهو الذخر الباقي، وما سواه فلفناء. وتأمل قول المؤمنين حينما صنعوا

(٣) البخاري (٤٢) ومسلم (٤٧/٦).



المعروف: ﴿لَا نُزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩] فحتى كلمة «شكراً» لا ينتظرونها من مخلوق، دعك مما سواها من الجزاء، فأخلص تُفلح.

وجميلة هي وصية عبّاد بن الخواص لأهل العلم والدعوة كما في مقدمة سنن الدارمي^(٤): «ولا تعيبوا البدعَ تزيناً بعيبها؛ فإنّ فساد أهل البدع ليس بزائدٍ في صلاحكم، ولا تعيبوها بغياً على أهلها؛ فإنّ البغيَ من فساد أنفسكم، وليس ينبغي للمطبّب أن يداوي المرضى بما يبرئهم ويُمرِضُه، فإنّه إذا مرض اشتغل بمرضه عن مداواتهم، ولكن ينبغي أن يلتمس لنفسه الصحة ليقوى على علاج المرضى، فليكن أمركم فيما تنكرون على إخوانكم نظراً منكم لأنفسكم، ونصيحة منكم لربكم، وشفقة منكم على إخوانكم، وأن تكونوا مع ذلك بعيوب أنفسكم أعنى منكم بعيوب غيركم».

واحتيالاً لمنازل الدار الآخرة: ليكن للآخرة جزء ثمين منك، من قلبك وروحك ووقتك وجسدك ومالك، ثأكّد وتستوثق أنه

(٤) سنن الدارمي (١ / ٦٥).

لله، لله فقط لا لغيره، وهذا ما يسمونه بالخبيثة الحسنة. إنها لعمر
الله لمن المنجيات بإذنه. وكان علي بن الحسين يُجَلُّ، فلها مات
وجدوه يعول مئة بيت بالمدينة بالسر، ﴿لَا نُزِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾
[الإنسان: ٩]. وقال رجل للإمام أحمد: أوصني، فقال له: «انظر
إلى أحب ما تريد أن يجاورك في قبرك فاعمل به». «وكم بيننا من
الأخفياء الأصفياء الأتقياء الأنقياء، أخفوا أعمالهم استحياءً من
سُبُحات الجلال، وستراً للحال بلطف المقال، أبا الله إلا نشر
عَرَفَهُم، لله هم.

وإن ابتداء الإخلاص ليس بالعسير في العادة، لكن الشأن
في حراسته، فالقلبُ قَلْبٌ وَالنِّيةُ جَمُوحٌ، ولها مئة وجه، والسعيد
من أسلمها لوجه الله وحده. ولتعلم أن التوحيد يوحد أهله، ولا
يفرقهم سوى الخذلان. وتدبر قول الله عز وجل: ﴿وَذَرُوا ظَاهِرَ
الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٠] فقد تنشط النفس لترك الإثم
الظاهر، ولكنها لا تنشط لترك الآثام الباطنة وحراسة القلب إلا



مع الحياء من الله وخشيته ومراقبته. وتدبر قوله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ﴾ [الرحمن: ٤٦] قال الضحاك رحمه الله: «هذا لمن راقب الله في السر والعلانية، بعلمه ما عرض له من محرم؛ تركه من خشية الله، وما عمل من خير؛ أفضى به إلى الله، لا يجب أن يطّلع عليه أحد»^(٥). وكان الإمام الشافعي رحمه الله^(٦) يكتب حتى يكلّ، فيلقي القلم وينشد:

إذا كان هذا الدمع يجري صباةً على غير ليلٍ فهو دمعٌ مضيعٌ
ومن غفلة الصالحين؛ أن يتوسّع المرء في التحدّث بنعم الله
عليه في عباداته الخفية، فيتنفّس الرياء برئة الغفلة، ويُرّجيه عدوّه
لحفرة العُجب. قال أبو الدرداء: «يا حبّذا نوم الأكياس وفطرتهم،
كيف يسبقون قيام الحمقى وصومهم! ولذرة من ذي يقين وبرّ
وتقوى؛ أفضل من أمثال الجبال من عبادة المغترّين». ومن
نفائس شيخ الإسلام: «وكم من صاحب قلبٍ وجمعيّةٍ وحالٍ مع

(٥) تفسير البغوي (٧ / ٤٥١).

(٦) ووردت كذلك عن النووي رحمه الله.

الله عز وجل، قد تحدّث بها وأخبر بها؛ فسلبه إيّاها الأغيار، لهذا يوصي الشيوخ بحفظ السرّ مع الله تعالى.. وصدرُك أوسع لسرّك.

* ومنها: الولاء والبراء، فقد وهنَ هذا الأصل الإيماني في قلوب كثير من أهل الإسلام في هذا العصر، فكنَ ولياً لله ولدينه ولحزبه المؤمنين بريئاً متبرئاً من الشيطان وأحزابه أجمعين، والله تعالى يقول: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢]. فلا بد من مراجعة هذا الأصل على الدوام، ففي زمان اختلاط المفاهيم واتساع الشُّبه وتطاحن الأفكار؛ يبقى الولاء والبراء معياراً لصدق الإيمان. قال أبو



الوفاء بن عقيل رحمه الله: «إذا أردت أن تعلم محلّ الإسلام من أهل الزمان، فلا تنظر إلى تراحمهم على أبواب الجوامع، ولا تنظر إلى ضحيجهم في الموقف بـ«لبيك» ولكن انظر إلى مواطأتهم لأعداء الشريعة».

* ومنها: كُنْ من أهل الله وخاصّته أهل القرآن المبارك العظيم، فأنفسُ ما تصدقت به على نفسك أن تُعوّدها رياض القرآن حتى يختلط بدمك وعصبك وأنفاسك. وخيراً نفعل إن أصغينا إلى مواعظ القرآن ونصائح الزمان، ففي كُرور الأيام عبرٌ، وفي تدبّر الأحداث على ضياء القرآن هدى ونور ورشد، ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ أَلْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤] قال ابن قدامة: «ويكره أن يؤخّر ختم القرآن أكثر من أربعين يوماً». وقال القرطبي: «والأربعين مدّة الضعفاء وأولي الأشغال». فالله المستعان يا أمة القرآن! فمتى عهدك بختم القرآن العظيم؟ وهل لك وردٌ منه كسلفك الصالح؟ ألا نخجل من تلك الشكوى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ

يَكْرِبُ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) [الفرقان: ٣٠]
 وكان الصحابة يُعلّون قدر الناس على قدر حملهم للقرآن، وقال
 الشافعي: «مَنْ حَفِظَ الْقُرْآنَ عَظُمَتْ قِيَمَتُهُ».

وإذا أردت أن تتلذذ بغروب شمس كل يوم؛ فاجعل لنفسك
 مع القرآن وردًا لا تخرمه ولا تتخلف عنه، فإن استطعت فاعمل
 بتحزيب السلف الأسبوعي، فقد كان وردهم كالتالي: ففي اليوم
 الأول ثلاث سور (البقرة وآل عمران والنساء) وفي الثاني خمس
 سور على نفس الترتيب، وفي الثالث سبع، وفي الرابع تسع، وفي
 الخامس إحدى عشرة، وفي السادس ثلاث عشرة، وفي السابع
 المُفَصَّل. فيختمون كل أسبوع^(٧)، وكثيرهم يختم كل عصر جمعة،
 وكان طاووس رحمه الله إذا صلى عصر الجمعة استقبل القبلة ولم

(٧) ويرمز بعض الفضلاء للتحزيب بحملة لطيفة هي (في بشوق) أي يشاق
 الفم للتلاوة. ويرمز كل حرف لاسم السورة التي يبدأ بها الحزب:
 ف: الفاتحة. م: المائة. ي: يونس. ب: بني إسرائيل (الإسراء). ش: الشعراء. و:
 (والصافات). ق: ق.



يكلّم أحداً حتى تغرب الشمس. والخير عادة، والنفس على ما طبعها عليه، نسأل الله الكريم من فضله.

فهناك جنة لمن تفضل الله عليه ثمقاصرُ دونها العبارات، وإذا لم يكن لك وردٌ يوميٌّ من القرآن؛ فلا تسلُ عن ضيق صدرك، وتتكدّ عيشك ووحشة روحك، ذلك أن القرآن حياة. وكما أن الصحراء تُعطشُ الحيوان فهو يرد الماء يومياً ليحيا، فكذلك الزمان يُعطشُ القلب فيحتاج أن يرد القرآن يومياً ليحيا. فكيف وِرْدُ قلبك لماء حياته! قال ذو النورين رضي الله عنه: «لو طهرت قلوبكم ما شبعتم من كلام ربكم». وقال الحسن رحمه الله: «إنَّ مَنْ كان قبلكم كانوا يرون القرآن رسائل من الله لهم، فكانوا يتدبرونه بالليل ويتفقّدونه بالنهار». أي يتجدّدون ويعملون به. وخرابُ ذلك القلب الذي لا قرآن فيه، ﴿يُؤَفِّكُ عَنْهُ مَنَ أُنْفَكُ﴾ [الذاريات: ٩].

وجميلةٌ هي الاستقامة الإيمانية إذا رافقها استقامة علمية وفكرية، والقرآن فيه كل ذلك لمن وفقه الله تعالى، قال الله: ﴿إِنَّ

هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) [الإسراء: ٩] فكلُّ داءٍ روحي،
أو علمي، أو فكري، أو نفسي، أو جسدي، فأصول الشفاء منه
موجودة في القرآن العظيم، قال الله: ﴿وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ
شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢] . ومن جعل نفيس وقته
للقرآن؛ رأى البركة في سائر أموره. فمرّر معاني القرآن على قلبك،
ففنعه حقاً حين يلامس فؤادك. واعلم أنّ هدايات القرآن ربّانية
وأخباره قطعية، فيستوي فيها الماضي والحاضر والمستقبل:
﴿فَلَنَقْصِصَ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف: ٧] لقد
كان الله تعالى هناك بعلمه وإحاطته وربوبيته، وأحكامه هي
العافية للأفراد والأمم ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾
[المائدة: ٥٠] .

ويا طالب العلم: لا تتشعبن بك سُبُلُ الطلب، فسيّد العلوم كلها
هو القرآن العظيم حفظاً وتفسيراً وتدبراً وعملاً ودعوة. وكلّ
الطرق الصحيحة لطلب العلم تبدأ وتنتهي بالقرآن العظيم، قال ابن



مسعود رضي الله عنه: «من أراد العلم؛ فليثور القرآن، فإن فيه علم الأولين والآخرين». وربُّ العزة والجلال يقول: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩] وتدبر: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١] بلى وعزتك. فالموفق المريد نهضة أمته لا تتشعب به طرق النهوض بالأمة، بل يختصر طريق إصلاحها بالرجوع للينبوع التالد الأصيل القرآن المجيد. ومن ذلك أن كل أدوات مدافعة الجهل والنفاق والشرك والكفر والتغريب وغيرها من الشر موجودة بالتفصيل في القرآن العظيم، فعدُّ إليه وحرك كنوزه وفز بنفيس ذخائره، ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وإن أردت أن تعرف حقيقة اليهود فقد بسطها الله تعالى لك في مئة وسبع آيات من البقرة (٤٠ - ١٤٦) فهي أمة غريبة أطوارها، غليظة أكبادها، متين كفرها. وفي البقرة فضيحة اليهود، وفي المائدة فضيحة النصارى، وفي التوبة فضيحة المنافقين. ثم في بقية سور القرآن مزيد للثلاث طوائف: الغضب والضلال

والفسق، فإذا اجتنبت صفات اليهود وصفات النصارى وصفات المنافقين؛ فقد اجتنبت الشر كله. ولقد فصل الله تعالى صفاتهم كي نجتنبها فنكون من الحنفاء المرضيين. ومن توضيح الواضحات أنّ عدااء الرافضة واليهود والنصارى والمشرّكين لأهل الإسلام لا يزال ما بقي على الأرض مسلم، لكن معاملتهم تختلف بحسب الأحوال.

ومن حكمة المربي والعالم أن يحرص على تلقين القرآن طلابه ومُتربّيه، فعَلِمَهُمُ الْقُرْآنَ وَالْقُرْآنُ سَيَعْلَمُهُمْ كل خير، ومن الموفّقين من يذهل بعلو همّته لحفظ القرآن، ومن أمثلة ذلك ما يرويه الشيخ فهد الحميّن رحمه الله عن نفسه مع شيخة محمد بن إبراهيم آل الشيخ رحمه الله، فإنّه لما رحل إليه من بلدته الزلفي طلب إليه أن ينظمه في سلك طلابه، فسأله الشيخ: هل حفظت القرآن؟ قال: بعضاً منه، قال: احفظه كله ثم عدّ إلي. قال عن نفسه: بعد ذلك ذهبت إلى مسجد ابن مفيريج وجلست فيه، وكان لي مسكناً في الليل والنهار، ومكثت ستة أشهر حتى حفظت القرآن، ثم



مكثت ستة أشهر أخرى أراجع وأثبت الحفظ، حيث كنت أقرأ كل يوم من حفظي عن ظهر قلب خمسة عشر جزءاً، وأختم كل يومين ختمة مدة ستة أشهر. ثم بعدها ذهبت إلى الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله، وأخبرته أنني أتممت حفظ القرآن، فقال لي: الآن يا فهد اقرأ كيفما شئت.

وقد حدثني جدي محمد الدميحي رحمه الله - وكان آية في حفظ القرآن إذ كان يختمه في جلسة واحدة، وكانت له رحمه الله تعالى ختمتان كل يوم وليلة من رمضان - قال: ابتدأت الطلب بقراءة بعض الكتب على بعض شيوخني، فوقف عليّ شيخ - سماه ونسيته - فقال: يا ولدي؛ أت حفظ القرآن؟ قلت: لم أختمه. فجمع رؤوس أصابع يده ثم ضربني في صدري ضربة أوجعتني، وقال: لا تبدأ قبل القرآن بشيء. فوقع نصيحته الصادقة في قلبي، فعمدت إلى حبل وعقدت فيه مئة عقدة، فكنت أراجع حزبي مئة مرة وأعدُّ بها بتلك العقد، حتى ختمت القرآن الكريم عن ظهر قلب.

وإنَّ كِتَابَ اللَّهِ أَوْثَقُ شَافِعٍ وَأَغْنَى غِنَاءٍ وَاهْبَأْ مُتَفَضِّلًا
 وَخَيْرُ جَلِيسٍ لَا يُمَلُّ حَدِيثُهُ وَتَرْدَادُهُ يَزْدَادُ فِيهِ تَجَمُّلاً
 وَحَيْثُ الْفَقِي يَرْتَاحُ فِي ظِلِّهَا مِنْ الْقَبْرِ يَلْقَاهُ سَنًا مُتَهَلِّلًا
 هُنَالِكَ يَهْنِيهِ مَقِيلًا وَرَوْضَةً وَمَنْ أَجَلُهُ فِي ذُرْوَةِ الْعِزِّ يَجْتَلَى
 يَنَاشِدُ فِي إِرْضَائِهِ لِحَبِيبِهِ وَأَجْدَرُ بِهِ سُؤلاً إِلَيْهِ مُوَصَّلًا
 وَاعْلَمْ أَنَّ الْعَقْلَ الْبَشْرِيَّ فِيهِ عَجِيبَةٌ، فَإِنَّكَ إِنْ شُغِفْتَ بِأَمْرِ
 وَوَلِيتَ وَجْهَكَ وَنَبَاهَتَكَ وَوَقْتَكَ إِلَيْهِ؛ نَشِطَ نَشَاطًا مُضَاعَفًا
 وَأَدْهَشَكَ بِقُوَّتِهِ وَصَفَاءِهِ، وَهَنِيئًا لِمَنْ كَانَ فِي اللَّهِ وَلِلَّهِ، وَمَنْ ذَلِكَ
 قَوْلُ الشَّيْخِ الْحَمِينِ: «ابْتَدَأْتُ حِفْظَ سُورَةِ الْأَعْرَافِ مِنْ بَعْدِ صَلَاةِ
 الْعَصْرِ وَأَتَمَمْتُ حِفْظَهَا مَعَ أَذَانِ الْمَغْرَبِ، وَكَانَ فِي وَقْتِ الصَّيْفِ
 حَيْثُ كَانَ الْعَصْرُ طَوِيلًا، وَلَمْ أَكُنْ أَحْفَظُ هَذِهِ السُّورَةَ مِنْ
 قَبْلِ».

لَقَدْ رَكَّبَ اللَّهُ فِيكَ أَيُّهَا الْإِنْسَانُ طَاقَاتٍ هَائِلَةً كَامِنَةً تَنْتَظِرُ
 مِنْكَ تَحْدِيدَ أَيْ هَدَفٍ تَرِيدُهُ، فَكُنْ وَاضِحَ الْهَدَفِ، حَسَنَ
 التَّخْطِيطِ لِبُلُوغِهِ، مُتَحَلِّيًا بِالْجِدِّيَّةِ وَالانضِبَاطِ، مَعَ ثِقَةٍ بِاللَّهِ، وَتَوَكَّلْ
 عَلَيْهِ، وَاسْتَعَانَةَ بِهِ، ثُمَّ إِرَادَةَ عَازِمَةٍ، ثُمَّ انْطِلِقْ بِثَبَاتٍ غَيْرِ مَتَزَعِّعٍ،



فكل من وصل ليس لديه شيء زائد عنك. فآلة العلم وحدها ليست كافية، بل الصمصامة محتاجة لذراع عمرو:

وما تَنفَعُ الخَيْلُ الكِرَامُ وَلَا القَنَا إِذَا لم يَكُنْ فَوْقَ الكِرَامِ كِرَامٌ
واعلم أنها سنين ستطوى سريعاً من تحت قدميك، وسيترتب
عليها مصير مستقبلك في حياتك، فأنت من تُفَصِّلُ الثوب الذي
ستلبسه غداً بإذن الله. والحكيم الناصح هو من تنبّه لانحسار الحياة
عنه شيئاً فشيئاً، فما هي إلا أيام - وإن طالت يسيراً - حتى تطويه
كما طوت أسلافه، ولن يتبقى له منها سوى صالحات القرب..
فاللهم رحمتك وتوفيقك وغفرانك.

وما هي إلا ساعةٌ ثم ساعةٌ ويوم إلى يومٍ وشهرٌ إلى شهرٍ
مطايا يقربن الجديد إلى البلى ويدنين أشلاء الصحيح إلى القبر
* ومنها: العناية القصوى بتعظيم سنة رسول الهدى صلوات الله
وسلامه وبركاته عليه بالجنان واللسان والأركان، وعدم تقديم
قول بشر عليها بالغاً قدره ما بلغ، والاعتذار لأهل العلم إن أخطأوا
مع ترك متابعتهم، وعدم التشغيب عليهم أو الشماتة أو التنفير أو
سوء الظن. واحذر مخالفة منهم أعلم منك ببداهة رأيك، وبخاصة

إن تتابع كثير من العلماء على القول به، كأن يكون قول الجمهور مثلاً، فحرر أقوالهم ومذاهبهم واستدلّاهم، ولا تحفل بالغرائب والطرائف والنوادر، فالغريب مريب، والطريف ضعيف، والنادرة قد تكون غادرة! واعلم أنّ مفتاح العلم الشَّغْفُ.

أصبر على مضض الإدلاج بالسحر وبالرّواح على الحاجات والبكر
إني رأيتُ وفي الأيام تجربة للصبر عاقبةً محمودّة الأثر
وقلّ مَنْ جدّ في أمرٍ يُطالبه واستصحب الصبر إلا فاز بالظفر
قال الجنيد رحمه الله: «ما طلب أحد شيئاً بجدّ وصدق إلا
نال، فإن لم ينله كلّهُ نال بعضه». وقيل للبخاري: بم أدركت العلم؟
فقال: «بالمصباح، والجلوس إلى الصباح». وللموصلي:

عند الصّباح يحمّد القوم السرى وتنجي عنهم غيابات الكرى
* ومنها: الافتقار التام لله تعالى، فعلى قدر افتقارك إليه يكون
غناك به، واعلم أنه لا يوجد في الناس غنيٌّ متفرد، بل كلهم
فقراء إلى غنيّ مولاهم، فهم مفتقرون ضرورة تامّة دائمة إليه،
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾
[فاطر: ١٥]. ومن أفراد توحيد العبادة: عبودية الاحتياج والفاقة



لله وحده. ومن استغنى بالله حق الاستغناء أغناه الله تمام الغنى. ففرّ مما سوى الله إلى الله، وكما قال السلف: كلّ أحد إذا خفته هربت منه إلا الله فإنك إذا خفته هربت إليه، ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠].

* ومنها: ادخل جنة الأنس بالله عز وجل، فمن ولجها لم يخرج منها، لأنها متصلة بجنة الآخرة، ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾ [الدخان: ٥٦].

إنّ الإقبال على الله تعالى، والإنبابة إليه، والرضا به وعنه، وامتلاء القلب من محبته، واللهج بذكره، والفرح والسرور بمعرفته، ودوام ذكره، والسكون إليه، والطمأنينة إليه، ثواب عاجل، وجنة حاضرة، فهو جنة الدنيا، والنعيم الذي لا يشبهه نعيم، وهو قرّة عين المحبين، وعيش لا نسبة لعيش الملوك إليه البتة. وإنّ للأنس بالله ثماراً حلوة، وينابيع عذبة، يتذوقها المؤمن بلسان قلبه، ويُسبغ بها بطن روحه، فلا كانت الدنيا إذا لم يكن أنس بالله تعالى. قال أويس القرني رحمه الله: «ما كنت أرى أنّ

أحدًا يعرف ربه فيأنسَ بغيره». وقال بعض السلف: «مساكينُ أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا الذَّ ما فيها، قيل: ما الذَّ ما فيها؟ قال: الأُنسُ بالله، والتلذُّ بخطابه والوقوف بين يديه».

إنَّ حلاوة الأُنس بالله لا تحصل إلا بالاشتغالِ بذكره ودوام عبادته، والبعدِ عن القواطع والشواغل التي تُقسِّي القلب وتحول بينه وبين التفكير في آلاء الله، والتذكرِ لنعمائه، وقد أخبر النبي ﷺ أنَّ للإيمان حلاوةً وطعمًا، وأخبر أنَّ عينه تقرأُ بالعبادة ويرتاحُ بها بدنه، فهو في الصلاة ينقطع عن الخلائق ويُقبل بقلبه وقلبه على ربه، ويلتذ بذكره ومناجاته، ويتقلبُ بنعيم جميلٍ في أنواع العبادات من حال إلى حال، من روضة قرآن لبستان صلاة لحلاوة مناجاة إلى غير ذلك، يجد في كلّ منها الأُنس بالعبادة. قال قتادة: «من تفكر في خلق نفسه، ولينِ مفاصله، عرف أنما خُلِق للعبادة».

وإنَّ من وسائل تحصيل الأُنس بالله تعالى: الذكرُ الدائم، ورطوبةُ اللسان بذلك، ولهجةُ لربه بدعاء الثناء والمسألة، وصرفُ



طاقات الجوارح في مرضي ربّه الكريم الوهاب، بالصلاة بعد الصلاة، وبالقرآن تلاوة وتدبراً، وبالصدقة، وبالصيام، وبما أطاق من الباقيات الصالحات، وتحصيل العلم النافع والعمل به. فولاية الله مهرها عسفُ النفوس، و«إن تصدقِ الله يصدقك»^(٨).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ليس أحدٌ أحبُّ إليه المدحُ من الله، من أجل ذلك مدح نفسه»^(٩).

واعلم أنّ الأنسَ بالله تعالى ذخيرةُ المؤمن عند احتدام الصعاب عليه، واعتراك المحن لديه، وتأمل سير الأنبياء والمرسلين والمصلحين، ومن تيك المحن الشديدة محنةُ شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله حينما تحزّب أعداؤه عليه، من علماء السوء وأمراء السوء في مصر والشام حتى حبس السنين الطويلة إلى أن مات في سجنه وهو في أتم سرور وأبهج حبور. وكان يقول: «إنّ في

(٨) النسائي (٢٠٩١) وصححه الألباني. وللحديث قصة جميلة.

(٩) البخاري (٧٤٠١) ومسلم (٢٧٦٠).

الدنيا جنةً من لم يدخلها؛ لم يدخل جنة الآخرة». ويقول: «ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنّتي وبستاني في صدري، أين رحت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة».

وفصل الشيخ إبراهيم الغياني خبره لما أتاه السجّانون ليلاً لأخذه لمَظَنَّةِ الهَلَاك، قال إبراهيم: «فلما صلّينا المغرب بقي يدعو بدعاء الكرب، وأنزل الله عليه من النور والبهاء والحال شيئاً عظيماً، وأشرتُ إلى المحبوسين، كأنَّ وجهه شمعٌ يجلوه مثل العروس، حتى إذا راق الليل جاء نائب الوالي فقال: باسم الله. فبقوا يودّعون ويبيكون.. وركب على باب الحبس فقال له إنسان: يا سيدي هذا مقام الصبر. فقال: بل هذا مقام الحمد والشكر، والله إنه نازل على قلبي من الفرح والسرور شيءٌ لو قُسمَ على أهل



الشام ومصر لفضل منهم. ولو أنّ معي في هذا الموضع ذهباً وأنفقته ما أدّيت عُشْرَ هذه النعمة التي أنا فيها»^(١٠).

ولما حُبِسَ المرة السابعة والأخيرة التي فاضت فيها روحه؛ قال في آخر أيامه - كما ذكر الحافظ ابن رجب -: «وقد فتح الله عليّ في هذا الحصن»^(١١) في هذه المرة من معاني القرآن ومن أصول العلم بأشياء كان كثير من العلماء يتمنّونها، وندمتُ على تضييع أكثر أوقاتي في غير معاني القرآن»^(١٢) وكان يقول: «المحبوس من حُبَسَ قلبه عن ربه، والمأسور من أسره هواه»، ولما دخل إلى القلعة، وصار داخل سورها نظر إليه وتلا: ﴿فَضْرِبَ بَيْنَهُمُ بُسُورَ لَّهُمْ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]

(١٠) فصل في تكسير الأحجار، إبراهيم الغياني، عن الجامع لسيرة شيخ الإسلام (١٤٨-١٥٠) باختصار.

(١١) وقد حُبِسَ فيه ويسمى القلعة، ولا زالت آثاره باقية عند الجامع الأموي في دمشق.

(١٢) على أنّ العلماء حتى من خصومه كانوا يتعجبون من استحضاره وحسن استدلاله بالقرآن وغزارة ما يدلّ به في المسائل.

ثم إنه مُنِعَ من الكتابة، ولم يُتْرَك عنده دواة ولا قلم ولا ورق، فأقبل على التلاوة والتهجد والمناجاة والذكر^(١٣). فلهذه مقامات قامها هذا الفذ في دين الله، ولا زال أهل العلم حتى الساعة يصلون على المبطلين بأسنّة حُجَّجِه الباهرة المستنبطة من الوحي المنزل، رحمه الله وأعلى نزله. قال ابن قتيبة: «كُتِبَ على باب سجن: هذه منازل البلوى، وقبور الأحياء، وتجربة الصديق، وشماتة الأعداء».

وتجلّدي للشامتين أريهم أَنِّي لِسَدِّ الدَّهْرِ لَا أَتَضَعُّعُ
ورجع بنا الحديث العذب إلى الأُنْسِ بالله تعالى، قال يحيى بن معاذ: «إذا أَحَبَّ القلبُ الخلوّةَ، أَوْصَلَهُ حُبُّ الخلوّةِ إلى الأُنْسِ بالله، ومن أَنَسَ بالله استوحش من غيره». وإنّ من أعظم وأجلّ طرق تحصيل الأُنْسِ بالله تعالى؛ التَّعَبُّدُ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وصفاته تدبُّراً وتفهُماً وإِحْصَاءً، وهذا هو أَشْرَفُ العلوم على الإِطْلَاق، فَشَرَفُ

(١٣) وقد ختم القرآن في بضعة أشهر إحدى وثمانين ختمة، في كل ثلاثة أيام ختمة، وكانت آخر آية قرأها خاتمة سورة القمر: ﴿إِنَّ الْمُنَاقِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ ۖ فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ نسأل الله الكريم من فضله وكرمه وإحسانه.



كلُّ علمٍ مُتَعَلِّقٌ، وهذا مُتَعَلِّقٌ بالله تبارك تعالَى بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ. وَمَنْ تَدَبَّرَ هَذَا الْعِلْمَ الشَّرِيفَ فِي الْقُرْآنِ وَالسَّنَةِ وَرَاضَ قَلْبَهُ عَلَى مُدَارَسَتِهِ وَتَفَهَّمَهُ؛ أَشْرَقَتْ أَنْوَارُ قَلْبِهِ بِكُلِّ خَيْرٍ. وَهَذَا الْعِلْمُ مِنْ أَعْظَمِ الْأُمُورِ فِي لَمْ شَعَثِ الْقَلْبِ وَجَمَعِيَّتِهِ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْأَنْسِ بِهِ سُبْحَانَهُ وَبِحَمْدِهِ، فَتَأَمَّلْ مَعِيَّتَهُ وَقُرْبَهُ وَمَحَبَّتَهُ وَإِنْعَامَهُ وَلُطْفَهُ وَجَمَالَهُ وَأَلُوْهِيَّتَهُ وَكَرَمَهُ وَبِرَّهُ وَرَأْفَتَهُ وَإِحْسَانَهُ وَنَحْوَ ذَلِكَ يَثُرُ الْأَنْسُ بِهِ سُبْحَانَهُ.

وَلَا يَزَالُ الْعَبْدُ فِي حَاجَةٍ لِمِثْلِ هَذِهِ حَتَّى يُحْصَلَ الْأَنْسَ بِرَبِّهِ تَعَالَى، فَيَزْهَدُ عَمَّا سِوَاهُ، كَمَا قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّ فِي الْقَلْبِ وَحْشَةً لَا يُذْهِبُهَا إِلَّا الْأَنْسُ بِاللَّهِ، وَفِيهِ حُزْنٌ لَا يُذْهِبُهُ إِلَّا السُّرُورُ بِمَعْرِفَتِهِ، وَفِيهِ فَاقَةٌ^(١٤) لَا يُذْهِبُهَا إِلَّا صَدَقُ الْجُودِ إِلَيْهِ، وَلَوْ أُعْطِيَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا لَمْ تَذْهَبْ تِلْكَ الْفَاقَةُ أَبَدًا»^(١٥). وَقَالَ ابْنُ تَيْمِيَّةَ

(١٤) وَهِيَ غَايَةُ الْفَقْرِ -

(١٥) مَدَارِجُ السَّالِكِينَ (٣ / ١٦٤).

رحمه الله: «وليس في الدنيا نعيم يشبه نعيم الآخرة إلا نعيم الإيمان والمعرفة»^(١٦).

أما العزلة التامة عن الخلق فهي ليست من الإسلام في شيء إلا في أزمنة الفتن، وعند خوف المرء على دينه أو نفسه أو أهله، فرهبانية الإسلام هي الجهاد في سبيل الله، أما من انفرد عن الخلق بالكلية دون سبب مشروع؛ فقد سلك هدياً ليس بهدي النبي ﷺ، بل هو هدي رهبان النصارى ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧] «وخير الهدى هدى محمد ﷺ»^(١٧).

* ومنها: ابحث عن رسائل الشوق إلى الله تعالى في القرآن العظيم، وتعاهد بها بقلبك وجوارحك؛ تكن من أهلها بإذن الله تعالى. فالشوق لله عز وجل منة من الله يمنحها الأبرار من عباده،

(١٦) مجموع الفتاوى (٢٨ / ٣).

(١٧) مسلم (٨٦٧).



فحسن الظن الراسخ لا يكون إلا بعلم بالله وعَمَلٍ صالح قَدَّمه بين يديه قُرْبَانًا إليه.

والشوقُ هو تَوَقُّان النفس إلى الشيء، فكُلها أَحَبَّت تحصيله؛ ازداد شوقُها إليه. والشوق قد يكون لِمَتَّعِ الحس، وقد يكون للروح، وقد يكون لهما معًا. وكلها كان الشيء أحب؛ كانت اللذة بنيله أعظم. وقد كان ابن تيمية يخرج أحيانًا إلى الصحراء يخلو عن الناس، فيتَنَفَّس الصَّعداء، ويمثل بيت قيس وينحو به نحوًا جميلًا جدًّا:

وأخرجُ من بين البيوت لعلِّي أحدثُ عنكَ النفسَ بالسَّريِّ خاليا
قال الحسن: «لو علم العابدون بأنهم لا يرون ربهم في الآخرة؛ لذابت نفوسهم في الدنيا شوقًا إليه». فأعلى الشوق هو الشوقُ إلى لقاء الله تعالى. ومن دعاء النبي ﷺ: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ، مِنْ غَيْرِ ضَرَاءٍ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ»^(١٨). والجنة دار المحبين، وأمنية المشتاقين، وموعد المؤمنين

(١٨) سنن النسائي الكبرى (٣٨٧/١) (١٢٢٩) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٦٢/٢) (٢٤٩٧). فقد يشتاق المرء إلى لقاء ربه بسبب بلوى أصابته أو

مع رب العالمين. ومن الشوق العذب شوقُ المؤمنين لرسول الله ﷺ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مِنْ أَشَدِّ أُمْتِي لِي حُبًّا نَاسٌ يَكُونُونَ بَعْدِي، يُوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ رَأَى بِأَهْلِهِ وَمَالَهُ»^(١٩). وأبشر وابتهج، فالجنةُ لم ولن يُخلَق فيها السَّامُ والمَلَلُ، ومهما امتدَّ زمانها فنعيمها متجدد لا ينضب وسرورها دائم لا يفنى.

وتأمل حال يوسف عليه السلام، فع ابتلاءاته الكثيرة الشديدة لم يقل ﴿تَوَفَّنِي﴾ [يوسف: ١٠١] إنما قالها بعد تمام النعمة بالملك والعافية والأهل عليه، قال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] لقد قاده الشوق للقاء الله.

فتنة أَلَّتْ به، فجاء الدعاء مجرداً الشوق من كل علائق سوى محض المحبة وعظيم الرجاء وحسن الظن برب العالمين.

(١٩) أحمد (٤١٧/٢) ومسلم (١٤٥/٨).



لولا التعلُّ بالرجاء لُقِطَتِ نَفْسُ الْحَبِّ صَبَابَةً وَتَشَوَّقًا
ولقد يكادُ يذوبُ منه قلبُهُ مِمَّا يَقَاسِي حَسْرَةً وَتَحَرُّقًا

* ومنها: احرس قلبك من شيطان العشق، فإنَّ القلبَ الخالي منزلٌ لدائه، فإن أدركت نفسك قبل تمكُّنه؛ وإلا فالخوف أن يضع من عمرك سنوات عديدة وأنت تعاني سكراته وسكراته وغلوائه ومراراته، ويكفي من شؤمه أنه يبعدك عن حبيبك الحق بقدر ما يستولي من نياط قلبك وشعب روحك.

وإن كان قلبك ليس في يدك، فتصرفك في يديك، ومتى ما أذلَّكَ قلبك؛ فدُسِّهْ بِقَدَمَيْكَ، ويا لها من ركضةٍ إلى الملاء الأعلى. فالعشق هو الحالةُ التي تجتمع فيها جميع أنواع الجنون واللا معقول، ورأى ابن عباس شاباً يُهادى بين رجلين لضعفه، قد عَشِقَ فاصفرَّ لونه، وذبلَّ جسده، وشخصَ بصره، فما زال يستعيد يومه بالله من العشق.

نَظَرَ الْعَيُونُ إِلَى الْعَيُونِ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الْهَلَكَ إِلَى الْفَوَادِ سَبِيلًا
ما زالت اللحظات تغزوا قلبه حتى تشحط بينهن قتيلاً

وإنَّ خفقَ الفؤادَ بالحُبِّ المباحِّ هو كالمَلحٍ، بل كالسَّكر؛ إن
فُقِدَ كسَدَتِ الحياةُ، وإن زاد تَلِفَتْ. وقد يُبتلى المؤمن بحُبِّ
يذهبُ بشغافِ قلبه، فعليه أن يُجاهده ليسلم من غائلته، ولو لم
يكن منها إلا فوات نصيبه من محبة إلهه الحق، فالحل واحدٌ،
والحبة متباعدة.

ألم تعلمَا أنَّ الملامَةَ نفعُها قليلٌ إذا ما الشَّيْءُ ولى فادَّبراً
والعشقُ عذابٌ لكنه عذبٌ، وجنونٌ لكنه جميلٌ، ومع ذلك
فلا يُغبطُ عاشقٌ، لأنَّ قلبه ليس له، ومشاعره تضطرم في غير
برٍّ، وخفقاته تنبض في غير هدى، وهِمَّتْه لا تتجاوز كيان إنسانٍ
مثله، ولو لم يكن فيه إلا صرفُ قلبٍ صاحبه عن المحابِّ العظيمة
الجليلة التي خلق لأجلها لكفاه. والعاشق مسكين، محتاجٌ لصدقةِ
الشفقة، فهو من أشقى خلق الله طرّاً.

وما في الأرضِ أشقى من محبٍّ وإن وجدَ الهوى حُلُوَ المذاقِ
تراهُ باكِاً في كل حينٍ مخافةُ فُرقةٍ أو لاشتياقٍ
فتسخنُ عينُه عند التلاقي وتسخنُ عينُه عند الفراقِ



وتذكر أنّ الأنثى: هي أمُّك، هي أختك، هي بنتك، هي جارتك، هي زوجك، هي الأنثى التي ربما زعمت يوماً أنها حبيبتك. والأنثى: رُوح رقيقٌ؛ فأدنى خدشٍ يؤلمه، ونسمةٌ شديدةٌ؛ فأقلُّ أذى يُتلفها، ووردةٌ غضةٌ؛ فأهونُ مسِّ يُذويها، وفؤادٌ خفاقٌ؛ فأيسرُ حرفٍ يُمضُّه، فاستوصِ بها خيراً رحمك مولاها.

ويا أيُّها الراحلُ للآخرة: تذكرْ أنّ لمحبةِ الله ورسوله ودينه قد ضَعَنْتْ ركائبُ الأبرار، وركضت خيلُ المقربين، فأدرِكمهم ما دمت قادراً، قبل النومة الطويلة التي صحتها انشقاق قبرك للحساب. وكلُّ شيءٍ يُحِبُّ لغيره إلا الله تعالى فيُحِبُّ لذاته. ومن أحبَّ الله؛ أحبَّ كلَّ ما يُحبه الله. وتأمل حبَّ أبي بكرٍ وأبي طالب للنبي ﷺ، فكلاهما أحبه جداً، ولكن الأول أحبه الله، والثاني أحبه لنفسه مع الله، فلما اختلفت الحقيقتان؛ اختلف المصيران.

إنَّ قيمة الحب قيمة إنسانية عظيمة جداً، وفي أعمال القلوب هي المُقدَّمة حتى على الرجاء والخوف، وفي غايتها مع الخضوع

تكون العبادة التي هي جوهر التوحيد. ومن الوصايا المهمة لكل مؤمن: الوصيةُ بمراجعة الأسباب العشرة الجالبة لمحبة الله تعالى، وقد ذكرها وفصلها شمس الدين ابن القيم. وقال رحمه الله: «من قرّت عينه بالله؛ قرّت به كل عين، ومن لم تقرّ عينه بالله؛ تقطعت نفسه على الدنيا حشرات»^(٢٠). وقال شيخ الإسلام: «ما يُبتلى بالعشق أحدٌ إلا لنقص توحيده وإيمانه»^(٢١). وقال أيضاً: «من أراد السعادة الأبدية؛ فليلزم عتبة العبودية»^(٢٢). وفي النونية:

وعبادة الرحمن غاية حبه مع ذلّ عابده هما قطبان
وعليهما فلّك العبادة دائرٌ ما دارَ حتى قامتِ القطبان

* ومن الوصايا: تفكّر في نعمة الهداية للحق، ﴿فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ

إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: ٣٢] فأنت كلّ يوم تدعو الله تعالى أن يهديك الصراط المستقيم في الفرائض سبع عشرة مرّة، لأنها الطريق الموصل لرضوان الله وجنته. والهداية تتضمن أموراً ثلاثة: العلمُ

(٢٠) روضة المحبين (١/ ٢٤٧).

(٢١) الفتاوى (١٠/ ١٣٥).

(٢٢) نقلها عنه ابن القيم في المدارج (١/ ٤٦٤).



بالصراط المستقيم، ثم التوفيقُ للعمل بذلك العلم، ثم التثبيتُ عليه حتى الرحيل. فاحمد الله الذي هداك حينما ضلّ غيرُك. واعلم أنّ هناك أزمةً وجودية شديدة في الفكر المادي، فمن الناس من نضج عقله وهو لم يعرف ربه، ومنهم من يشيب فوداه في صحراء الإلحاد المطلق، أو وحلّ الشكّ المطبق، أو جهالة اللاأدرية الفكرية، فلا شيء ثابت لديه ولا متغيّر، بل ولا شيء حقيقي، إنما هو عبارة عن حيرة تُلفّ روحه وتكتم أنفاسه، ودون راحته وسكينته خرطُ القتاد.

فتخيل أنك لا تدري من أين أتيتَ، ولا تدري إلى أين تذهب! فاحمد لله على نعمة إعلامك بضرورات المعرفة وكالات نعيمها، بحُسن التصوّر لبدء الخليقة المشهودة ونهاية العالم، وبما يُروي ضمناً الروح بمعرفة ربها وخالقها، ويسقي عطشَ العقلِ بمعرفة كينونة دنياه ورؤية براهين آخرته، وبتوضيح وتسهيل طريق سعادة أبد الأبد الإسلام، بدليليه القرآن والرسول ﷺ.

حالٌ كثيرٌ من الحيارى في هذه الأرض من أهل الفكر المادي البعيد عن نور الوحي الرباني أنّ الواحد منهم لا يطيب مزاجه إلا بتغييبه عن واقعه، بسكرة شراب أو نشوة خيالٍ، إذ أنّ إفاقته بالرجوع للواقع الصادق المشعّ يبراهين الفطرة واتساق العقل السليم مع حركة الكون العامة بامتدادها في الأطراف زماناً ومكاناً؛ يصيبه بدهشة كثيفة، لا تطيقها نفسه النزاعة للعلوّ والاستكبار ضد كل ما يحول بينه وبين عبوديته لنفسه دون غيرها ولو كان رب العالمين، ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١].

الفكر المادي المنكر لكلّ ما وراء المادة والطبيعة يصطدم كلّ لحظة بجمال اليقين الحسية والعقلية، وأشدّ منها الروحية. ذلك أنّ الجاحد لهذه اليقينيّات الغيبية لا ينفك عن الارتباط بها ومناداتها ومناغاتها والاستماع لها، بل والابتهاال والدعاء والاستغاثة لمن وراءها عند الكروب والشدائد، حتى وهو يعبّ كأس الإنكار الظاهر، ويكرع في تكرار زيف مشاعره. وأكثرُ من رام تلمّس طريق الغيب؛ صرعه الجهلُ دون عتباته. إنّهُ السّفَرُ الدّووب



للروح لإشباع حاجتها للإحساس بربوبية ربها وعبادته والأمن تحت كنفه.

إذ أن المفتاح الأول لعالم الغيب - وأعني به العلم بأن للكون رباً معبوداً هو الله وحده - لم يؤتِ ربُّ الغيب والشهادة سبحانه إلا الموفقين من عباده. نعم، لقد نقش رسمه في الفطرة الأولى لكلِّ إنسان، فإن ساعد على ذلك سُقيا رحمة؛ أزهرت وأثمرت النافع الجميل من علوم الوحي الشريف النقي، أما إن انتهبا قَطَّاعُ طريق فلاح الأرواح إما بغيب مشوّه أو بشهادة مادية صماء؛ فإن السعادة حينها تعود شقاءً، والنعيم يرتدُّ بؤساً، والعلم ينقلبُ جهلاً. وللحكيم سبحانه في ذلك حكمٌ يُحمدُ عليها لا يدرك البشر إلا بعض أطرافها بتوفيق الله من شاءه منهم.

هذا وللفكر المادي أزمةٌ ملازمة، فكلُّ إنسان مهما تطرّف في فكره وإلحاده؛ لا بد أن يؤمن بقدرٍ مُشتركٍ من علم الغيب، وأن هناك عوالم موجودة غير محسوسة بحواسه الخمس، وإن اختلف الناس اختلافاً عظيماً في الإقرار بأفرادها وتفصيلها، قال الله

تعالى في بيان إقرار ضمائر أشد الجاحدين بربوبيته سبحانه:
﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] وقال
في وصف حال المكذبين في الدنيا إذا شاهدوا ما كانوا ينكرونه
ظاهراً مع إقرارهم به في الباطن: ﴿بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ
قَبْلُ﴾ [الأنعام: ٢٨].

ولا يعني هذا بحال أن كل من آمن بالغيب فهو على سبيل
نجاة، بالطبع لا، فكل أمم الأوثان - بلا استثناء - هي مؤمنة
بعوالم غيبية، لكنها عوالم شوَّهها الجهل والتكذيب وبعدهم عن
آثار المرسلين، فلا صلاح للعالم على التحقيق إلا بسيره على قبس
من هدي النبوة.

وكلما تقدّم العلم التجريبي بفروعه الفلكي والتطبيقي والطبي
والتشريحي وغيرها؛ فإنه يجد في نفسه ضرورة للسجود في محراب
الإيمان، بأن وراء هذا العالم المتناسق البديع خالقاً حكيماً مدبراً
رحيماً، وعلى قدر تجرده لنداء المنطق وإلحاح الفطرة الأولى؛



يكون قربه من الاستسلام لرب العالمين، وما أقربهُ للإسلام حينها إن وفق لمن يأخذ بيده الحيرى ونفسه القلقة.

وهناك خيط فاصل بين الحقيقة والخرافة، بين العلم والأسطورة، ومن أبصر الخيط بنور الوحي؛ انتظم أمره واستقامت محبته. فليس بدع من القول: إن كل إنسان لا بد أن يؤمن بقدر من الغيب يلتقي إليه أشلاء حيرته من سرّ الوجود وعلة الخليقة، وما يلحق ذلك من تحميل ذلك الغيب أموره المحيرة التي يحسّ بالحاحها عليه، وضغطها الشديد على عقله ونفسه، كروحه التي بين جنبيه مثلاً؛ فنفسه العاقلة المتصرفّة في جسده هي أقرب سرّ وأغمضه وأحلّكه مع إحساسه الدائب بها، فكيف هذا! ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [غلايسراء: ٥٨] ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [المالك: ١٤].

لذا؛ فالعلم في كثير من أحيانه إنما يكون بعد الإقرار بالجهل الإيجابي، أي الإقرار بالحقيقة مع التسليم بعدم معرفة التفاصيل، مع الاستسلام والتفويض لمن بيده مقاليد الأمور ومفاتيح

حقائق العلوم، وهو الجهل البسيط الذي لا ينفك عنه إنسان مهما بلغ في مراتب العلوم، ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِّنْ أَلْعَلِّمَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] فحينئذٍ يعرف المرء قدره، وأنه لم يعط من العلم إلا على قدر ما يحتاجه لإقامة العبودية لرب العالمين، ولاستخلافه في الأرض ليعمرها ثم يعبرها للدار الآخرة. لهذا فأساس الدين هو الإيمان بالغيب، وللايمان بالغيب طرفان:

الأول: العلم واليقين والإقرار بحقائق ما أخبر عنه الوحي في القرآن والسنة من صفات الله تعالى والجنة والنار والبعث والملائكة والجن وغير ذلك من الغيوب المذكورة في الكتاب والسنة.

الثاني: الوقوف عند هذا الحد، وعدم الخوض في الكيفيات بدون دليل وبرهان، فصفتُ الله تعالى معلومة مثبتة مؤكدة، ولكن كيفياتها لا نعلمها ولا نخوض فيها، فالقول في الصفات كالقول في الذات يُحتذى فيه حذوه، ويُجرى فيه بمثاله، كذلك



أمور الغيب التي جعل الله دونها سجفًا من الحجب التي أحالتها للغيب المطلق دون عالم الشهادة المحسوسة.

لذلك فأول وصف في القرآن وصف الله تعالى به عباده المؤمنين هو إيمانهم بالغيب، فقال سبحانه في أول سورة البقرة: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] فلا إيمان لمن لا يؤمن بالغيب، بل كل أركان الإيمان الستة هي من أمور الغيب، وكفى بذلك تعظيمًا لهذا الجانب.

وبالجملة؛ فمن أنكر الغيوب واستمسك في النزاع بالمحسوسات دون الغيبات فهو مناقض لنفسه، مكذب لفطرته، مناوئ لصادق إحساسه، وليس له عند الله من خلاق.

فيا صاحبي: اكتب بمداد سواد الليل على أديم بياض النهار منشور خلاصك، وأنّي ذلك إلا بالباقيات الصالحات، فاغتم جمعيتك قبل الشتات، وبقيتك قبل الفوات.

* ومن الوصايا: كُنْ عالي الهمة، سامق الهدف، باسق النظر، بعيد الرؤية. فأيامك الآن هي تاريخك غدًا، فاكتب تاريخك

بيدك؛ فَقَدَرُ الْمَرْءِ هِمَّتَهُ. واعلم أنَّ ما عند الله خير وأبقى، وأعلى
 همّة العقلاء الفردوس الأعلى بلا حساب ولا عذاب، قال
 عبد الغني المقدسي رحمه الله: «أبلغ ما سأل العبدُ ربَّه عزَّ وجل
 ثلاثة أشياء: رضوان الله تعالى، والنظر إلى وجهه الكريم،
 والفردوس الأعلى»^(٢٣). نسأل الله الكريم من فضله وجوده
 وإحسانه وكرمه.

وإذا كانت النفوس كباراً تَعَبَتْ في مُرَادِهَا الْأَجْسَامُ
 وكان المحدث البرزالي رحمه الله إذا قرأ حديثَ الذي وقصته
 ناقته وهو محرم فمات، وفيه: «فإنه يُبْعَثُ يوم القيامة ملبياً»^(٢٤).
 بكى ورقَّ قلبه كثيراً؛ فكانت خاتمته أن مات محرماً سنة
 (٧٣٩) رحمه الله. فهل في حياتك ما تحيا لأجله وتموت لأجله؟
 وقل لي: ما هِمَّتُكَ، أقل لك من أنت. وسئل ابن باز رحمه الله:

(٢٣) ذيل طبقات الحنابلة (٣/ ٢٠).

قلت: ودعاء الله تعالى الفردوس الأعلى بلا حساب ينتظم هذا كله، نسأل الله
 الكريم من فضله العميم.

(٢٤) البخاري (١٢٦٥) ومسلم (١٢٠٦).



من أين لك هذا النشاط وقد جاوزت التسعين؟ فقال ذا الهمة الشابة: «إذا كانت الروح تعمل؛ فإنّ الجوارح لا تكلّ».

له همٌّ لا منتهى لكارها وهَمَّتْهُ الصُّغرى أجلُّ من الدهر
ولقد كنتُ ولا أزال أردد: إرادة قويةٌ بذكاء متوسط؛ أفضلُ
وأحسن وأثمر من عبقرية فذّة بإرادة ضعيفة. وذكاءٌ متوسط
بخلق جميل وروح لطيف؛ خيرٌ وأنفع من ذكاء عالٍ بدونهما.
واحذر من ذكاء بلا زكاء. فالهمةُ الهمة يا مرید القمّة، والغنائمُ
الغنائمُ أيها النائم.

وعاجزُ الرأي مضياعٌ لفرصته حتى إذا فات أمرٌ عاتبَ القَدَرَا
واعلم أنّ الكفايةَ والطموحَ والمالَ والفراغَ يصنعن فرقاً هائلاً
إذا اجتمعن بإذن الله. وإنّ الهمَّ جزءٌ من الهمة، يُحرق صاحبه
حتى يُنضجَ طموحه بإذن ربه. ولقد ألقى النووي رحمه الله كلمةً
كاويةً لكل ذي همّة عالية فقال بنصح وإشفاق: «وليس بعاقِل
من أمكنه درجة ورثة الأنبياء ثم فوتها»^(٢٥). فاجعل غايةَ همتك

الفردوس الأعلى، ومن وصايا السلف: «من نافسك في الدين؛ فنافسه، ومن نافسك في الدنيا؛ فألقها في نحره».. لبيك إن العيش عيش الآخرة.

وواجباً لبعض البشر، كيف يلتفتون ويحتفون بتفاهات لا تستحق مجرد التنبه لوجودها.. فلا تكن منهم لك الله! بل كن لله، فتغدو الضمير الحي حين تتكلم، والنهر الرقاق حينما تنصح، والكلمة الباسلة حينما تنفجر، واليد المُنخنة حينما تُجاهد، والمبدأ الشاهق حينما تُتقدم، والفوز العظيم المبين حينما تُبعث.

وما العجز إلا أن تشاور عاجزاً وما الحزم إلا أن تهّم فتفعلاً
واعلم أن العبادة هي روح العلم وحياته، فلا ينفع العلم بلا عمل، وقد استضاف الإمام أحمد أحد طلابه، فوضع عنده الماء بعد صلاة العشاء، ثم نام الإمام أحمد، فلما كان الفجر وجد الماء لم يتغير، فقال متأسفاً متعجباً: «طالب علم لا يقوم الليل»!

* ومن الوصايا: استمتع بحياتك، فروحك وديعة من الله في جسدك، فأنت وديعة عندك، فأعط الآخرة حقها والدنيا حظها،



﴿وَلَا تَسْ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ [القصص: ٧٧] وقال الحبيب ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ»^(٢٦). ويبقى للنفس حق في سويغات يُخلى بينها وبين رغبتها، ويُغضي عنها مع راحتها مع من تحب من طيّبي البشر.

واعلم أنّ الدنيا لا تطيب إلا بطاعة الله، وأنّ الآخرة لا تُتال إلا برحمته. نعم، لا تطيب الحياة إلا بالتقوى، فهما انغمس المرء في لذائذها وثنى بين أعطافها، فسيبقى في صدره فراغ كبير وحشجة كاوية ووخزات مؤلمة لا يذهبها سوى طمأنينته بصحة مسار حياته، ويقينه بقربه من مولاه وشوقه للقياء.

فعليك بطاعة الله ثم استمتع بالزمان كيفما كان. وقل صادقاً: آمنت بالله، ثم التحف زمانك على طاعته. فلا حلاوة للعالم إلا بالإيمان، فعش يومك بسرور واستبشار، فإنّ يومك الآن هو

(٢٦) الترمذي (٢٨١٩) وحسنه.

مستقبلُك الذي كنتَ تنتظره بالأمس، وهو ماضيك الذي
ستحنُّ إليه غداً، وتاريخُك الذي ترقمه بمواقفك. فإن ابتهج فؤادك
يوماً فلا تقتلنَّ لحظته السعيدة بتصرفٍ غبيٍّ، لا تفعل؛ فقد تكون
الأخيرة.

واستمتع بيومك فهو لن يعود، وبصحبك فلن تجدهم دوماً،
وبدينك فهو الخالد معك، وابتهج بأجمل ماضيك، وتفاءل
بمستقبلك، فدينك دين الفرح بالله وفضله.

ومن المؤسف أن تعلم أنَّ الخيالَ غالباً أجملُ من الواقع، ولكن
فلتعلم أنَّ الألمَ والشقاءَ كذلك، فكن حالمًا هناك وواقعياً هنا،
وما أهمُّك فابدأ به. وتذكر أنَّ العمرَ أقصر من أن نضيعه في
لحظات لا تقودُ لبجوحة الجنة، فتلك اللحظات أثمن من أن
نهدرها في زحام السنين.

وأثناء العمل ارفع سقف المنى؛ فهو وقود الإبداع، وبعد
الإنجاز اخفض سقف التوقع؛ حتى لا تنهار، كن كما أنت، فن
انتفخ انفقاً، ومن ضمير تلاشى.



واعلم أنّ كثرة استدعاء الماضي يورث في النفس كآبة
وسوداوية، وكثرة التأمل والانتظار للمستقبل يورثها قلقاً، وخيرٌ
لك أن تعيش يومَكَ متفائلاً بالقادم مستحضراً جميل الماضي.

محسناً الظنّ بجميل صنع الله تعالى وتدييره.

ومهما أحاطتكَ أنكَادُ الدنيا فعليك أن تُفكَّ نفسك من غَلَقَتِها
لفساح الدنيا وبهجتها، ومهما حصل - ويحصل - فيبقى في الدنيا
شيء يستحق الوقوف عند جماله.

ولا بأس عليك من جمالِ خيال، فهو طريقٌ للمعرفة، وبوابةٌ
لها، وسُكَّرٌ يُطيب مذاقها، وزنادٌ يقدح معدنها، وروح يطير بها.
ولتكنْ لديك - أيها الفاضل - خصوصيات وخبيئات جميلات لا
يعلم بها سوى ربّ البريات، ولا تجعل نوافذك كلها مفتوحة على
الناس.

وإنّ مِنْ أَكْثَرِ ما يسبب لك القلق والتوتر هو الأشياء غير
المنجزة بحياتك، فأُنجزها، أو تخلص منها. وابدأ بأهمّها ولو كان
شاقاً، لا أسهلها وإن كان مرغوباً. فالقضايا العالقة، والملفات

المفتوحة، والمشاريع المتعثرة؛ تشوش الفكر، وتضيّق الصدر، وتشتت العمل. وحلّها في إنجازها أو إلغائها، فالكَيُّ والقطعُ خيرٌ من انتشار الآفة. وإدمانُ العادة السيئة - فاعلم - إنّما هو ككرة الثلج، كلّما هربت منها لحقتك بشكل أكبر، لكن إن واجهتها بسيف إرادتك ودرع صدقك ومضاء إخلاصك، وأبدلتها بعادة حسنة طيبة؛ زالت للأبد بإذن الله.

* ومن الوصايا: لا تحزن، فالحزن شعور سلبيّ سوداوي مخالف للسرور والسعادة والاستبشار، وهو مفض مع الاستمرار في سردابه للكآبة والقنوط وسوء الظن بالله تعالى وحسن تديره وعظيم حكمته ولطفه ورحمته وبره، فلا تقف عند أخطائك ولا تجلد بها ذاتك، فلكلّ منّا أخطاؤه الغيبة في الحياة.

وليكن شعارك دومًا حينما تضيق بك الدروب، وتتراكم عليك الخطوب، وتُمْنَى بفشلٍ وخيبة: لعل في الأمر خيرة، ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ



لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» [البقرة: ٢١٦]. واعلم أن كثيراً من الخيرة مقرون بالكره، ولم يضع من مالك ما وعظك. والجنة دار اللذائذ، وكما قيل: يا فاكهة موعدي وإياك الجنة. وقال ابن عطاء السكندري: «منع الله عطاءً، ولكن لا يفهم العطاء في المنع إلا صديق».

وَهَوَّنَ مَا أَلْقَى مِنَ الْوَجْدِ أَنِّي أَسَاكِنُهُ فِي دَارِهِ الْيَوْمَ أَوْغَدًا
والله تعالى يحب الخير لعباده، ويدلهم على طريق الفرح، فقال سبحانه: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨]
ونهى عن الحزن في غير موضعه: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ [الحج: ٨٨]
ومن أجل أعمال القلوب قاطبة: الفرح بالله تعالى. ولو كان للسعادة معيار حسي، لصعق أهل المال والجاه والسلطان والصحة من افتقارهم لها إزاء غنى الأتقياء بها، ولو علم الناس حقيقة السعادة ما ذهبوا بعيداً، لأنها بين أيديهم لو كانوا يعقلون، إنها في الفرح بالله تعالى، وطريقها الإيمان والقرآن والاستقامة.

حتى مع عوارض اليأس لا تحزن؛ فلك أسوةً صالحة، فكم من مؤمنٍ حبيبٍ لله قد مات وحاجته في صدره لم يدركها في دنياه. وبما أن المؤمن بشرٌ مثل جنسه فلا يُنكر عليه الحزن العارض لفوات ملائم أو طروء مخالف لطبعه أو مضايقة روحه ونفسه، ولكن عليه أن يكون مَلِكَ نفسه وسَيِّدَ مشاعره وطبيب روحه؛ فيُرْخي لمشاعره الزمام شيئاً بحيث لا يكتبها، كما لا يتركها بلا قيد ولا خطام. ويا أيها الحزينُ تَصَدَّقْ.

وسئل ابن عيينة رحمه الله عن هَمٍّ لا يُعرف سببه؟ فقال: «هو ذنبٌ هممتَ به في سِرِّك ولم تعمله؛ فجزيت هَمًّا به». فللذنوب عقوبات؛ السرُّ بالسرِّ، والعلانيةُ بالعلانية، والله المستعان.

وليستعمل المؤمنُ علمه بالله وحسن ظنه به وعقله وفكره فيما بين يديه من دوافع حزنه وروافع بلائه وأسباب سلوانه، ولسان حال الشارد: لَكَ اللهُ يا عذابات السنين، ويا جراحات الأنين، كم لك في الفؤاد من لوعةٍ تكوي نداءات الحنين. فيجيبه نداءُ العقل بتلاوة منشور الفلاح للمتقين: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ



الْخَوْفُ وَالْجُوعُ وَنَقْصُ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ
 الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ
 رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ
 هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿البقرة: ١٥٥ - ١٥٧﴾ وقول العليم الرحيم: ﴿قُلْ
 أُوتِيتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَمُ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ
 تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ
 وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٥]
 وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ
 الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ [مريم: ٩٦]. قال أحد السلف: «تَذَكَّرْ أَنَّ كُلَّ نِعْمَةٍ
 دُونَ الْجَنَّةِ فَانِيَةٌ، وَكُلُّ بَلَاءٍ دُونَ النَّارِ عَافِيَةٌ».

فإن كان الأمر لفوات دنيا؛ فليعلم أنّ الدنيا بخذا فيرها لا
 تستحق على التحقيق حزن ساعة، لكن لضعفنا البشري المركب

وغفلتنا الآنيّة نسترسل فيما لا ينبغي للعاقل الاسترسال فيه.
والزمن طيب جيد للأحزان.

وعن تجربة: فمن أجدى طرقِ المواساة غير المباشرة للمُصابِ
والمكَلوم؛ إشغاله بأنْ يواسيَ مصيبةَ غيره ممن يحبهم، فينسى -
مؤقتاً - مصيبته التي ستبرد قليلاً بالتقادم.. وإنَّ من الخطوب ما
لا يداويه سوى موعود الآخرة!

تَذَكَّرْتُ عَصْرًا قَدْ مَضَى فَتَهَافَّتْ بَنَاتُ الْحِشَاءِ وَانْهَلَّ مِنِّي الْمَدَامُ
وَنَعْلَمُ أَنَّ الْمُلْكَ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَأَنَّ قَضَاءَ اللَّهِ لَا بُدَّ وَأَقْعُ
وَأَمَّا إِنْ كَانَ الْحُزْنَ لِلدِّينِ؛ فَيَنْظُرُ: إِنْ كَانَ لَذَنْبٍ أَوْ فَوَاتٍ
طَاعَةٍ وَقُرْبَةٍ؛ فَحُزْنُهُ مُحْمَدٌ، لَكِنْ عَلَيْهِ أَنْ يَجْعَلَ حُزْنَهِ إِيجَالِيًّا،
بِحَيْثُ يَعْوِضُ مَا فَاتَهُ، وَيَسْتَدْرِكُ مَا فَرَّطَ فِيهِ بِحَسَبِ وَسْعِهِ
وِطَاقَتِهِ، وَيَسْتَغْفِرُ لَذَنْبِهِ وَيُلِحُّ بِدَعَاءِ رَبِّهِ بِقَبُولِ تَوْبَتِهِ وَالْعَفْوِ عَنْهُ.

يَا صَاحِبَ الْهِمِّ لَا تَنْزَعْجْ فَعَمَّا قَلِيلٍ يَكُونُ الْفَرْجُ
فَمَا فِي سَدِيمِ الدُّنَا مِنْ ظَلَامٍ إِلَّا وَمِنْهُ يَكُونُ الْبَلَجُ
وَأَمَّا الْحُزْنُ لِلدِّينِ غَيْرِهِ؛ كَتَقْصِيرِ النَّاسِ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَانْتِشَارِ
الْمُنْكَرَاتِ، وَضَعْفِ حَالِ الْمُسْلِمِينَ، وَضَعْفِ تَدِينِهِمْ، وَظُلْمِهِمْ مِنْ



قبل أعداء الدين قتلاً وسجناً وتشريداً، ونحو ذلك من الحزن السلبي لغلبة الكفار المادية للمسلمين؛ فإنه لا يصنع شيئاً، بل منهيٌّ عنه شرعاً، قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً﴾ [آل عمران: ١٧٦]. وقد يكون حزنه محموداً من جهة رحمته بهم، ولكن لا بدّ أن يكون حزناً باعتدال، مع مزجه بالاحتساب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر تجاه المنكرات، وبال دعوة إلى سبيل الله تعالى والمجاهدة لأعداء دينه، وبالرضا بالقضاء لمصيبات الأمة ونقص أمنهم وأرزاقهم، مع بذله جهده وطاقته في سبيل رفع ما يمكن رفعه من حال الأمة، وكلّ ميسر لما خلق له.

وليعلم أن الجنة هي ميعاد المحبين من المؤمنين، وأنّ غمسةً فيها تُنسي شقاء الدنيا كلّها.

وثمة بشارة لقلب كل مؤمن: وهي أنّه مهما كان مكانك وزمنك وضعفك وعجزك وفقرك وقِلَّتْ أُمَام انتفاش الباطل وأهله؛ فاعلم أنّهم لا يستطيعون سلب الإيمان من صدرك. وهذه ورّبي كافية

في برد اليقين وثلج الطمأنينة، ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾ [إبراهيم: ٢٢] . ومن نافع وصاياهم: «عند القَدَرِ لا تجزع، وعند الأمرِ لا تعجز» .

ومن حقوق الصحبة تخفيفُ الأحزان، ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ﴾ [التوبة: ٤٠] . وأمرُ المؤمن خيرُ كَلَمَةٍ، والله تعالى يقول: ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٣٨] أي ليس عليهم خوف من المستقبل، ولا حزن على الماضي . وليس مع الله ضيعة .

فإذا ابتليت بنكبةٍ فاصبر لها الله حسي وحده وكفاني
ويا صاحب الهم: أينك عن الملاذ؟ إنه يقينك بالله وثقتك به،
انطرح بكليتك بين رحمته وكرمه، قال ابن مسعود: «الصبر شطْرُ
الإيمان، واليقين هو الإيمان كله» . إلهي، أنا لك، وأنا إليك
راجع .

تموتُ النفوس بأوصابها ولم يدرِ عَوَادُهَا ما بها
وما أنصفتُ مهجةً تشتكي أذاها إلى غيرِ أحبابها



فكل مهموم، أو حزين، أو مريض، أو مُحطَّم الفؤاد، أو
متآكل الروح من فشله أو عثرته أو إحباطه: ثُمَّ رَبُّ يراك، وإلهٌ
يسمع نجواك، ويفرح بضراعتك، ويُقربك إذا تخلَّى عنك
الأقربون، ويذكرك إن نسيك المحبون، ويرحمك إذ قسا عليك
الألدون، ويرفعك ويرزقك ويشفيك ويسعدك، ويشرح صدرك
وييسر أمرك. فأين أين أين أنت عن طرق بابه، واللياذِ بعظيم
جنابه، والالتذاذِ بجَميل خطابه، والانطراح في عبوديته ودعائه؟!
اشكُ نفسك والناسَ إليه، واحذر من أن تشكوه إليهم، فكيف
تشكو من لا يأتي بالخير إلا هو!

وَإِذَا شَكَوْتَ إِلَى ابْنِ آدَمَ إِنَّمَا تَشْكُو الرَّحِيمَ إِلَى الَّذِي لَا يَرْحَمُ
وعليك بجدّة الأنبياء: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾
[يوسف: ٨٦] والبُثُّ هو الحزن الذي لا يُطاق.

والناس يقولون: لا تكبت همومك في صدرك، وبثّها لصديق
يواسيك؛ لأنّ الصدر إذا نفّث برأ، ولا بدّ من شكوى إذا لم
يكن صبرٌ.

وَأَبْثْتُ عَمراً بَعْضَ مَا فِي جَوَانِحِي وَجَرَعْتُهُ مِنْ مَرٍّ مَا أَتَجَرَّعُ
وَلَا بَدَّ مِنْ شَكْوَى إِلَى ذِي مَرْوَةٍ يُوَاسِيكَ أَوْ يُسَلِّيكَ أَوْ يَتَوَجَّعُ
وَمَا عَلِمُوا أَنَّ الْبَثَّ النَّافِعَ هُوَ الشَّكْوَى إِلَى مَنْ بِيَدِهِ مَقَالِيدُ الْأُمُورِ
وَمُعَاقِدُ الْأَقْدَارِ. فَيَا نَازِفاً هَمَّهُ بِدُمُوعِهِ، وَمُرْسِلاً شَجْنَهُ بِأَيْنِهِ، وَشِكَايَتِهِ
بِزَفَرَاتِهِ؛ أَبْشِرْ بِبَشْرَى اللَّهِ لَكَ: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]. فُبِثَّ
لَهُ وَحْدَهُ شَجُونُكَ وَأَحْزَانُكَ ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ
وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦].

وَدَرَّبَ نَفْسَكَ عَلَى أَنْ يَكُونَ قَلْبُكَ أَقْوَى احْتِمَالاً وَأَرْحَبَ
مَكَاناً وَأَشَدَّ جَلْدًا لِأَلِيمِ الْوَارِدَاتِ عَلَيْهِ، فَإِنْ ضَاقتْ بِكَ الْأَرْضُ
يَوْمًا بِمَا رُحِبَتْ؛ فَالْجَأْ لِمَنْ لَا يَخِيبُ مِنْ دَعَاةٍ، وَلَا يَخْسِرُ مِنْ
عَامِلَةٍ، وَلَا يَنْهَزِمُ مِنْ تَوَكُّلٍ عَلَيْهِ، وَلَا يَفْتَقِرُ مِنْ اغْتِنَى بِهِ. أَمَّا مَنْ
لَمْ يُطِيقْ، وَرَأَى صِلَاحَهُ فِي ذَلِكَ؛ فَلَا بَأْسَ بِشَرِّ الْأَدَبِ مَعَ
اللَّهِ تَعَالَى، بَعْدَ التَّبَرُّمِ مِنْ أَقْدَارِهِ.

إِذَا لَمْ أَطِقْ صَبْراً رَجَعْتُ إِلَى الشَّكْوَى وَنَادَيْتُ تَحْتَ اللَّيْلِ يَا سَامِعَ النَّجْوَى



وكيف ينفعنا الإيمانُ بمرّ القضاء إذا لم تثبت على ثلج يقينه
 وبرْدِ حُسْنِ الظن بعاقبته قلوبنا عند احتدام الكرب! وتذكّر أنّ
 أعظم مُسكّن في العالم هو جرعة من الرضا بمرّ القضاء. ولكل
 مصاب ومحزون ومهموم: سيكون هذا يوماً ما مجرد ذكرى من
 الماضي، فأرض ربك الآن؛ لتسعد بالذكرى غداً، فالدنيا، كلّ
 الدنيا لا تساوي غمسةً في الجنة.

* ومن الوصايا: تسامح وتغافل. فمن طلب حقّه جملةً؛ خسرهُ
 جملةً. فلا بدّ من السماحة حيال أخذ الحق وإعطائه. والمتأملُ
 يرى أنّ من أكبر أسباب الشقاق: استقصاء الحقوق، لأنّ هناك
 منطقة صغيرة يسيرة بين الحقيقتين، وكلُّ يدعيها، ولو سأمح أحدهما
 ببعض ما يراه له؛ بردت نار الخلافات وانفجأت عين العداوات
 والتأمت الشقوق بين أهل المروءات. وهذا عزيزٌ في النفس
 الإنسانية. قال الحسن: «ما استقصى كريم قطّ، إنّ الكريم يتغافلُ

عن تقصير أهله وصحبه، ولا يستقصي حقوقه عندهم»^(٢٧). وأبلغُ
وأجلُّ من هذا قولُ رب العزة جل جلاله في وصف كامل
الأخلاق ﷺ: ﴿عَرَفَ بَعْضَهُ، وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ [التحریم: ٣].

أَعْرَضَ عن العَوْرَاءِ إِنْ أُسْمِعْتَهَا واقعدْ كأنك غافلٌ لا تسمعُ
ولا تُخرج من الناس أسوأ ما فيهم فيظهر ما لا تريدُ ولا
يريدون، فلا تتجسس، ولا تلحف في السؤال، ولا تُحقق سوء
الظن، ولا تشترط اعترافاً تاماً، ولا اعتذاراً كاملاً، نخذ ما تيسر
ودع ما اشتدَّ. ومن حكم العرب: «إذا عرَّ أخوك فهن»، فهي
حكمة عربية سامية، فلا يكسر العلاقة كتشبُّث الطرفين بذلولِ
العِزَّة، وعِزَّة النفس طيبةٌ إن كانت في محابِّ الله أو أفضت إلى
ذلك، لكن تذكَّر أنَّها ما أهبطَ إبليس من الملكوت؛ لما رأى في
الأمر غضاضة فأبى السجود لمن لا يُحبُّ. فكن اللطيف منهما
تكن الأعلى، وأخوك سوف يعود، وإلا فقد كُفيتَه، ﴿خُذْ

(٢٧) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال للبرهان فوري (٢ / ٥٣٩)

(٤٦٧٧).



أَلْعَفَوَ وَأَمَرَ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ) [الأعراف: ١٩٩].
«وخيرهما الذي يبدأ بالسلام»^(٢٨). وما تشاتم اثنان إلا غلبَ
الأمهما.

واحرص على حفظ القلوب من الأذى فرجوعها بعد التنافر يصعب
وليس من اللازم إن كانت لك وجهة نظر مخالفة أن تبديها
وتناقش حيالها، فأكثر ضجيج المجالس إنما هي تفاهات وإن
احمرت لأجلها الحدق، لكن إن ترجح لديك خيرية المشاركة في
نقاش أو مناظرة؛ فامض بسكينة ووقار وهدوء، فمن كان على
الحق فليس بحاجة للصراخ، والطبل الفارغ أشد ضجيجاً. وعليك
بالصافي المستقر، ودع الكدر لأهل الكدر، واضرب من الأمور
أبجدها، ولا تكن كحال: أوسعتهم سباً وأودوا بالإبل.

ولا تقلق إن احتد محاورك في نقاشه، فهذه علامة بداية قبوله
لفكرتك عند أكثرهم، لأنك هتكت حاجز المجب العقلي لديه
فظهر له عوارها، فتدفع عزّة نفسه معرة الرجوع بشيء من لجج

(٢٨) البخاري (٢٦٣٧).

الغضب، فاهدأْ وعليك بالسكينة، وامتنصْ غضبه بحلمك ولين
كلامك وصدق إشفاقك وعدم فَرَحِكَ بِكُسْرِهِ، ولربّما يأتي يوم
يُثَبِّتُ معك حين تزول أقدام الأقرين. وتذكّر خبر سهيل بن عمرو
رضي الله عنه في مكة لما كاد بعضهم أن يرتدّ على عقبه مع
المرتدين؛ فقام للإسلام مقاماً مشهوداً مشكوراً، وهو الذي أراد
عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الحديبية أن يخلع ثنيتَه، ولكن
أبى الشفيق الناصح صلوات الله وسلامه وبركاته عليه^(٢٩).

وأنت مع الناس بين حَقَّين: عليك فَأَدِّهِ ولا تؤخِّره، ولكَ فلا
تطلبه ولا تنتظره. واعلم أَنَّ تسعةَ أعشارِ العقل في التغافل، وكما
أَنَّ الحلمَ سيدُ الأخلاق في البداية؛ فالعفو سيدها في النهاية.
وكتب سلمان إلى أبي الدرداء رضي الله عنه: «ليس الخير أن
يكثر مالك وولدك، ولكن الخير؛ أن يكثر علمك ويعظم
حلمك». وقال الأحنف: «من لم يصبر على كلمةٍ سمع كلمات». و
الجاهلُ في الأغلب محتاج لأحمق يستفزه.

(٢٩) تاريخ الطبري (٤٦٥/٢) وابن هشام (٦٤٩/١).



وهناك متلازمة عكسية مطردة بين الغضب وقوة العقل، فعلى قدر صعود مستوى الغضب يكون نزول قوة العقل وصفاء الذهن، حتى يبلغ الغضب بالعقل لمرحلة الجنون أو قريباً منها. وقد قالت العرب: «الغضبُ شعبةٌ من الجنون». وفي الأغلب لا تأت العجلة في العقوبة لصاحبها بخير. وإن من الظلم أن يكون الانتقام أشد من الذنب. وقال بعض الحكماء: «اذكر عند قدرتك وغضبك قدرة الله عليك، وعند حكمك حكم الله فيك».

فلا تجعل سبع الغضب يفترسك، بل قيده بقيد الحلم، حتى إذا صفى ذهنك؛ انبثق لك شهاب الحكمة وأشرقت في قلبك شمس البصيرة. فالغضب غريزة جعلها الله في النفس سلاحاً يدفع عنها العاديات، فإن زاد عن حده؛ ارتد سلاحاً يفتك بصاحبه، كذلك الخوف سلاح فإن زاد؛ فتك، وعلى سبيلهما البقية.

فبالغافل والسماحة والعفو والتناسي وحسن الظن قوام أسباب الوثام بين من دب بينهم داء الأمم. ولو أن كل أخوين

تحاسبا على كل الأخطاء؛ ما بقيت بينهما أخوة، فهلاً تغافلنا!
وأكثرُ البشر يُحسنون تفصيل الملامة ويسئون الظن والغفران،
والعفو الكبير لا تطيقه سوى النفوس الكبيرة.

وَإِخْوَانٌ حَسِبْتَهُمْ دُرُوعًا فَكَانُوا وَلَكِنِ لِلْأَعَادِي
وَحَلَّتْهُمْ سَهَامًا صَائِبَاتٍ فَكَانُوا وَلَكِنِ فِي فَوَادِي

قال شيخ الإسلام: «الناس عند مقابلة الأذى ثلاثة أقسام:
ظالم يأخذ فوق حقه، ومقتصد يأخذ بقدر حقه، ومحسن يعفو
ويترك حقه»^(٣٠). وصدق الفضل بن يحيى حينما قال: «الصبرُ على
أخٍ تعبت عليه، خيرٌ من صديقٍ تستأنفُ مودته». وفي قول تعالى
في وصف أهل الإيمان: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى:
٣٧] دليلٌ على أن الانتقام يقبحُ من الكرام. ورُبَّ عفوٍ أشدَّ من
انتقام. وقال النخعي في قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ

(٣٠) قاعدة في الصبر لابن تيمية (٩٦).



هُمْ يَنْتَصِرُونَ) [الشورى: ٣٩]: «كانوا يكرهون أن يُستذلّوا، فإذا قدروا عفوا»^(٣١).

ودوماً؛ تذكر الأجل، واستعدّ للأسوأ، وتفاءل بالأفضل. واعلم أنّ الذكاء نعمةٌ إذا أوصل صاحبه لمسالك حسن الظن، والعكس صحيح، إذ مسارب العقل لا نهاية لها، فهي ساشعة مدهشة، وهنيئاً لمن هداه الله سبيله.. ويالك من مستودعٍ للعجائب أيها الإنسان.

وتألم الروح حينما يبصر العقل ما لا تطيقه النفس. وحينما يطمع القلب في شيء؛ فراحته تكون بالتمكك الكامل أو اليأس التام، أما قلقه زيادةً ونقصاناً فهو حينما يتردد بين اليأس والرجاء. واليأس من الشيء راحة من عذاب الفكر فيه، وعلى سبيل العزاء لكل فقد: اليأس راحة، والرضا بمرّ القضاء دواء، والحمد لله على كل حالٍ اكتفاء. ولأبي الطيب: هَوْنٌ عَلَيْكَ وَلَا تَوَلَّعْ بِإِشْفَاق. ولابن ميادة:

(٣١) رواه البخاري (باب الانتصار من الظالم) (١٢٩/٣).

فلا صَرْمُهُ يَبْدُو فِي الْيَأْسِ رَاحَةً وَلَا وَدُّهُ يَصْفُو لَنَا فَنَكَارُمُهُ
وعليك ببسط العذر لإخوانك إن زَلَّتْ أقدامهم عن رعاية
حقوقك، فَإِنَّ الْكَرِيمَ مَنْ يُغَلِّبُ الثِّقَةَ بِصَدِيقِهِ عَلَى الشَّكِّ فِي
تَحْقِيقِهِ. واتمس لإخوانك الأعذار، ولَقِّنْهُمْ الْحُجَجَ، فَإِنْ اعْتَذَرُوا
فاعلم أَنَّ الاعتذار شِيمَةُ الْبَكَارِ، وَهُوَ مُوجِبٌ عِنْدَ الْكِرَامِ لِلَاغْتِفَارِ.
والاعتذارُ الصَادِقُ يَنْفَعُ إِنْ صَادَفَ نَفْسًا كَرِيمَةً، وَإِنْ طَالَ
زَمَانُهُ.

اقْبَلْ مَعَاذِيرَ مَنْ يَأْتِيكَ مُعْتَذِرًا إِنْ بَرَّ عِنْدَكَ فِيمَا قَالَ أَوْ فَعَلَ
فَقَدْ أَطَاعَكَ مَنْ يُرْضِيكَ ظَاهِرُهُ وَقَدْ أَجَلَكَ مَنْ يَعِصِيكَ مُسْتَتَرًا
فَالْاِعْتِذَارُ سَمُوٌّ وَنَقَاءٌ وَارْتِقَاءٌ، لَكِنْ لَا تَفْعَلْ مَا يُلْجِئُكَ إِلَيْهِ
ابْتِدَاءً، فَإِنَّ مَنْ كَثُرَ تَكَرُّارُ اِعْتِذَارِهِ؛ تَزَعَزَعَ عِنْدَ النَّاسِ مَقْدَارُهُ.
وَلَا تَخْطِئْ جَهْرًا ثُمَّ تَعْتَذِرُ سِرًّا. لَا تَفْعَلْ.

وإِيَّاكَ وَالنَّرْجَسِيَّةَ. وَمَعْنَاهَا: افْتَتَانُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ. وَمُظَاهَرُهَا:
الْغُرُورُ، وَالْكِبَرُ، وَالتَّفَاخُرُ، وَالْأَنَانِيَّةُ، وَالْاِسْتِغْلَالِيَّةُ، وَعَدَمُ تَقْبُلِ
النَّقْدِ، وَثِقَلُ الْاِعْتِذَارِ. وَإِذَا نَظَرْتَ لِلنَّاسِ فَوَجَّهْ بِصَرَكَ لِيَرَى
أَجْمَلَ مَا فِي نَفْسِهِمْ، كَيْ تَسْعَدَ أَوَّلًا بِمَرَأِهِمْ وَقُرْبِهِمْ، وَيَسْعَدُوا



منك بإيجابتك وتحفيزك، وتذكر أن للقمر وجهًا آخر. واعلم أن الشدائد مصانع الرجال، والفتن كير الأبواب، والمؤمن حقًا هو من يُبقي لحسن الظن في إخوانه موقعًا.

* ومن الوصايا: اعلم أنك تقترب من الله بقدر طاعتك له. وتدبر الكلام المباشر: ﴿وَيَنَادُوا﴾ [الأعراف: ١٩] كذلك: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ [الأعراف: ١٩] فاسم الإشارة مؤذنٌ بالقرب منه سبحانه. وبعدها، أتى الشيطان يوسوس بالقرب منهما ومن الشجرة: ﴿مَا نَهَكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٠]. وبعد أكلهما من الشجرة؛ صارت الشجرة محلًّا للخطيئة؛ فابتعدا عن الله نسبيًّا بقدر معصيتهما. وبعد الخطيئة تغير الحال، ولم يعد القرب كما كان، فبدلاً من الكلام المباشر جاء النداء: ﴿وَنَادَاهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢] وفيه الإيذان بالبعد. كذلك أشار للشجرة - محل الخطيئة - بقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ نَهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ﴾ [الأعراف: ٢٢] ولم يقل: هذه الشجرة. وبالجمل؛ فالقربُ من الله مضطرد

مع طاعته. وتأمل: ﴿كَلاَّ لَا تُطَعُّهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩]. ففي قانون البشر: لا تقترب كثيراً حتى لا تبعد كثيراً، أما مع ربهم فبالعكس، فاقترِبْ بكليتك؛ بروحك، بقلبك، بعلمك.

* ومن الوصايا: أن تنتبه لخدعة نفسية فهي شيطانية، وهي التي أخرجت أبونا من الجنة، فلنحذر عاقبتها. إنها رغبة الممنوع! وزادني كلفاً في الحبِّ أن مُنِعْتُ أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مُنِعَا والمرءُ تَوَاقُّ إِلَى مَا لَمْ يَنْلِ، وقالت العامة: كلٌّ ممنوع مرغوب. وقال ابن مفلح: «وليحذر العاقلُ إطلاقَ البصر، فإنَّ العين ترى غير المقدور عليه على غير ما هو عليه»^(٣٢). ومن مضحكات النفس البشرية أنها بطبيعتها تزهد في المحسوسات فور تحصيلها. ومتى اتَّسعت القدرة؛ نقصت الشهوة، وعلى قدر الحرمان تكون زيادتها. ورحم الله من حذب بوصيته:

يسرّ مقلته ما ضرَّ مهجته لا مرحباً بسرور عاد بالضرر

(٣٢) الفروع وتصحيح الفروع (٨ / ١٨١).



* ومن الوصايا: كُنْ في غبراء الناس، واحرص على نحول الذكر، ولا تفرح بعلو الصَّيت، فالنفس إلى علو العاجلة نزاعة، والسعيدُ هو من لم يُلْقَ باللهُ لثناء الناس وجاهه لديهم. فإن ترخَّحت لك منفعةُ الجلوس للناس ونفعهم فذاك، وإلا فاقنع بالسلامة. وقد ذكر الذهبي عن التابعي الجليل علقمة - وهو من أخص وأفضل أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه - أنه قيل له: هَلَّا جَلَسْتَ فِي الْمَسْجِدِ فُتُسَّأَلَ وَتُقَرَّى، فقال: «لَا أَحِبُّ أَنْ يَطَّأَ النَّاسُ عَقْبِي، ويقولون: هذا علقمة».

وكم من وليٍّ لله ووليَّة، قد جهل الناس صحَّةَ سريره وخفايا أعماله؛ تُرفع أعماله بالغداة والعشي، وتُفتح لدعوته أبواب السماء، وتستبشر بروحه الملائكة المقربون، وكم من مُوقِد فتنة، مسودَّ الوجه، مظلم الروح، غفل عنه الناس؛ ولم يغفل عنه رب الناس. فلتكن يا صاحبي من عامَّة الناس ظاهراً؛ كي تستريح وتسلم، إلا بقدر الضرورة، فواهِجُ الأضواء يذيب الإخلاص ذوبان الشمع بالنار، وَيُنْبِتُ أَغْصَانُ شَجَرَةِ الْغَفْلَةِ فِي الصِّدْرِ، وَيُسْتَتُّ

جمعية القلب على ربه. والإخلاص عزيزٌ جدًّا، لذا قال سفيان:
«لا أعتدّ بما ظهر من عملي».

ولا يعني هذا الانكفاف عن نفع الناس بِحُجَّةِ الخشية من
الرياء والتسميع، بل اسعَ لنفعهم وإسداء الخير لهم ما استطعت
إلى ذلك سبيلًا، نخيرُ الناس أنفعُهم للناس. ومع ذلك فحاول
قدر طاقتك ألا تنتظرَ لِقْدَرِكَ عندهم مدحًا أو ذمًّا، رفعًا أو
خفضًا، بل اعتبرهم - من هذه الحيثية - كأنهم لم يُخلَقُوا. فلا
تنتظر منهم مدحًا، ولا تفرح بثناءٍ إلا ما كان بلا طلب منك
وفي غير وجهك، لا فرحًا بهم؛ بل حسن ظن بالله أن أنطقَ
الشهود لك لا عليك. ولا تركز لذلك؛ فإنك لا تدري في الحقيقة
أهو عاجلٌ بشري أم مكر. فأحسنِ الظن بالله وأسئِ الظنَّ
بنفسك، ومن شدد حساب نفسه؛ زكّاها بإذن الله، والإخلاصُ
إكسيرُ التوفيق بإذن الله.

ومن تجرّدَ للحق؛ بدأ بنفسه. ولما سُئل علي بن المديني عن أبيه
قال: «اسألوا غيري». فقالوا: سألناك. فأطرق، ثم رفع رأسه



وقال: «هذا الدين، أبي ضعيف»^(٣٣). يقصد ضعفه في رواية الحديث، رحمهما الله.

وكم ظلم التجرد للحق كالحسبة والدعوة والنصح والجهاد بلبوسه فوق حظوظ النفس الأمّارة، تارة بحب رئاسة، وأخرى بشفاء غيظ، وثالثة بطمع دنيا.. وهكذا، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]. قال ابن القيم رحمه الله: «فلا إله إلا الله، كم في النفوس من علل، وأغراض، وحظوظ، تمنع الأعمال أن تكون خالصة»^(٣٤). فحذار يا قوم من أكل الدنيا بالدين، فالعلم والإيمان معراجٌ إلى جنات النعيم، وقد خاب من ولد آدم من استعجل بهما لعاعة، ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ﴾ [البقرة: ١٧٤] فملعة الدين تغرف

(٣٣) المجروحين لابن حبان (١٥/٢).

(٣٤) المدارج (٢٩/٢).

لصاحبها الذهب، لكنها مهرُ الجحيم، ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ
وَأَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُشِّرُوا مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].
ومن لوازم طالب العلم تفقد نيته على الدوام، فكل شيء لغير
الله يزول، ولا يبقى إلا ما أريد به وجه الله تعالى. والعلم الخالص
فضيلةٌ عظيمةٌ، قال الإمام أحمد رحمه الله: «العلم لا يعدله شيء
لَمَنْ صَحَّتْ نِيَّتُهُ»^(٣٥).

إذا الحياة لغير الله وجهتها فطوها في صميم الأمر نقصانٌ
فدربها ضيقةٌ يفضي لمهلكةٍ وزادها جلدٌ في شكلٍ عقيانٍ
فعش إذا شئت أو فلتمت كمدًا فالموت والعيش بعد اليوم سيانٌ
واعلم أن طالب العلم مفتقرٌ إلى ثلاث: زكاءٌ وذكاءٌ وشغفٌ.
فبتزكية قلبه من أدران الخطايا ونجاسات الذنوب؛ يحصل غاية
العلم وهي الخشية. وبذكائه الذاتي والمكتسب يجمع العلوم في قلبه
ويرتبها في ذهنه، ويطبخها بهدوء في قدر عقله، حتى تنضج
لتكونَ علمًا صالحًا للاعتقاد والعمل والتعليم. وبالشغف يدفع

(٣٥) الإنصاف (١٦٢/٢).



ملال الطلب، ويتزود به وقوداً للمسير وزاداً للتعلّم والمدارسة، ويستروح به أسعد أوقاته، فللعلم والإيمان حلاوة فريدة ومذاقٌ ليس من أذواق الدنيا، فيستحيلُ وصفها لمن لم يخالط شهدُها بشاشة قلبه وحُشاشة فؤاده، فمن لم يذق العسل؛ لا يعرف طعمه، وكما قيل: «من لم ير جمال يوسف؛ لم يدر ما الذي أبكى يعقوب» عليهم السلام.

ومن نفيس كلام الإمام الرباني ابن القيم رحمه الله في هذا الباب: «لا يجتمعُ الإخلاصُ في القلب ومحبة المدح والثناء والطمع فيما عند الناس؛ إلا كما يجتمع الماء والنار والضرب والحوت. فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص؛ فأقبل على الطمع أولاً؛ فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثناء؛ فازهد فيهما زهد عشاق الدنيا في الآخرة. فإذا استقام لك ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح؛ سهل عليك الإخلاص.

فإن قلت: وما الذي يسهل عليّ ذبح الطمع والزهد في الثناء والمدح؟ قلت: أما ذبح الطمع؛ فيسهله عليك علمك يقيناً أنه ليس

من شيء يُطمع فيه إلا ويبد الله وحده خزائنه، لا يملكها غيره ولا يؤتي العبد منها شيئاً سواه. وأما الزهد في الثناء والمدح؛ فُيسهله عليك علمك أنه ليس أحد ينفع مدحه ويُزين، ويضرّ ذمه ويُشِينُ الا الله وحده، كما قال ذلك الأعرابي للنبي ﷺ: إِنَّ حمدي زينٌ، وذمي شينٌ. فقال: «ذلك الله عز وجل»^(٣٦). فازهد في مدح من لا يزينك مدحه وفي ذم من لا يشينك ذمه، وارغب في مدح من كلّ الزين في مدحه وكلّ الشين في ذمه»^(٣٧).

والعقل حقاً هو من كانت همته رضى الله عنه، وغاية خوفه سخطه، فتأمل حال ذلك الإنسان الذي يُسميه الله تعالى لجبريل ليخبره ببغضه له! فينادي جبريلُ في أهل السماء بذلك، والآخر يسميه ليخبره بحبه له! فقد روى مسلم^(٣٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الله إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا

(٣٦) أحمد (١٥٩٩١) والترمذي (٣٢٦٧) وقال: حسن غريب. وصححه الألباني في صحيح الترمذي (٣ / ١٠٧) (٢٦٠٥).

(٣٧) الفوائد (١٤٩).

(٣٨) مسلم (٢٦٣٧).



دعا جبريل فقال: إِنِّي أَحَبُّ فَلَانًا فَأَحِبَّهُ. قال: فُحِبَّهُ جبريلُ. ثمَّ يُنادي في السَّمَاءِ فيقولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فَلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فُحِبَّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ. قال: ثمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ. وإذا أَبْغَضَ عَبْدًا دعا جبريلَ فيقولُ: إِنِّي أَبْغَضُ فَلَانًا فَأَبْغِضْهُ. قال: فُيَبْغِضُهُ جبريلُ. ثمَّ يُنادي في أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فَلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قال: فُيَبْغِضُونَهُ. ثمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ. فلا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، اللَّهُمَّ اعْفَ عَنَّا وَارْحَمْنَا وَأَحْبِبْنَا، وَاكْفِنَا شَرَّ أَنْفُسِنَا، إِلَهَ الْحَقِّ.

واعلم أَنَّ التَّامَّادِحَ مثلبة، ومدحُ الرجل في وجهه بلا مسوِّغٍ عيب، وطلبُ المدحِ نقصٌ، ويزيدُ قبحاً إن كان من طالبٍ علمٍ مادحاً أو ممدوحاً. وإنما يُشرع المدحُ في الوجه إن كان لمصلحة شرعية. وهو استثناء، وإلا فالأصل المنع، وعند الشيخين من حديث أبي بكر رضي الله عنه أن رجلاً ذكر عند النبي ﷺ فأثنى عليه رجلٌ خيراً، فقال النبي ﷺ: «ويحك! قطعتَ عنقَ صاحبك»^(٣٩). وعن همام بن

(٣٩) البخاري ٢٢/٨ (٦٠٦١)، ومسلم ٢٢٧/٨ (٣٠٠٠) (٦٥).

الحارث عن المقداد رضي الله عنه: أَنَّ رجلاً جعل يمدح عثمان رضي الله عنه، فعمد المقدادُ فجثا على ركبتيه فجعل يحثو في وجهه الحصباء. فقال له عثمان: ما شأنك؟ فقال: إِنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِذَا رَأَيْتُمُ الْمَدَّاحِينَ، فَاحْثُوا فِي وُجُوهِهِمُ التُّرَابَ»^(٤٠). وقال العلامة عبد الكريم الخضير: «كان السلف يهونون عن التمدح، ومن مُدَحٍ بما ليس فيه في وجهه وسكت؛ فقد جرت سنة الله أن سيذمُّ بما ليس فيه، ومن مُدَحٍ في وجهه بما هو فيه؛ ذم في وجهه بما هو فيه». فعليك بسفينة الإخلاص إن رُميت الخلاص، ولن تقدر على ذلك إلا بالصبر واليقين، فمتى فقدت الصبر واليقين؛ كنت كمن أراد السفر في البحر في غير مركب، قال تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠] وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِعَايَتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]^(٤١).

(٤٠) مسلم ٢٢٨/٨ (٣٠٠٢) (٦٩).

(٤١) ينظر: الفوائد (١ / ١٤٩).



وقال ﷺ: «اسألوا الله العفو والعافية، فإن أحداً لم يُعط بعد اليقين خيراً من العافية»^(٤٢). ومواعظ القرآن لا تنفع سوى أهل اليقين بقاء الله تعالى: ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [البقرة: ٢٣٢].

ولم أر في متع الدنيا كالعافية، ولم أر أجد لتلك النعمة من أهلها، حتى إذا تقلص عنهم بعضها، عرفوا شأنها. فالعافية حياة الدين والدنيا، واليقين هو جبل الإيمان الراسخ فيها. ومع اليقين يضمحلُّ الشُّحُّ، ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩] قال الحسن: «من أيقن بالخلف؛ جاد بالعطية». ولما اختصم أصحاب الزهري رحمه الله في حدِّ الزهد قال - وهذا من نفيس مقوله -: «الزاهد هو الذي لا يغلب الحرام

(٤٢) أحمد ١٢٧/٣ (١٢٣١٦) والترمذي (٣٥١٢) وصححه الألباني في

صحيح الترمذي (٢٨١٢)

صبره، ولا الحلال شكره». أما ابن تيمية فحدّ الزهد بقوله: «هو ترك ما لا ينفع في الآخرة».

والنفس رغبةٌ إذا رَغِبَتْها وإذا تُرِدُّ إلى قليل تنقُ
فأكرم نفسك عن كل ضعةٍ ودنيةٍ وإن ساقتك إليها رغائبك
ونهدت إليها أشواقك، فإنّ بذل الدين أو الشرف لأجلها خسارة
العمر، وخُذ من دنياك ما تهَيَّأ وتيسر بسخاوة نفس وقناعة قلب،
ولعلّ تسعة أعشار خازات النفوس ستزول بغياب الطمع، فهنيئاً
مريئاً لأغنياء القلوب. قال ابن الجوزي: «إنّ المفروح به هو
المحزون عليه، غير أن عين الهوى عمياء، طائرُ الطمع يرى الحبة
لا الفخّ». وللإمام الشافعي:

لما عفوت ولم أحقد على أحدٍ أرحتُ نفسي من همّ العداواتِ
والرضا بالمكتوب لا ينفي صنعَ مستقبلٍ أجمل لك وللأجيال
القادمة، فكن متوكّلاً لا متواكلاً، وعازماً لا متوانياً، وقد
أهبطك الله للأرض لتعمرها بالعبادة وتعبرها بالصالحات وتزود
منها بلُغْتَكَ لدارك في الآخرة: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذُلُولًا



فَأَمْسُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ۚ وَإِلَيْهِ اللَّشُّورُ ﴿١٥﴾ [المك: ١٥].
وسرُّ جمالِ الحياةِ البساطةُ، فالحياةُ سهلةٌ وعيشها يسيرٌ إن رأيتها
كذلك، لكنَّها شديدةُ التعقيدِ إن تعاملت معها بتعقيد، والإكسير
موجود لكنه السهل الممتنع: إنه القناعة.

إن كان لا يُغنيك ما يكفيك فكلُّ ما في الأرض لا يُغنيك
والتكلفُ مُنْغَصٍ لطيب القيا، والمثاليةُ قتالٌ للإبداع. وكم من
بيتٍ عامرٍ إلا من أهله، وآخر مُقِلٌّ إلا من أنسٍ سكانه ودفء
أرواحهم وقرب قلوبهم لقلوبهم.

وإنَّ العبرةَ ليست في مظاهر الدنيا وأقنعتها الجميلة، بل في حقائق
القلوب ورغائبها الأصيلة، وبما تنتهي إليه غداً برضا رب العالمين
أو سخطه؛ فعلام الغفلة عن الأمر الكبير. والكثير من المظاهر
الجميلة التي نراها في الناس تخفي تحتها بؤساً لا يطاق، ولكن
الناس يخفون الأسى ويظهرون السعادة، فاحمد الله كثيراً على
العافية.

ولا عارَ إن زالت عن الحرِّ نعمةٌ ولكنَّ عاراً أن يزول التجلُّ

ومن نعيمك غير المنظور: أن الله قد عزّ ماء وجهك فلم يُهرق
للئيم، فما قطع عنق كريم كحاجته عند من لا يكرم وفادة سؤاله.
وعلى سبيل الراحة؛ تجرّع القناعة.

لا تَحَرَّصَنَّ فَالْحَرُصُ لَيْسَ بِزَائِدٍ فِي الرِّزْقِ بَلْ يُشْقِي الْحَرِيصَ وَيُتَعَبُ
وَإِنَّ نَابِتَكَ نَائِبَةٌ فَاذْكُرْ فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكَ ثَلَاثًا؛ إِذْ لَمْ تَكُنْ فِي
دِينِكَ، وَكَانَتْ أَهْوَنُ مِنْ أَخْتِهَا، وَرُزِقْتَ احْتِسَابَهَا عِنْدَ اللَّهِ، كَمَا
قَالَ عُمَرُ^(٤٣). وَإِنَّ مِنْ شُكْرِ النِّعْمَةِ؛ أَنْ تَحْمَدَ اللَّهُ عَلَيْهَا وَإِنْ قَلَّتْ،
مُسْتَشْعِرًا حَرَمَانَ غَيْرِكَ مِنْهَا، فَإِنْ شَكُوتَ زَوْجَكَ؛ فَغَيْرِكَ لَا
زَوْجَ لَهُ، وَإِنْ أَتَعَبَكَ ابْنُكَ؛ فَغَيْرِكَ لَا ابْنَ لَهُ، وَإِنْ شَكُوتَ قَلَّةَ
مَالِكَ وَدَنُوَّ مَرْتَبَةِ عَمَلِكَ؛ فَغَيْرِكَ لَا عَمَلَ لَهُ وَقَدْ كَسَرْتَ ظَهْرَهُ
الْدِّيُونَ، وَإِنْ شَكُوتَ ضَعْفَ نَسَبِكَ؛ فَغَيْرِكَ لَا نَسَبَ لَهُ وَلَا يَعْرِفُ
حَتَّى وَالِدِيهِ، وَإِنْ شَكُوتَ ظُلْمَ أَحَدٍ؛ فَاذْكُرْ مَنْ تَقْصِفُهُمُ
الطَّائِرَاتُ وَالْمُدَافِعُ وَهُمْ بَيْنَ قَتِيلٍ وَسَجِينٍ وَمُشْرَدٍ وَمُفْقُودٍ
وَمُغْتَضَبٍ فِي حَرِيمِهِ وَمُفْتُونٍ فِي دِينِهِ، وَإِنْ شَكُوتَ ضَعْفَ

(٤٣) ورويت عن شريح القاضي.



صحتك؛ فتذكر من هم على الأسرة البيضاء ممن لا يُحرّك أيّ عضو، أو يتجرع الكيماوي لدفع السرطان، أو يغسل كليتيه كل يومين، أو لا ينام لشدة الآلام، بل تذكّر من تحت الأرض قد اخترمتهم المنون، ولقطتهم المنايا، وحيل بينهم وبين العمل للآخرة، وتذكر ستر الله عليك وقد هُتِك سترُ غيرك، وحرّيتك في أرض الله وغيرك قد حُكم عليه بدفنٍ عمره خلف الزنازين أو تحت الأقبية. واحذر ملال النعم، فإلفها مؤذَن بنسيانها والغفلة عن شكرها، وتدبر ربك الأعلى: ﴿لَا يَلْفُ قُرَيْشٌ ۝١﴾ [قریش: ١] فاحمد الله الذي لا يأتي الخير إلا من قبله، له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه نرجع ونؤوب، سبحانه وبحمده.

واعلم أنّ الدنيا إن أقبلتُ فتنّت، وإن أدبرت وعظت، وقد قال خالقها: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ [فاطر: ٥] وقلّبا تأخى اثنان فدخلت بينهما دنيا؛ إلا فرقت بينهما شيئا. وتأمل كيف تمكّن

الرجيم من أبوين بعد أن أسلما قيادهما للحرس: ﴿فَدَلَّهُمَا بِعُرُورٍ﴾
[الأعراف: ٢٢] فكن معتدلاً قنوعاً، لا هلعاً جزوعاً، ولتكن الدنيا
في يدك لا قلبك.

تعالى الله يا سلم بن عمرو أذلَّ الحرصُ أعناق الرجالِ
هَبِ الدنيا تُساق إليك عفواً أليس مصيرُ ذلك للزوالِ
ولما سئل الإمام أحمد: هل يكون مع الرجل مئة ألف دينار
وهو من الزاهدين؟ فقال: «نعم، إذا كانت في يده لا في قلبه».
وإذا أردت أن تعرف هل الدنيا في قلبك أم في لا؛ فانظر حالك
مع المشتبهات وقوعاً أو تورّعاً. وهل بالإمكان اجتماع الطموح
بالقناعة؟ نعم، إن كان الطموح موصولاً بالدار الآخرة. وقد
ذكروا أن النابغة الجعدي أنشد:

بلغنا السماءَ مجدُّنا وجدُّونا وإنَّا لنبغى فوقَ ذلك مَظْهَرًا
فقل: إلى أين المظهر يا أبا ليلى؟ قال: الجنة، إن شاء الله.

* ومن الوصايا: احذر من أن تفرّ من التحزب إلى التحزب،
ومن ذلك التحزب لشيخك ومذهبك بلا تحقيق، بل اعتصم
بالوحي الذي لا يضل من به استمسك، فالحقُّ معه حيث دار.



ولا تكن ممن يتتبعون الثغرات، ويفرحون بالسقطات،
 ويفجرون عند الحصومات، ويفرون من التحزب المذموم وفيه
 وقعوا ومنه كرعوا، ويزعمون أنهم على منهج السلف، شتان!

ومن المهمات أن تتحفظ في اختيار أشيائك، فاقصر على من
 جمعوا العلم والورع، فعلمك دينك، قال ابن سيرين رحمه الله: «إنَّ
 هذا العلمَ دينٌ، فانظروا عمن تأخذون دينكم»^(٤٤). وقال الإمام
 الأوزاعي: «خُذْ دينك عمن تُثقُّ به وترضى عنه»^(٤٥).

* ومنها: التأكيدُ على ضرورة الاجتماع، وسدّ كل ذرائع
 النزاع والافتراق المذموم بالقول والعمل. وأولُ الاجتماع هو
 اجتماع القلوب على المحبة في الله والأخوة في دينه. ومن وصاياهِ
 ﷺ: «وكونوا عبادَ الله إخواناً»^(٤٦). ويكفيك إيجابُ الله تعالى
 على نفسه الكريمة المقدسة بأن يُحبَّ من أحبَّ فيه، فيالها من

(٤٤) العلل للحافظ ابن رجب (٣٥٥/١).

(٤٥) الجرح والتعديل (٢/٢٩).

(٤٦) مسلم ١٠/٨ (٢٥٦٤) (٣٢).

كرامة ومنّة، قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ، والمتزاورين فيّ، والمتبازلين فيّ»^(٤٧). والأحاديث في فضل ذلك مستفيضة مشهورة.

* ومنها: الالتفاف حول العلماء الراسخين، والصدور عن أقوالهم، وعدم مزاحمتهم بمتعليمة الأصاغر. وكلّما اتسع علم المرء؛ زاد احتمال له لخلاف الناس، وكلّما استوعب أدلة المخالفين؛ ازداد يقيناً بأنّ الحق غير محصور بإنسان خلا المرسلين. واعتبر ذلك بأنّ الراسخين هم من أقلّ منتسبة العلم خوفاً في الخلاف السائغ، أمّا المولع بالتشعيب والتشغيب والجدل والمراء فإنه قد أتى من باب قلة علمه، ونقص حكمته، وضعف نفسه، وضيق خلقه، ووفور طيشه، وبعد توفيقه. واعلم أنّ غالب من يخوض في هذه الأمور هم من مبتدئة أو متوسطة العلم، ولو سكت من لا يعلم لقلّ الجهل والجهالة.

(٤٧) مالك في الموطأ (٢٧٤٤) وصححه النووي.



وتأمل ما نقله الشوكاني في إرشاد الفحول^(٤٨) عن الإمام أحمد أنه قال لبعض أصحابه: «لا تحمل الناس على مذهبك فيُحرَّجُوا، دعهم يترخَّصوا بمذاهب الناس». وهذا في الخلاف السائغ لا الشاذ، والقاعدة: خذ لنفسك طاقتها في العزائم، وترخَّص لها إن ترخَّح لديك فضلُ رخصةٍ معيّنة، ولكن لا تلزم الناس بعزيمة ما دام لهم رخصة، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ تُؤْتَى رُخْصُهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ تُؤْتَى مَعْصِيَتُهُ»^(٤٩). وفي رواية: «كَأَيُّ حُبٍّ أَنْ تُؤْتَى عَزَائِمُهُ»^(٥٠).

وإنه لحسنٌ جداً أن يُولي الشاب جودةَ سنده العلمي عنايته اللائقة، فينتقي من أهل العلم في زمانه أمثلهم علماً وورعاً قدر

(٤٨) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول (٢ / ٢٥٢) واقتصر ابن مفلح في الفروع وتصحيح الفروع (٣ / ١٥٢) على نقل قول الإمام أحمد: «لا تحمل الناس على مذهبك».

(٤٩) رواه أحمد (١٠٨/٢)، وابن خزيمة وصححه (٩٥٠) وابن حبان (٢٧٤٢) وصححه الألباني في صحيح الجامع (١٨٨٦).

(٥٠) رواه ابن حبان (٣٥٤) وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٠٦٠).

طاقته. وحسنُ منه وله أن يستمع لأكثر من شيخ، ويثني ركبته عند أكثر من عالم، ليصقل عقله بتعدد مواهبهم، وليرى خطأ أحدهم على ضوء تأمل تقرير آخر. بلا حطّ قدرٍ، ولا تتبع زلة، لكنها سنة التعليم، ومنهاج التلقين - . قال المأمون: «لا شيء أطيب من النظر في عقول الرجال».

* ومنها: لا تنظر لعمل الفقيه ولكن سله يصدقك، فقد ترى ما تستنكره من أحدٍ من تحسن به الظن من طلبة العلم أو الدعاة ونحوهم، لذا نقول: توقّف وثبّت قبل ان تقتدي به في هذا الأمر حتى تسأله، وتخرج منه بصورة واضحة لا لبس فيها، وسواء كان هذا الأمر من قبيل الشدة في الدين أحياناً، أو التساهل فيه أحياناً، فأنت في كلا الحالين مُغَيَّب عن حقيقة الأمر.

فإن كان الأمر الذي شنأته عليه يُزري به لخلل في المروءة، أو تساهل في أمرٍ من الشريعة، أو انزلاقٍ في خطيئة، أو وهنٍ في أداء فريضة أو نحو ذلك فنقول:

تأَنَّ ولا تعجلْ بلومك صاحباً لعلَّ له عذرٌ وأنت تلومُ!



وبكل الأحوال لا تقتد به في هذا الباب، فالعالم لا يتابع على خطئه بل يعتذر عنه، وقد يكون خطؤه من قبيل الاجتهاد الخطأ، وقد كتب ابن تيمية رحمه الله تعالى رسالة لطيفة في ذلك وهي «رفع الملام عن الأئمة الأعلام»، ومن هنا نقول: لعل لذلك الشيخ الفاضل الذي لحظت عليه أمراً لم ترتضه عذراً ما، فلعله مريض بمرض خفي، أو علة في بدنه، أو ظرف خاص لا يستطيع البوح به، أو أنه قد أخذ برخصة ما بمحدودها التي لا تنطبق عليك، إلى غير ذلك من المعاذير السائغة، المهم: أن عليك تجاه هذا الأمر شيئان:

الأول: لا تقتد به في هذا الأمر حتى تسأله وتستفسر منه عن حقيقة ذلك الأمر المستنكر حتى ينكشف لك وجهه.

والثاني: أن تحسن به الظن ما استطعت لذلك سبيلاً: وقد قالوا كما بينا في الاستهلال: «لا تنظر لعمل الفقيه، ولكن سلّه يصدقك»، فهو لن يكذب على الله، فربما أخبرك بأن فعله الذي استنكرته هو محض السنة، وأبرز لك وجهه ترجيحه، ولهذا شواهد

وسوابق، وإِما أَخْبَرَكَ بِخُصُوصِيَّةِ حَالِهِ الَّتِي تَأَوَّلَ لَهَا مَا فَعَلَ
بِخُصُوصِهَا وَخُصُوصِهِ، وَإِما أَخْبَرَكَ أَنَّهَا مِنَ الذُّنُوبِ الَّتِي يَسْتَغْفِرُ
اللَّهُ تَعَالَى مِنْهَا، وَأَنَّ هَذَا الْأَمْرَ ذَنْبٌ يَعُدُّهُ مِنْ ذُنُوبِهِ الَّتِي لَا يُبْرِئُهَا
لِلنَّاسِ، وَتَكُونُ أَنْتَ بِذَلِكَ قَدْ نَصَحْتَهُ بِرَفْقٍ وَأَدَبٍ وَبِرٍ وَإِصْلَاحٍ،
وَأَرْضَيْتَ اللَّهَ تَعَالَى قَبْلَ غَيْرِهِ. وَقَدْ حُفِظَتْ جَمَلَةٌ مِنْ اعْتِذَارَاتِ
بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالِدَعْوَةِ عَنْ أُمُورٍ رَكِبُوهَا لضعفهم، وَهُمْ
يَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ مِنْهَا.

لِذَلِكَ، فَإِنْ كَانَ قَدْ بَدَأَ مِنْهُ أَمْرٌ تَرَى أَنَّهُ زَائِدٌ عَنِ السَّنَةِ
مِثْلًا؛ فَلَعَلَّ لَهُ دَلِيلًا لَا تَعْلَمُهُ، وَلَعَلَّ لَهُ اجْتِهَادٌ خَاصٌّ بِهِ وَلَا يَفْتِي
بِهِ، كَمَا فِي زِيَادَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْإِسْبَاغِ فِي الْوُضُوءِ،
وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ فِي مَسْأَلَةٍ تَحْتَمِلُ السَّعَةَ: «لَا
تَحْمِلِ النَّاسَ عَلَى مَذْهَبِكَ فَيُحَرِّجُوا، دَعِهِمْ يَتَرَخَّصُوا بِمَذَاهِبِ
النَّاسِ»^(٥١). أَيُّ بَدِيلٍ مُعْتَبَرٍ، وَاتَّبَاعٍ لِإِمَامٍ مُتَّبِعٍ.

(٥١) انظر: الواضح في أصول الفقه، لأبي الوفاء ابن عقيل ٣٨٤/٥، والأحكام
السلطانية لأبي يعلى الفراء ٢٨٨/١، والفروع وتصحيح الفروع لابن مفلح ١٥٢/٣،



والمقصود؛ أن بعض الأَخيارِ يكونُ مزاجُهُ ملائِمٌ للأخذِ
 بالعزائمِ وهو محمودٌ على ذلك، ولكنه يُخْطِئُ حينما يَحْمِلُ الناسَ
 مِنْ أَهْلِ وَغَيْرِهِمْ عَلَى شِدَّتِهِ، وَيَمْنَعُهُمْ عَنِ الْأَخْذِ بِرَخْصَةٍ لَهُمْ فِيهَا
 مِنْ رَبِّهِمْ مَدْوُوحَةٌ، وَبِالطَّبَعِ؛ فَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهَذَا تَزْيِينُ تَتَبِعِ
 الرِّخْصَ، أَوْ تَرْقِيقَ الدِّينِ، أَوْ الْبَحْثَ عَنِ الْمَسْوَغَاتِ، وَفَتْحِ
 الذَّرَائِعِ لِأَجْلِ رُكُوبِ الشَّهْوَةِ وَالْهَوَى، كَلَّا؛ فَهَذَا لَيْسَ الْمَقْصُودُ،
 إِنَّمَا الْمَقْصُودُ أَلَّا تَحْمِلَهُمْ عَلَى مَا يُوَافِقُ مَزَاجَكَ الشَّخْصِيَّ، وَبِالْجُمْلَةِ؛
 أَحْمِلَهُمْ عَلَى هَذَا لَا هَوَاكَ، حَتَّى وَإِنْ تَلَفَعَ بَثُوبٌ عَزِيمَةٌ، فَالْعِبْرَةُ
 بِالْدَّلِيلِ، فَإِنْ كَانَتِ الشَّرِيعَةُ قَدْ بَسَطَتْ لَهُمْ رَخْصَةً وَأَنْتَ تَرَى
 أَنَّهُ لَا ضَرَرَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْأَخْذِ بِهَا؛ فَإِنَّهُ قَدْ يَحْسُنُ مِنْكَ حِينَهَا أَنْ
 تَفْتَحَ لَهُمُ الْأَخْذَ بِهَا، وَالْأَمْرُ عَائِدٌ فِي الْجُمْلَةِ إِلَى الْمَصَالِحِ وَالْمَفَاسِدِ،
 وَكُلِّ حَالَةٍ تُقَدَّرُ بِقَدَرِهَا، «وَكُلُّكُمْ رَاغٍ، وَكُلُّكُمْ مُسْئُولٌ عَنِ
 رِعْيَتِهِ»^(٥٢).

وشرح منتهى الإرادات، لابن النجار، ٤٧٣/٢، والبحر المحيط (٦/ ٣١٩)، وإرشاد

الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، للشوكاني ٢٥٢/٢

(٥٢) رواه أحمد (٥١٦٧) واللفظ له، والبخاري بنحوه (٥١٨٨).

* ومهمُّ لطالب العلم: أن يقتبس سَمَتَ شيخه المُعَزِّزِ للتواضع والرحمة والرفق والأناة ونحوها في نفسه، فصُحْبَةُ الشيخ حَسَنَةٌ بذاتها، والطلُّبُ في حلقة الشيخ خيرٌ من وراء وراء؛ كالكتب والصوتيات ونحوها، فهي - مع نفعها المؤكد - إلا أنها تُفَوِّتُ ثلاث فوائد: التَطَبُّعُ بِسَمَتِ الشيخ وكريم سجاياه، ومداواة الشيخ لآفات نفس الطالب، ودعائه لتلميذه. والعلمُ رَحِمٌ بين أهله. ولكن هي بلا شك خيرٌ من عدمها، كما أنَّها قد حازت لبَّ المطلوب وهو المادة العلمية، حتى وإن كان كاتبها قد رحل منذ مئات السنين. فالحمد لله كثيراً على تسهيل التعلُّم، فلم يبق في زماننا لطالب علم حجة في عدم مادة التحصيل.

والمقصود أن التلمذ على شيخ بحضور دروسه وصحبته والأخذ من سمته مفيدٌ جداً، ولكن ثمَّ أمرٌ مخيب، وهو أن تتحوَّل الوسيلةُ لغاية، وينقلب الطريق هدفاً، وذلك حين يغلو التلميذ في تقمُّص شخص شيخه فيما لا يَحْسُنُ به، كلكنةٍ أو لثغةٍ أو حركةٍ أو نظرةٍ غير مستحبة، ونحو ذلك. ومن عقابيل ذلك أن يستغرق الاقتداء



بسمت الشيخ خارج المقبول، فتضيّقُ نفسه عند أدنى نقدٍ لشيخه
ولو بحق وحقّة، مع تسليمه - نظرياً - بسلامة ذلك المبدأ. وقديماً
قيل: لا تنظر لعمل الفقيه، ولكن سلّه يصدقك.

* ومن الفروع المحزنة لذلك - وبخاصة عند بعض مبتدئهم -
الإكثار من الكمّ المشيخي على حساب الكيف التحصيلي. بيانه
بمثاله: من يكثر الحضور لمشايخ متفرّقين تكثرًا وتزيّدًا على حساب
العمق العلمي والجودة التحصيلية. ولك أن تستمع إلى بعض
الشبيبة حين يتكلمون عن تقدير الطالب بكثرة أعداد من حضر
لديهم - ولو مرة أو مرتان - ثم يتباهى بين لداته وأقرانه حتى
أصبح المشهد أشبه بدروشة. وفرّ من الموت وفي الموت وقع.

* ومن الوصايا: عند كلامك على الأقران - مهما كان حالهم
وعلمهم ومقامهم - حاذر أن تلامس المقارنة بينهم، لأنّ هذا من
شأنه أن يثير الحسد الكامن في قلوبهم. قال ابن تيمية: «الحسد
مرض غالب، لا يخلص منه إلا القليل من الناس». ولقد صدق
أبو الأسود الدؤلي إذ قال: «إذا أردت أن تعظم فُت». فالميّت

تكبر محاسنه، وتُنسى معاييه، وتَدْفَنُ الرحمةُ به الحسدَ عليه.
وبالتغافل عن الحُساد يستريح الفؤاد.

* ومن الوصايا: استشهد بآيات القرآن الكريم في غالب
أحاديثك ومحاوراتك حتى العادية منها، حتى يكون هدى القرآن
بين عينيك مرشداً لبصيرتك في عمايات الضلالات ومليناً لقلبك
في زمن قسوة القلوب، ومنبهاً لعقلك في زحام الشبهات، فللقُرآن
سلطان على القلوب عجيب، والموفق من كان قرآنًا يتلى ويمشي
على قدمين، ولا يخلو ثغره الطاهر من آيات تتلى آناء الليل
وأطراف النهار.

* ومن الوصايا: احرص على الاستفادة من طلبة العلم في
بلدك، فهم في الأغلب أكثر فراغاً وأقل انشغالاً ممن تُضربُ إليهم
الآباط، ومتى ما وجدتَ من أحدهم قبولاً فاستمسك به - إن
كان على السُّنة - ولا يزهّدنك فيه ضعف صيتٍ أو قلة طلاب،
فلعلّ هذا أدعى لنفعك وأقرب للأخذ بيدك، فالظنّ أنه سيلتفت
لك بباله ويخصّصك بمزيد نصح، ولن يلهيه عنك مزاحم، وكذلك



لا تنس طلبه العلم من أسرتك، فأزهدُ الناس في شيخ أهله،
 وربّ ساكنٍ بجوار الكعبة لم يعرف قدرها. والمقصود: لا تفرط
 في الممكن الذي بين يديك، بل اجعله من أولياتك في ارتقائك
 درج العلم.

* ومن الوصايا: تمعن في رسالة قليلة الكلام مليئة المعاني لعلها
 تروي ضمناً في صدرك العجول، وكُنّا كذلك: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ
 مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧] وتشفي غلة في جوانح نفسك السؤول،
 إنها رسالة (رفع الملام عن الأئمة الأعلام) سطرها يراع شيخ
 الإسلام رحمه الله، وهي مشهورة متداولة. كذلك تعرّف إلى
 نماذج تطبيقية من أدب العلماء السالفين والمعاصرين في الردود؛
 كالشافعي وابن تيمية وابن القيم والذهبي وابن إبراهيم وابن باز
 والعثيمين وغيرهم، لترى الفجوة الكبيرة بين حالهم وحال كثير
 من متدثرة العلم بلا أدب. والله المستعان.

* وإنّ من المؤسف؛ إشغالُ الشباب الصغار عن طلب العلم
 وحفظ القرآن والسنة والتفقه فيهما وتركية نفوسهم إلى الانجباب

على الردود والقييل والقال ولجج الخصومات ونشر القالة بين الناس. لقد كان الطريق أمامهم نوراً ورحمة، ولكن كانوا قوماً عمين، فوا أسفًا!

فلا تفرح بالخصومة، فالحق يضيع حينها لحظوظ النفوس. والممارة حرب كل طرفياً خاسر، ولقد قال محارب مجرب قديم: «إن أفضل طريق لكسب الحرب؛ هو تفاديها». وسأل الإمام أحمد رجل فقال: أكون في المجلس، فتذكر في السنة لا يعرفها غيري، أفأتكلم بها؟ فقال: «أخبر بالسنة، ولا تُخاصم عليها»، فعاد عليه بالقول؛ فقال: «ما أراك إلا رجلاً مُخاصماً»^(٥٣). وبنحو ذلك عن الإمام مالك رحمهما الله.

* ومن الوصايا لطالب العلم: احرص على جودة علمك وإتقان فنك ورسوخ قدمك في فقهه وحفظه، فاضبط المسائل بحسن تصوّرها أولاً، حتى تكون حدود المسائل الخارجة عنها المشابهة لها واضحة مميزة لحدودها الداخلة فيها، دفعاً للالتباس والتخبط،

(٥٣) الآداب الشرعية لابن مفلح (١ / ٣٥٨).



كما أنّ ضبط ألفاظ العلم مهم لطالب العلم، فكثيرٌ من الحروف المبتوثة لدى الناس لا تخلو من لبسٍ واشتباه، فإذا ضُبِطَتْ فقيّد واحفظ.

وبعد إحسانك تصوّرها؛ عليك بمعرفة أدلتها من القرآن والسنة وفتاوى الصحابة متناً وإسناداً، وما يتبع ذلك أحياناً من الأقيسة الشرعية المنضبطة، ثم معرفة الخلاف وطرائق الترجيح. فجودة العلم إنما تظهرُ لصاحبها بعد إخلاص النية في تناوله، وطول الارتياض في طلبه، وترتيب التأصيل في تحصيله، وحسن المسلك في أخذه، والصبر عند تلقّيه. ومن لا يتألم لا يتعلم.. وهل تزهو الأرض إلا إن بكى المطرُ.

* ومن الوصايا: ازهد في الرئاسة زهدك في الميته، فخب الرئاسة من فروع حب الدنيا، وهو آخرُ ما يسقط من رؤوس الصديقين، فترى الرجلَ من أزهد الناس في المال والمتاع، حتى إذا هززه منصبٌ أو رئاسةٌ تهالك على تحصيله تهالك الغريق بالخشبة، ونسيَ ما كان يُوعظُ به.. وسبيلُ الموت غايةُ كلِّ حيٍّ.

وَلِحُبِّ الرَّئَاسَةِ عِلَامَاتٌ، قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: «وَطَالِبُ الرَّئَاسَةِ - وَلَوْ بِالْبَاطِلِ - تَرْضِيهِ الْكَلِمَةُ الَّتِي فِيهَا تَعْظِيمُهُ وَإِنْ كَانَتْ بَاطِلًا، وَتُغْضِبُهُ الْكَلِمَةُ الَّتِي فِيهَا ذَمُّهُ وَإِنْ كَانَتْ حَقًّا. وَالْمُؤْمِنُ تَرْضِيهِ كَلِمَةُ الْحَقِّ لَهُ وَعَلَيْهِ، وَتُغْضِبُهُ كَلِمَةُ الْبَاطِلِ لَهُ وَعَلَيْهِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّ الْحَقَّ وَالصَّدَقَ وَالْعَدْلَ، وَيُبْغِضُ الْكَذِبَ وَالظُّلْمَ»^(٥٤). وَشَتَانُ بَيْنَ مَنْ وَصَفَهُمْ رَبُّهُمْ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ [الذَّارِيَاتُ: ٦] وَبَيْنَ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ [الْوَاقِعَةُ: ٤٥] وَالْقُبُورُ مَلِئَةٌ بِهَؤُلَاءِ وَأَوَّلُكَ، وَنَحْنُ سِرَاعًا عَلَى الْأَثَرِ.. وَلِكُلِّ جِيلٍ فِتْنَةٌ.

وَلَا تَفْرَحْ بِالشَّهْرَةِ، فَالْأَضْوَاءُ مُحْرِقَةٌ، وَقَدْ كَانَ السَّلَفُ يَغْبُطُونَ الْمُجْتَهِدَ الْخَفِيَّ. وَإِنَّ الزَّهْدَ فِي الدُّنْيَا لَيْسَ مُحْصُورًا فِي الْمَالِ فَقَطْ، إِنَّهُ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ وَأَشَدُّ، وَأَهْوَنُ الزَّهْدِ هُوَ الزَّهْدُ فِي الْمَالِ، وَلِكُلِّ نَفْسٍ رُكْنٌ تَضَعُفُ حَيَالُهُ، وَبَابٌ يُوَلِّجُ عَلَى حُرْمَتِهَا مِنْهُ. وَإِبْلِيسُ يَشُمُّ الْقَلْبَ وَيُدْرِكُ بَابَ ضَعْفِهِ الَّذِي يَلْجُ مِنْهُ، فَاحْذَرِهِ. ﴿إِنَّ

(٥٤) مجموع الفتاوى (١٠ / ٦٠٠).



الشَّيْطَانُ لَكُمْ عَدُوٌّ فَأَتَّخِذُوهُ عَدُوًّا) [فاطر: ٦] وكتبَ سفيان الثوري لأخ له: «واحذرْ حُبَّ المنزلة؛ فإنَّ الزَّهَادَةَ فيها أشدُّ من الزَّهَادَةِ في الدنيا»^(٥٥). فازهد في الثناء، وازهد في الرئاسة، وازهد كذلك في المال، وفي كلِّ ما لا ينفعُ في الآخرة.

ومرَّ رجلٌ بعامر بن عبد القيس وهو يَأْكُلُ ملحاً وبقلاً، فقال له: يا عبد الله، أَرْضِيتَ من الدنيا بهذا؟ فقال: «ألا أدُلُّكَ على من رَضِيَ بِشَرٍّ من هذا؟» قال: بلى، قال: «من رَضِيَ بالدنيا عوضاً عن الآخرة». وكان محمد بن واسع رحمه الله يُخْرِجُ خبزاً يابساً فيبُلُّه بالماء ويَأْكُلُهُ بالملح ويقول: «من رَضِيَ من الدنيا بهذا؛ لم يحتج إلى أحد». وكان أبو ذر رضي الله عنه يوماً جالساً في الناس فأنته امرأته فقالت له: أَتَجْلِسُ بين هؤلاء، والله ما في البيت هَفَّةٌ ولا سَفَّةٌ، فقال: «يا هذه، إنَّ بين أيدينا عَقَبَةٌ كَثُوداً لا يَنْجُو منها إلا الخُفَّونَ»، فرجعت وهي راضية رحمهما الله. قال شيخ الإسلام: «إخراجُ فضولِ المال والاعتصار على الكفاية أفضلُ

وَأَسْلَمُ وَأَفْرَغُ لِلْقَلْبِ وَأَجْمَعُ لِلْهَمِّ وَأَنْفَعُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»^(٥٦).
 ولقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمًّا؛ فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ
 أَمْرَهُ، وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ،
 وَمَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ نَيْتًا؛ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ، وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ،
 وَأَنْتَهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ»^(٥٧).

قُمْ فِي الدَّجَى وَاتْلُ الْكَأَبَ وَلَا تَمُ إِلَّا كَنُومَةً حَائِرٍ وَلُحَانٍ
 فَلَرَبَّمَا تَأْتِي الْمَنِيَّةُ بَغْتَةً فَتُسَاقُ مِنْ فُرْشٍ إِلَى الْأَكْفَانِ
 يَا حَبْدًا عَيْنَانِ فِي غَسَقِ الدَّجَى مِنْ خَشْيَةِ الرَّحْمَنِ بَاكِتَانِ
 أَعْرِضْ عَنِ الدُّنْيَا الدَّنِيئَةِ زَاهِدًا فَالزُّهْدُ عِنْدَ أَوَّلِي النَّهْيِ زُهْدَانِ
 زُهْدٌ عَنِ الدُّنْيَا وَزُهْدٌ فِي الثَّنَاءِ طُوبَى لِمَنْ أَمْسَى لَهُ الزُّهْدَانِ

* ومن الوصايا: دع ما لا يعنيك. فمن انشغل بعيوب نفسه
 وتحصيل مصالحها؛ اشتغل عن عيب غيره وتبع أموره. قال
 طاووس بن كيسان رحمه الله: «نَعَمْ صَوْمَعَةُ الرَّجُلِ بَيْتُهُ؛ يَكْفِ
 فِيهَا سَمْعُهُ وَبَصَرُهُ».

(٥٦) الفتاوى (١١ / ١٠٨).

(٥٧) ابن ماجه (٢ / ٥٢٤ - ٥٢٥) وصححه الألباني في السلسلة (٢ / ٦٧١).



إنَّ عمر الإنسان للدنيا كعمرٍ شهابٍ عابرٍ بالنسبة لعمره، وبعدَ
فوات الأوان ستدرك أنَّك قد أهدرت بلا طائلٍ أثمنَ ما لديك:
وقتكَ. وتذكَّر أنَّ صلاحيةَ جسدك قرابةَ الستين سنةً أو السبعين،
وهو معرَّضٌ للتلف قبلها، ومُعتركُ المنايا من الستين إلى السبعين،
فن تجاوز السبعين فهو من القليل.. ولو علمتِ الوردَةُ قصرَ عمرها
ما تبسَّمتْ.

فهنَّ المنايا أيَّ وادٍ سلكتهُ عليها طريقي أو عليَّ طريقها
وفي العشرين بدايات نضج العقل حتى الأربعين مع طروء
عوارض طيش. ومن الأربعين حتى الستين استحكام العقل
والجسد، وغالبُ منجزات البشر قد نحتوها في خريطة الزمان
وهم في هذه المرحلة التي تُعدُّ رأس الهرم الإنساني. وتحقيقُ بما
بعد الستين أن يُسمَّى العمر الجميل، إذ اجتمع فيه الهدوء والسكينة
والراحة والحكمة والزهد لمن سلم من آفات الروح. وإن كان
هناك أمورٌ تُعكِّرُ صفاء الروح وهدوء النفس في تلك المرحلة

النفيسة من العمر، ولكن يمكن تلافيها بالرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا.. كفى الشيب والإسلام للهراء ناهيا.

دَعْ عَنْكَ مَا قَدْ فَاتَ فِي زَمَنِ الصَّبَا وَاذْكُرْ ذُنُوبَكَ وَابْكُهَا يَا مَذْنُبُ
وَاخْشَ مَنَاقِشَةَ الْحِسَابِ فَإِنَّهُ لَا يَدَّ يُحْصَى مَا جَنَيْتَ وَيُكْتَبُ
لَمْ يَنْسَهُ الْمَلِكُ حِينَ نَسِيَّتَهُ بَلْ أَثْبَتَاهُ وَأَنْتَ لَاهٍ تَلْعَبُ
وَالرُّوحُ فِيكَ وَدِيعَةٌ أَوْدَعْتَهَا سَتُرَدُّهَا بِالرَّغْمِ مِنْكَ وَتُسَلَبُ

فيا صاحب العشرين والثلاثين: اعلم أنّ أكثر أهل القبور من الشباب. ويا من طرقت الأربعين والخمسين: هلا تنبّهت إلى أنّك في ثلث عمرك الأخير إن سرت كما رحل الأكثرون، ويسار بك وإن لم تسر، وتأمل طلائع مشييك فهي رسل نضوج ثمرة العمر التي اقترب قطفها.

ويا أيها الكهل الستيني: أعذر الله إليك أن بلغك الستين فما عذرك إليه! فيا محطة الرحيل الأخير: أغلقي باب الإقلاع؛ فقد حان السفر للآخرة، وقد أنجد من رأى حَضَنًا، ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ﴾ [العلق: ٨]. قال ابن الجوزي: «أعجب خلّاتقِ الخلائق: محسنٌ في ليل شبابه، فلما لاح الفجر؛ فجر».



أُخِضْتُ خَلَاءً وَأُضْحِي أَهْلُهَا احْتَمَلُوا أَخْنَى عَلَيْهَا الَّذِي أَخْنَى عَلَى لُبِّدٍ
وَكُلِّ ذَنْبٍ - مَهْمَا تَعَلَّقْتَ نَفْسُكَ بِهِ - سَيَأْتِيكَ يَوْمٌ وَتَرْحَلُ عَنْهُ
لِلْأَبَدِ، إِنْ لَمْ يَكُنْ بِتَوْبَتِكَ وَاخْتِيَارِكَ؛ فَبِعِجْزِكَ أَوْ وَفَاتِكَ، فَاتْرَكْهُ
الْآنَ قَبْلَ أَنْ يَتْرَكَكَ غَدًا أَمَامَ الدِّيَّانِ. وَعِنْدَ دُنُو الرِّحِيلِ؛ تُشْرِقُ
حَقَائِقُ الضَّمَائِرِ، فَالزَّمْخَشَرِي الَّذِي قَعَّدَ لِنَفْسِي الصِّفَاتِ الْإِخْتِيَارِيَّةِ
عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، لَمَّا دُنْتُ وَفَاتِهِ؛ لَمْ يَرْحَلْ إِلَّا وَقَدْ طَبَعَ الْكَأْغَدُ بِمَاتِعِ
إِبْتِهَالِهِ: يَا مَنْ يَرَى مَدَّ الْبَعُوضِ جَنَاحَهَا.

وَتَفَكَّرَ طَوِيلًا فِي آيَةِ طَه فِيهِ كَافِيَةٌ فِي تَعْرِيةِ جَسَدِ الدُّنْيَا
وَكَشْفِ حَقِيقَةِ زِينَتِهَا: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا
مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه:
١٣١]. وَمَا بَكَتِ الْعَرَبُ عَلَى شَيْءٍ كَمَا بَكَتِ عَلَى الشَّبَابِ، وَقَدْ
بَكَاهُ الْفَضْلَاءُ وَالْعُقَلَاءُ وَالْعُلَمَاءُ وَالْعُبَادُ.

شَيْئَانِ لَوْ بَكَتِ الدُّمُوعُ عَلَيْهِمَا عَيْنَايَ حَتَّى يُؤْذِنَا بِذَهَابِ
لَمْ يَبْلُغَا الْمِعْشَارَ مِنْ حَقِيقَتِهِمَا فَقَدْ الشَّبَابِ وَفُرْقَةُ الْأَحْبَابِ

فلماذا هذه اللوعة على مرحلة عمرية مضت؟ الجواب: أن الصالحين يكونونها لأنها النشاط والقوة لصالح الأعمال، فالشاب يتهجد ما شاء من الليل، فيتخذ الليل جملاً يحمله لعلين، ولا يشتكي حكة جلده وضعف نفسه ووهن عظامه، ويحفظ ما شاء من القرآن والأذكار والعلم فلا تخونه ذاكرته بضعفه وتشويشه ونسيانه، ويصوم ما شاء ولا يشتكي ضعفه وظمأه وهزاله، ويضرب وجوه الكافرين بيده لا يشتكي عجزه وارتخاءه وزمانته، ويقرأ ما شاء من كتاب الله بقوة بصرٍ وصفاء ذهن واستظهارٍ للتدبر والتفكير، وغير ذلك من العبادات التي يساعد على التلذذ بها وقودُ الشبيبة. فتلذذ بطاعات مولاك قبل ذبول الجسد وانحناء الظهر وصياح نقي العظام من أمراض الشيخوخة.

وُنُحْتُ عَلَى الشَّبَابِ بِدَمْعِ عَيْنِي فَمَا نَفَعَ الْبُكَاءُ وَلَا النَّحِيبُ
فَيَا لَيْتَ الشَّبَابَ يَعُودُ يَوْمًا فَأُخْبِرُهُ بِمَا فَعَلَ الْمَشِيبُ

أما من بكى عليه لضياح شهواته؛ فقد خاب وخسر، بل الأولى أن يفرح بها من هذه الحيثية؛ كي لا تشوش عليه مسيره الذي اقتربت نهايته. وقد سئل شيخ كبير حكيم عن حاله مع كبره



فقال بفرح: «الحمد لله، ذهب الشبابُ وشرُّه، وأقبل المشيب وخيرُه، إن قتُّتُ؛ قلتُ: باسمِ الله، وإن قعدتُ؛ قلتُ: الحمد لله، فأنا أحبُّ هذا الخير».

ولو عقلنا قيمة وقتنا ما أضعناه، إن مجموع دقائق اليوم والليلة (١٤٤٠) دقيقة، فكم للآخرة منها؟ كم لكتاب الله منها؟ كم لما ينفعك غداً منها؟ أم نسيت أنك مجموعة أيام؟ وأن كل ثانية تهدم من عمرك ثانية. قال القليل الشاب: طرفةُ بن العبد:

أرى العيشَ كنزاً ناقصاً كلَّ ليلةٍ وما تُنقِصُ الأيامُ والدَّهرُ ينفدُ
إنَّ الحياةَ غاليةٌ جداً، ولا تُبدلُ إلا لما هو أغلى وأحب، والوقتُ
هو الأجزاء المقيمة لهذه الحياة، فلا يُجاد به إلا لما هو أنفس، فيا
هذا: وقتك هو حياتك. ألم تر أن الزمن يمضي أسرع من أن
تأمله! هكذا هي الأعمار، فكلها أيام باقية دونها أيام، ونستكمل
رزقنا في هذه الدنيا، ثم نرحل عنها إلى ربنا. ولقد قال السلف:
«علامةُ المقت؛ إضاعةُ الوقت».

وَقِيَادُ النَّفْسِ كَقِيَادِ الدَّابَّةِ، فَإِنْ حَزَمْتَ مَعَهَا وَعُودَتَهَا الْجِدَّ
اعْتَادَتْ، وَإِنْ ارْتَخَيْتَ وَتَكَاسَلْتَ فَهِيَ لِلْفُشْلِ وَالْخِيَةِ مُنْقَادَةٌ،
وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِحَزْمٍ حَكِيمٍ، وَتَوَدُّةٍ وَرَفَقٍ، وَهُوَ بَيْنَ الشَّدَةِ الْمُتْلِفَةِ
وَالْإِرْخَاءِ الْمُهْمِلِ.

وَالنَّفْسُ كَالطِّفْلِ إِنْ تَرَكْتَهُ شَبَّ عَلَى حَبِّ الرِّضَاعِ وَإِنْ تَفَطَّمَهُ يَنْفَطِمُ
وَقِفْ قَلِيلًا: هَلْ أَنْتَ مُسْتَعِدٌّ لِلرَّحِيلِ، هَلْ تَعْرِفُ لِمَاذَا خُلِقْتَ،
وَمَاذَا يُرَادُ مِنْكَ وَبِكَ، وَكَمْ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْآخِرَةِ مِنْ وَقْتٍ، أَلَا
تَعْرِفُ مِنْ قَدْ سَبَقَكَ وَرَحَلَ عَنْكَ. هَلْ رَأَيْتَ وَجْهَ الْمَوْتِ
بِحَادِثٍ أَوْ مَرَضٍ وَنَحْوِهِ ثُمَّ تَوَارَى عَنْكَ؟ اَعْلَمْ أَنَّهَا رِسَالَةٌ لَكَ مِنَ
الدَّارِ الْآخِرَةِ، فَاجْعَلْهَا مِنْكَ عَلَى ذِكْرٍ، وَلِلْحَمِيدِ شَاكِرًا حَامِدًا مُجَبِّيًا،
وَتَدَبَّرْ قَوْلَ رَبِّ الْعِزَّةِ وَالْجَلَالِ فِي شَأْنِ قَوْلِ ذَلِكَ الْإِنْسَانِ وَهُوَ
يَرَى جَهَنَّمَ تَزْفِرُ أَمَامَهُ: ﴿يَكَلِّتُنِي قَدَمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر: ٢٤] لَتَعْلَمَ
أَنَّ حَيَاتَكَ الْحَقِيقِيَّةَ إِنَّمَا هِيَ فِي الْآخِرَةِ، أَمَا الدُّنْيَا فَسِرَابٌ.

مَا أَنْتَ إِلَّا كَرَجٍّ عِنْدَ خُضْرَتِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الْآفَاتِ مَقْصُودٌ
فَإِنْ سَلِمْتَ مِنَ الْآفَاتِ أَجْمَعِهَا فَأَنْتَ عِنْدَ كَمَالِ الْأَمْرِ مَحْصُودٌ



إِنَّ عَالَمَكَ الْحَقِيقِي هُوَ مَنْزِلَتُكَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، أَمَّا الدُّنْيَا فَلَنْ
تُتَغَيَّرَ بَعْدَ مَوْتِكَ، بَلْ سَتَسْتَمِرُّ كَمَا كَانَتْ حَتَّى اجْتِمَاعِكَ عِنْدَ
الْخَلْقِ الْعَظِيمِ، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة:
٢٠٣] قَالَ الْحَسَنُ: «يَوْمَانِ وَلَيْتَانِ لَمْ تَسْمَعْ الْخَلَائِقُ بِمِثْلِهِنَّ قَطُّ:
لَيْلَةُ تَبَيَّتُ مَعَ أَهْلِ الْقُبُورِ وَلَمْ تَبْتَ لَيْلَةً قَبْلَهَا، وَلَيْلَةُ صَبِيحَتِهَا يَوْمَ
الْقِيَامَةِ». وَتَأْمَلْ ذَلِكَ النَّدَاءَ الْمَشْفُوقَ مِنْ عَسْكَرِ الْأَمْوَاتِ:

كَأَنَّكَ بِالْمَضِيِّ إِلَى سَبِيلِكَ وَقَدْ جَدَّ الْمُجْهَدُ فِي رَحِيلِكَ
وَلَمْ تَحْمِلْ سِوَى كَفَنِ وَقُطْنٍ إِلَيْهِمْ مِنْ كَثِيرِكَ أَوْ قَلِيلِكَ
فَسَوْفَ تَجَاوِرُ الْمَوْتَ طَوِيلًا فَذَرْنِي مِنْ قَصِيرِكَ أَوْ طَوِيلِكَ
وَكَانَ السَّلَفُ يَقُولُونَ: الْأَرْزَاقُ تُنَزَّلُ فِي الْبُكُورِ، وَالْأَعْمَالُ
تُرْفَعُ آخِرَ النَّهَارِ، وَالذُّنُوبُ تُغْفَرُ فِي السَّحَرِ. فَلَا تَفُوتْ هَذِهِ الْغَنَائِمَ
بِغَفْلَةٍ أَوْ نَوْمٍ. وَقَدْ ذَمَّ اللَّهُ قَوْمًا لَخُوضِهِمْ فِيهَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ، فَكَانَ
مِنْ نَدَمِهِمْ أَنْ قَالُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: ﴿وَكُنَّا نَحُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾
[المدثر: ٤٥] فَلَا تَكُنْ مِنْهُمْ.

قال عمرو بن قيس الملائي: مرَّ رجلٌ بلقمان والناس عنده، فقال له: أَلَسْتَ عبد بني فلان؟ قال: بلى، قال: الذي كنت ترعى عند جبل كذا وكذا؟ قال: بلى، فقال: فما بلغ بك ما أرى؟ قال: «صدق الحديث، وطول السكوت عما لا يعنيني»^(٥٨). وقال مورق العجلي: «أمرُّ أنا في طَلَبِهِ منذ كذا وكذا سنة، لم أقدر عليه ولست بتارك طلبه أبداً، قالوا: وما هو؟ قال: الكفَّ عما لا يعنيني»^(٥٩). فالأمر يستحق المجاهدة. وعن الحسن قال: «من علامة إعراض الله تعالى عن العبد؛ أن يجعل شغله فيما لا يعنيه، خذلاناً من الله عز وجل»^(٦٠). وقال سهل بن عبد الله التستري: «من تكلم فيما لا يعنيه؛ حُرِمَ الصدق، ومن شغل جوارحه بغير ما أمره

(٥٨) جامع العلوم والحكم (١ / ١١٥).

(٥٩) جامع العلوم والحكم (١ / ١١٦).

(٦٠) جامع العلوم والحكم (١ / ١١٦).



الله به حُرِّم الورع»^(٦١). وقال معروف: «كلام العبد فيما لا يعنيه؛
خذلانٌ من الله عز وجل»^(٦٢).

فيا طالب العلم والعبادة: احذر قال وقيل، فهي مذهب لبركة العلم والعمل، وعليك بركاثر العلم النافع، وأنوار العمل الصالح، واملاً وقتك وصدرك وروحك وعملك بالوحي العظيم. واحفظ لسانك عما لا يعينك، فقد توفي رجلٌ من أصحاب النبي ﷺ فقال رجل: أبشر بالجنة، فقال رسول الله ﷺ: «أو لا تدري، فلعله تكلم بما لا يعنيه، أو بخل بما لا يعنيه»^(٦٣). وجماع ذلك قول رسول الله ﷺ: «مَنْ حَسَنَ إِسْلَامَ الْمَرْءِ تَرَكَهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»^(٦٤). حَسَنَ إِسْلَامَكَ — رعاني الله وإياك — . ومن جميل ما قالوا: «تَمْضِيَةُ وَقْتِكَ بِالسَّعْيِ

(٦١) شعب الإيمان للبيهقي (٤ / ٢٦٩).

(٦٢) جامع العلوم والحكم (١ / ١١٦).

(٦٣) الترمذي (٢٣١٦). وقال الحافظ ابن رجب في جامع العلوم والحكم (١ / ٢٩٢): «روي معنى هذا الحديث من وجوه متعددة عن النبي ﷺ، وفي بعضها أنه قُتل شهيداً».

(٦٤) ابن ماجه (٣٩٧٦)، والترمذي (٢٣١٧) وصححه الألباني في مشكاة المصابيح (٣ / ٤٩) (٤٨٣٩).

لإدخال نفسك الجنة، أولى بك من السعي لإثبات أن غيرك سيدخل النار».

لذا فمن المهمات: أن ينشغل طالب العلم بما ينفعه مما خلق لتحقيقه وهو العبادة، وألا يستغرق وقته فيما لا ينفع، حتى وإن نَزَعَتْ نفسه إليه وحاولت تزيينه في عينيه، فلها مع العقل مسارب وحيل تُنِيهِ فيها أحياناً، فلا يصحو إلا بعد مضي زمان من نفيس عمره.. فقد ذهبت ليلي فما أنت صانع!

ولكم سلبت شبكات التواصل من أوقاتٍ لو صرفت في عمارة آخرة أو حراثة دنيا؛ لكانت ثمارها نافعة، ولكنها فتنة الزمان وهي الثقب الأسود للأوقات. وأشدّ من ذلك السيلُ المغرق بالشبهات والشهوات في هذا العصر. وإنه لمن الغبن الشديد أن ترى عدوك يشاركك في تربية ولدك رغماً عنك، فقد دخل بقنواته وأفلامه وأفكاره لداخل غرف نومهم، والله المستعان.

ولك أن تعلم أن العمليات الذهنية لطلب العلم كالحفظ والتفهم والتأمل ونحوها يحتاج العقل فيها نفساً صافية، غير مزدحمة



المشاعر فرحاً أو ترحاً أو شغلاً أو غيره، لذلك أرشد الله تعالى
لناشئة الليل وقرآن الفجر، لأنّ الذهن فيهما أصفى ما يكون.
فأين ذهنك في تلك الأوقات!

ومن ذلك الخذلان: الاشتغال - الزائد - بالسياسة وتبّعها
والحديث عنها، وتناول تفاصيل أحداثها مما صحّ وما لم يصح،
والطيران مع وكالات الأنباء ومراسلي الأخبار وناقلي الأحداث
بعجرها وبجرها وصدقها وكذبها، فالنفس بطبعها متشّفة لمعرفة
أخبار الناس وماجرياتهم، ولكن العقل يلجمها بأنّ أمامها
عقبات كؤود لا بدّ لها من اجتيازها بقرايين الصالحات، وليس
بتتبع قيل وقال وولد ومات.

وقد قال رسول الله ﷺ: «إن الله كره لكم ثلاثاً: قيل وقال،
وإضاعة المال، وكثرة السؤال»^(٦٥) والسياسة من ألفها إلى يائها هي
من قيل وقال.

(٦٥) مسلم (٣٢٤٤).

فلاستغراقُ في تفاصيل السياسة، وتبَع أخبارها، مع العجز عن التثبّت، وعن التأثير الإيجابي؛ خطأً منهجي، وهذا الأمر - على نفعه - لا يستحقُّ البتّة مراحته لأُمور العبادة الكبرى، فإنّا لم نُخلق لدهاليز السياسة ووحلها، بل خلقنا لما هو أسمى. وفي تبَع مواضيع أحداث السياسة ونحوها يكفينّا حديث النبي ﷺ: «من حُسّن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»^(٦٦). ويدخل فيما لا يعنيه ما لا قدرة له على التأثير فيه.

وفي السياسة المعاصرة للدول غالباً تظل الحقائق والتوجهات والمنطلقات والبطون مغيّبة عن العامة، وجُلّ ما نراه من تحليلات إعلامية مبناها على ظنون وتسريبات موجهة. وفي السياسة والحرب لا تُصدّق ما تراه بعينك وتسمعه بأذنك، فأنت في زمن التدليس والخداع، والأرض مليئة بالكذبة. ولا تثق بأعداء ربك وإن لبسوا جلود الضأن، فغاية الذئب لا يراها

(٦٦) رواه الترمذي (٢٣١٧) وصححه الألباني. الروض النضير (٢٩٣) و(٣٢١).



الأعشى، ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً﴾ [النساء: ٨٩]
 فإياك ودجل الإعلام، فكلّ الإعلام مُسيّس، شعر الناس أم لم
 يشعروا، ورسائله المبطّنة أخطرُ من المباشرة، وقد علمنا مصيِّبه،
 ولكن السؤال الكبير: أين منبعه؟!

وثمة فروق بين الجهل المطبق المعيب بماجريات السياسة
 العامة، وبين استغراق العمر في متابعة ومسابقة أخبارها
 وتحليلاتها. والخير في التوسّط بلا إفراط ولا تفريط. وتكفي
 المؤمن في معرفة أحداث السياسة المعاصرة: المجملات والأخبار
 العامة من مصادرها النقية قدر المستطاع، ويستثنى من ذلك من
 كان له تأثيرٌ فيها؛ فيتتبّع لينفع.

وإنّ مما يزهّدك في السياسة علمك أنّ أكثر المتصارعين في
 الميدان ومعهم جمهرة المتفرجين والمعلّقين والمصورين يتحركون -
 دون أن يشعروا - ضمن خطة مدير المباراة!

هذا ويعيب مواضيع السياسة المعاصرة أمران:

الأول: انتشارُ الكذب وإشاعته، واشتباه الباطل بالحق. وكيف لا يكون ذلك وخمسُ وكالات أخبار غربية هي المسيطرة على قرابة ٩٠% من حركة الأخبار حول العالم، وبالطبع فهي توظفها لمصالحها ولو على حساب الحقيقة. والمؤمن كَيِّسٌ فطن، وكما قال عمر: «لستُ بالخبِّ - أي المخادع - ولا الخبُّ يخدعني».

الثاني: تشعُّبُ الأخبار وكثرتها جدًّا بحيث تستغرق زمانًا طائلاً نفيساً.

ومن الفروع الخطرة للانشغال الزائد بالسياسة: جرفُ الشباب لأُمور لا تطيقها فهمهم ولا تحملها علومهم؛ كتكفير الحكومات، ووصف الولاية بالطواغيت، وجندهم بجند الكفرة، وشعوبهم بالمرتدين، ونحو تلك المهالك والبواق التي هي داخلةٌ تحت نهي النبي ﷺ عن التكفير إلا بحقه، وما هذا بسبيل الربانيين.



ولو أنّ هؤلاء الشباب انشغلوا بما يُفيدهم في قابل أيامهم، وبما يبنى حصون علمهم في مستقبل زمانهم؛ لسلّموا بإذن الله من كدر الشقاق ووضرّ الفرقة ودخان الفتن. فالعلم حصن حصين لصاحبه في أزمنة الفتن، فكأين من فتنة تروق مرآها حماسات القلوب وبداهات العقول وفورات العواطف، حتى إذا انجلت؛ كشفت عن سوء عاقبة وبشاعة مآل. وفي صحيح البخاري: باب الفتنة التي تموج كموج البحر: «وقال ابن عيينة عن خلف بن حوشب: كانوا^(٦٧) يستحبّون أن يتمثلوا بهذه الأبيات عند الفتن: قال امرؤ القيس:

الحربُ أوّلُ ما تكونُ فتيةٌ تسعى بزيتها لكلِّ جهولٍ
حتى إذا اشتعلتْ وشبَّ ضرامها ولّتْ عجوزاً غيرَ ذاتِ حليلٍ
شمطاءً ينكرُ لونها وتغيّرتْ مكروهةً للشمِّ والتقبيلِ»^(٦٨)

(٦٧) أي: السلف.

(٦٨) أخرجه البخاري تعليقاً في الفتن باب الفتنة التي تموج كموج البحر. (٩/٠) وقال الحافظ في الفتح (٥٣/١٣): «وصله البخاري في التاريخ الصغير عن عبد الله بن محمد المسندي، حدثنا سفيان بن عيينة. وقال أيضاً: والمحفوظ أنّ الأبيات المذكورة لعمر بن معد يكرب الزبيدي، كما جزم به أبو العباس المبرد في الكامل».

ولكم يحزّ في نفسي بشدة مرأى شباب في عمر الزهور وميعة
 الصبا، يتحمّون أمور الأمة الكبار، التي لا يُصدر فيها إلا عن
 مجامع فقهية، فيفتون في المسائل العظام رعونة وجهلاً. خَيْرُ لك
 - يا أيها الموفق - الانصرافُ عن هذه الفتن المدلّمة كافة،
 والانشغال بالتحصيل النافع والعمل الصالح والعبادة الدائمة. ومن
 أُعجب بنفسه سقط لأنفهِ، وقد بدّع الفرزدقُ بيتاً وحلف بالطلاق
 أنّ جريراً لا ينقضه فقال:

فإني أنا الموتُ الذي هو نازلٌ بنفسك فانظر كيف أنت محاوله
 فبلغ ذلك جريراً فقال على البديهة: أنا أبو حُرْزة طَلقتِ امرأتَه:
 أنا الدهرُ يُفني الموتَ والدهرُ خالدٌ فجئني بمثلِ الدهرِ شيئاً يطاولُه
 وقد قصد بالدهر الزمان.

* ومن الوصايا: تواضع، فالتواضع في موضعه رفعةٌ وعزٌّ، والله
 تعالى قد جعل أكرم الناس أتقاهم، لا أنسبهم ولا أعلمهم ولا
 أكثرهم مالاً وولداً ومنصباً وجاهاً، وتعظم الرزية حين يكونُ
 المتفاخرُ طالب علم! وتأمل كيف كان الرجل يدخل على الرسول



ﷺ وهو بين أصحابه فيسألهم: أيكم محمد؟ لقد كان ﷺ مدرسةً متكاملة في كل خصال الخير.

وقد كانت جوارى الحيّ الصغيرات ينتهين بغنمهن إلى أبي بكر الصديق فيقول لهن بكل تواضع: «أُحِبُّنَ أَنْ أَحْلَبَ لَكُنَّ حَلَبَ ابن عفراء»؟^(٦٩).

فحدث نفسك على الدوام ألا تظن أنها أفضل من أحد من المسلمين، فإن أبت فذكرها الثلاث: أنك لا تعلم باطنه؛ فقد يكون خيراً من باطنك، ولا تعلم قبلك عند ربك؛ فقد تكون أعمالك رُدّت، ولا تعلم خاتمة وخاتمتك. ويا أيها الفاني تواضع.

واعلم أنك ترتفع وتسمو في قلوب الناس على قدر اتضاعك العفويّ لهم، وتسقط من عيونهم وتضع في صدورهم على قدر ترفعك عنهم وتكبرك عليهم.

وإنّ لكل إنسان قصة حياة كاملة، قد تكون أعجب مما نتصور، وله أحاسيسه المفعمة بألوان المشاعر مهما رأيت فراغ كينونته،

(٦٩) ابن سعد في الطبقات (٣٦٤/٨).

وكلّ شخص لديه قصة حُزنٍ بداخله، فَرِيقًا يَمُنُّ بِمَن تَحُبُّونَ، ولا تحقرون من البشر أحدًا.

وتأمل مليًّا أول قصة في التاريخ. واعلم أن بعض صورها يتكرر فيك وبك، فتدبر واستلهم العبر. إنها: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾ [البقرة: ٣٠] وكن كأبيك الصالح لا عدوك الرجيم.

وإن رأيت من أحدٍ ذنبًا نتعاضمه؛ فلا تحجرن عنه رحمة الله وهدايته، فإنك لا تعلم خايبته ولا خاتمته، ولقد قال عامر بن ربيعة رضي الله عنه يومًا: «لا يُسلم الذي رأيتُ - أي عمر - حتى يُسلم حمار الخطاب!» فما هو إلا زمن ليس بالطويل؛ وإذ بعمر قد صار ثالث ثلاثة في الإسلام، ووزيرًا مُقربًا لرسول الله ﷺ، وعزًّا للإسلام، وغيظًا للشيطان وحزبه، وأميرًا للمؤمنين.

واعلم أنه ليس من عادة الصدر الأول تصدير الأسماء بألقاب التفخيم كسموه، ومعاليه، وفضيلته، ولا بحرف الدال والميم، ولا



تقديم النسب على الاسم، بل كانوا أهل تواضع وبساطة وعفوية. كما أنه ليس من شرط العلم والثقافة نيل الشهادات العرفية، فالرافعي والعقاد اللذان أسمعنا آذان الدنيا شهادتهما هي الابتدائية فقط، كما أن بعض كبار العلماء وفحول الفقهاء ونحارير العلم في هذا الزمان ليس لهم شهادة ولا منصب أصلاً، فلا تغترّ بالزبد وانفذ للصريح.

لقد رفع الإسلام سلمان فارسٍ وأذلّ الشرك الشريفَ أبا لهب
هذا وإن الأصل في الفخر بالنسب هو المنع مهما كان شرفه
إلا في الحرب، وذلك لأمرين:

١ - عمومات النهي عن التفاخر بالحسب والنسب، ولا استثناء
إلا بدليل.

٢ - أن شرف النسب لا يخلو من كونه نعمةً في الدنيا فيكون
حاله كالمال والمتاع ونحوه؛ فلا يُشرع الفخر به، أو أن يكون نعمةً
دينية كالإيمان والفقهِ؛ فالمنعُ من التفاخر به أكّد.

ومهما يكن من أمر؛ فالمرء لا يوزن بماله ولا نسبه ولا لحمه وشحمه، بل بدينه وعلمه وعقله وأدبه. قال شيخ الإسلام: «ليس في كتاب الله آية واحدة يُمدح فيها أحد بنسبه ولا يُذم أحد بنسبه»^(٧٠).

وقال الرقيم يوماً مفتخراً بأصله، متعالياً على نبي كريم، خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، وعلمه أسماء كل شيء، وأسجد له ملائكته، وهداه، واجتباه: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ [الأعراف: ١٢] فمن تعالى على الناس بنسبه؛ فشيخه إبليس، ومن تعالى عليهم بماله؛ فشيخه قارون، وعلم لا يقرب من الله؛ لا خير فيه. وخير أصلٍ تنتسب إليه هو أصل الإسلام، ﴿هُوَ سَمَكُكُمْ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨] أولاً يكفيك أن تتسمى باسم اختاره الله تعالى لك؟! بلى وربّي! فهو النسب الذي يستحق الغبطة حقاً.



وتفكر في العندية في قول الله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ﴾ [الحجرات: ١٣] وتأمل قوله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر»^(٧١). فحتى في مقام السيادة على جميع البشر؛ تبرأ من الافتخار على أحد منهم، فهو يتحدثُ بنعمة الله لا يفتخر. وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «غلط من ألغى فضيلة الأنساب، وغلط من ظنَّ أنها تفضيلٌ بتعيين الشخص، والحقُّ أنها فضيلةٌ جُملة، وفضيلةٌ لأجل المظنة والسبب، أما فضيلة التقوى ففضيلة تعيين»^(٧٢).

ومثال ذلك في معادن الأرض لمن ينقبون عن الذهب، فتراهم يركزون البحث في بقاع معينة أكثر من غيرها، لأنه في الأغلب تكثر فيها عروق الذهب أكثر مما عداها، مع علمهم أنه قد توجد في البقاع التي رغبوا عنها عروق أفضل وأجود مما ظنّوه

(٧١) أحمد (٢/٣) وابن ماجه (٤٣٠٨) والترمذي (٣١٤٨ و ٣٦١٥)

وصحه الألباني في صحيح ابن ماجه (٤٣٠٨).

(٧٢) درء التعارض (٦٠٣/٤).

في الأولى، فالمسألة مسألة غلبة ظنٍّ بوجود الصفات الحسنة في كذا وكذا، وقد لا توجد في الحقيقة، وقد توجد ناقصة، وقد يوجد في غيرها أفضل منها. ومن ذلك أنّ جنس المهاجرين أفضل من جنس الأنصار، ولكن يوجد من الأنصار كسعد بن معاذ وأسيد بن حضير وعبادة بن الصامت وعباد بن بشر وغيرهم أشخاص أفضل من كثير من المهاجرين، فعاد الأمر للمِظَنَّة والأغلبية، لا التعيين بالذات، وبكل حال:

إن يختلف ماء الوصالِ فئاؤنا عذبٌ تحدرَ من غمامٍ واحدٍ
أو يختلف نسبٌ يؤلفُ بيننا دينٌ أفتناه مقام الوالدِ

ولا تهتم للون بشرتك في الدنيا، فصيرها للدود، ولا لنسبك فهو للفناء، ولكن اهتم لبياض وجهك غداً بين يدي ربك ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [أل عمران: ١٠٦] وإنما يُحمدُ المرء بما له تصرّف فيه؛ تخلّقه الحسن، وعلمه النافع، وعمله المبرور، وسجاياه الكريمة، أما ما سواه فلا يعول عليه.



وعلى المؤمن أن يقنع بقدر الله له مما ليس له حيلة في كسبه
ولا دفعه؛ كجنسه ولونه ونسبه وزمانه، ومن الضياع مدافعة ذلك.
وعند عتبة الموت تذوبُ كل الفروق.

وإنَّ جمال الصورة وعدمها ليس بمُكتَسَب، فلا يُذمُّ المرء على
أمرٍ لم يصنعه لنفسه، لكنَّ الأخلاق مُكتسبة، فهي محل الحمد
والذم. ولما سأل نبيلٌ فرنسي فولتيرَ عن نسبه ليضع من قدره
أجابه: «يا هذا، نسبك ينتهي بك، ونسبي يبدأ بي!» ومنه قول
الأول:

إنَّ الفتى من يقول ها أنا ذا ليس الفتى من يقول كان أبي
ومما يؤلم المؤمن أن نبرة الازدراء للعنصر المختلف لا تزال سائدة
لدى كثير من المسلمين، بل حتى بين المتدينين، فلا يزال بعض
قومنا إذا ذكر العنصر المختلف بلونه أو نسبه أو شكله أو جنسيته
أو إقليمه قال: ذاك البدوي، أو الحضري، أو القروي، أو العبد،
أو طرش البحر، أو الشروق، أو صفر سبعة، أو الخضير، أو
الصانع، أو المتسعود، أو المتجنس وهكذا، وليس مراد كثيرهم

التوضيح بل نظرة الدون، وهذا التلوث المعيارى لا يسلم منه بلدٌ من بلاد الإسلام، لكنه يزداد في بلدٍ عن غيره بحسب نفخة الشيطان لأهله، وربُّ العزة يقول: ﴿هُوَ سَمَكُكُمْ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الحج: ٧٨] فبنسأ لأوضار الجاهلية، وتعنأ لمروط الخيلاء!

أي الإسلام لا أب لي سواه وإن افتخروا بقيس أو تميم ولا بد للمؤمن من إسباغ خلقي وتوازن عقلي إزاء الناس، وأن يعلم أن الخير فيهم منوط -فقط- بتقواهم، ومن التقوى حسنُ الخلق، وطيبُ المعاملة، وزكاء العمل، وحسن السيرة، ونقاء السريرة، ولين الجناح، وتواضع الجبين، وطهر الخبايا، وأن من فاق في التقوى فقد فاق.

فالأفضلية الحق هي الأفضلية في هذا الميزان الذي نصبه الرحمن: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، فمن كان عند الله كريماً فهو الكريم عند كل مؤمن، وهذا من محكات الدين في صدور أهله، فالمؤمن لا يتردد في ذلك مهما تلومت ألسنة الجاهلين، وتلونت أخلاق المتعصبين، وتصعرت حدود



المتكبرين! إذن فليست موازين الناس بأموالها ولا أحسابها ولا أنسابها ولا أبشارها، بل لا شيء سوى التقوى^(٧٣). وإن من خيبات المفارقات أن أناساً يستعيبون العمل في بعض المهن — هي في ذاتها محتقرة — كالجماعة ونحوها أشد استعياًباً من أعمالٍ يأخذون عليها مالاً بدل شرف! حالهم كما قال شوقي:

رَبِّ قَارِضٍ لِلْأَعْرَاضِ وَعَرْضِهِ بَيْنَ شَقِيٍّ الْمَقْرَاضِ.

وَمَا حَاجَتِي بِالْمَالِ أَبْغِي وَفُورَهُ إِذَا لَمْ أَفِرْ عِرْضِي فَلَا وَفَرَ الْوَفْرُ
وَقَالَ أَصِيحَابِي الْفِرَارُ أَوْ الرَّدَى فَقُلْتُ هُمَا أَمْرَانِ أَحْلَاهُمَا مَرٌّ
وَلَكِنِّي أَمْضِي لِمَا لَا يُعِينُنِي وَحَسْبُكَ مِنْ أَمْرَيْنِ خَيْرُهُمَا الْأَسْرُ
وَأَحْسَنُ أَبُو الطَّيِّبِ إِذْ قَالَ:

يَهُونَ عَلَيْنَا أَنْ تُصَابَ جُسُومُنَا وَتَسْلَمَ أَعْرَاضُ لَنَا وَعُقُولُ
وَالْعِزَّةُ عَنْ بَصِيرَةٍ حَكِيمَةٍ وَتَوْفِيقٍ، وَالتَّوَاضُّعُ عَنْ عِلْمٍ وَإِرَادَةِ نَبَلٍ
وَشُمُوحٍ، وَالشَّرِيفُ إِذَا ارْتَفَعَ تَوَاضَّعَ، وَالْوَضِيعُ إِذَا ارْتَفَعَ تَكَبَّرَ،

(٧٣) وقد رقت في ذلك حروفاً في رسالة أسمىها: «كفاءة النسب وزیوف الجاهلية».

وميتةُ النقاء خير من حياة الدّنس. وكما قال الإسبان: لا بأس
إن كان جيبك فارغاً ما دامت قبعتك مرتفعة.

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه فكلُّ رداء يرتديه جميلٌ
ولست بصدد تحريم أو منع أو ذكر كراهية لمهنة أو عمل؛
لكنما المقصد تشريح الحقيقة عبر ميزان النظر، وتبيين الصورة
بكل ما حواه الإطار، ذلك أنّ المقارنة الصادقة - حتى وإن
طعنت نون الهدوء - تبقى هي العقار الناجع حتى وإن خاب
أمل السامع من لين رفي الناصح، لأنّ الرفق زينٌ كُلُّهُ، وإنّ من
الرفق في العاقبة أحياناً شدة أول الطريق، فالعبرة إنّما هي برفق
النهايات، ونجعها، وفلاحها، لا شدة البدايات، وثقلها، ومشقتها،
ومشقة الصعود درجُ رفق الوصول، فإنّ كان؛ وإلا فالكمال
عزيز، والعبرة بالحقائق الناصعة الناصحة حتى وإن شاب رونقها
جفافٌ ما عنه مناص.

والحرّ تكفيه الإشارة فيميزُ ذهبَ الحروف عن نحاس
الحتوف. وسلامُ الله وصلاته وبركاته وإنعامه على أرفقِ روج،



والطف لسان، وأرق حاشية، وأحن مهجة، وأصدق إحساس،
وأكل العالمين طراً.

وعند طروء الحسب والسلالة الطيبة التي عُنت بمعالى الأمور
على قلب العاقل؛ فإنها تُثمرُ الهمة العالية، وسمو النفس عن
سفساف الأمور، والبعد عن كل ما يشين، وتدفق في صدره
التواضع الصادق. أمّا إن وردت قلب السفیه؛ فإنها تثر الكبر،
والغرور، والتّيه، والدوران حول ذواتٍ قد فنت، والفخر بما
ليس له، والغفلة عما خُلق له. ومن تواضع ارتفع، ومن تعالى
اتّضع، ولا يتواضع إلا من كان واثقاً بنفسه، ولا يتكبر إلا من
كان عالماً بنقصه.

لسنا وإن كُرمنا أوائلنا يوماً على الأحساب نتكلُ

نبني كما كانت أوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا

ومن فروع ذلك؛ كثرة الحديث وطول النقاش عند مسألة
التفضيل والمساواة بين الذكر والأنثى، والذي ينتهي إليه فضلاء
العقلاء: أنّ المسألة في جوهرها: تكامل لا تفاضل.

نعم، جنس الذكر أفضل بنص القرآن ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾
﴿[آل عمران: ٣٦]، ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ
بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ [النساء: ٣٤] أما من
حيث الأفراد فالأنثى التقيّة أفضل وأكرم ممن دونها في التقوى
من الذكور مهما كثروا، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾
[الحجرات: ١٣].

ولكن لا ينبغي أن يكون هذا محور النقاش، بل المحور الصالح
للحوار: كيف نصل لتكامل بين الجنسين بحيث يستغرق كل
جنس فيما خلق لأجله فيكمل حاجته بشقه الآخر، ولا يتجاوز
حدّه فيما لم يؤذن له فيه، فيتعاونان ويتكاملان لإقامة عبودية
الله تعالى في أرضه.

فالرجل له مقوماته ومهامه وتكاليفه التي هيّا الله جسده وروحه
وعقله لاحتماها كالقتال في سبيل الله وشهود الجمعة والجماعة
والقوامة على الأهل بجلب القوت والرعاية والحيطرة ونحو ذلك،



والمرأة لها مقوماتها ومهامها وتكاليفها كحفظ البيت ورعاية الصغار وإعانة بنات جنسها ونحو ذلك، فيجتمعان في أصول التكاليف الشرعية التي جامعها عبودية الله تعالى، ويفترقان في بعض تفاصيل المهام الحيائية والعبادية، فللرجل مساره وللمرأة مسارها، وهذا المساران يجمعهما الطريق الأعظم وهو عبادة الله تعالى.

وخيرُ لك ألا ترى ذاتك. فكن في غبراء الناس، إن حضرت لم يأبهوا لك، وإن غبت لم يفقدوك.

واكسر صولة عجبك بتذكر ذنبك، وتعاظم نفسك بنقصك وفنائك، وحرصك بحتم قضائك، وطول أملك باقترابك كل مرحلة من موعد رحيلك. واعبر الدنيا بالعبادة، ولا تعمرها بالغفلة. وأحسن علاقتك بالحى القيوم، ثم التحف بقية عمرك.

قال ابن القيم رحمه الله: «إذا أراد الله بعبده خيراً؛ سلب رؤية أعماله الحسنة من قلبه، والإخبار بها من لسانه، وشغله برؤية ذنبه، فلا يزال نصب عينيه حتى يدخل الجنة»^(٧٤). فمن التوفيق

(٧٤) طريق المهجرتين (٣٦٩/١).

لكلّ ناصح لنفسه: أن يجعل نصب عينيه دوماً ذنباً سالفه، وأن يستعظمها بلا قنوط، كسراً لسورة الكبر في نفسه، وقرعاً لصولة عبادته وتدينه، وما أقرب التائب من ربه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

فيا صاحبي: كن متواضعاً في غير خنوع، صادقاً في غير غفلة، شريفاً في غير تيه. واعلم أنّ علامة العظمة: التواضع، وأمانة الجبن: البطش بالضعيف، وبرهان العقل: الاستعداد للقاء الله تعالى. والورع قيد التقوى، والتقوى جماع الخير. وإذا أردت تعلم فنّ، فاعترف بجهلك به أولاً.

* ومن الوصايا: الزمّ جبلَ الوفاء، فهو الصفة التي تهشّ لها جميعُ الأفتدة على اختلاف المشارب والأديان. والوفاء مرآة صادقة على جمال باطن الوفيّ، وما أعزّ الأوفياء. وإذا أردت رؤية الجمال الحقيقي للوفاء، فتأمل فقط قبح الخيانة.

وجربنا وجرب أولونا فلا شيء أعزّ من الوفاء



وإن وعدت فأنجز، ولا يكن رعدك أكثر من ودِّك، وأنجز
 حرُّ ما وعد، ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾
 [مريم: ٥٤] فالؤمن وفيُّ بعهدده وعقده وعشرته، وحسنُ العهد
 من الإيمان.

وإني لا أكاد أملك دمع عيني حين أطالع خبر إمام الأوفياء
 صلوات الله وسلامه وبركاته عليه حين وفى للناقة في الحديبية
 جميلها، ولم يرض أن تُذمَّ بما ليس فيها، فإنها لما بركت به قال
 الناس: حلَّ حلٌّ، فألحَّتْ، فقالوا: خلأتِ القصواء، خلأتِ
 القصواء، فقال النبي ﷺ: «ما خلأتِ القصواء، وما ذاك لها
 بِخُلُقٍ، ولكن حبسها حابسُ الفيل»^(٧٥). هنا الوفاء النادر منه ﷺ
 للصاحب حتى وإن كانت بهيمة عجماء، فكيف لمؤمن كريم!
 اللهم صل وسلم وبارك عليه وآله.

(٧٥) البخاري (٣ / ١٩٣) (٢٧٣١) ومعنى خلأت: أي بركت وحرنت بلا

علة.

لذلك لا غرابة في وفائه في إقرار السّدانة لبني شيبية، مع أنه غير ملزم به في أعراف العرب، فالمنتصر غير ملزم بسياسة المنهزم، ولكنه جبلُ الوفاء وشمسه وقمره، فليس بمستغربٍ منه هذا الوفاء. قال السهيلي في سرد فتح مكة: «ثم جلس رسول الله ﷺ في المسجد، فقام إليه علي بن أبي طالب ومفتاح الكعبة في يده، فقال: يا رسول الله اجتمع لنا المجابة مع السقاية صلى الله عليك؛ فقال رسول ﷺ: «أين عثمان بن طلحة؟» فدُعي له فقال: «هاك مفتاحك يا عثمان، اليوم يومٌ برٍّ ووفاءٍ»^(٧٦). وكلّ أيامه برٌّ ووفاء ﷺ، لكن قالها تأكيداً على تعظيم حرمة البيت الحرام.

وتأمل وفاءه ﷺ لذكرى حبيبته خديجة حين تزوره أختها هالة بنت خويلد رضي الله عنها فيتذكر بصوتها صوت الفقيدة الراحلة، حتى تغار الصديقة من هذا الوفاء العزيز الجميل، بل وفاءه لصديقات خديجة حين كان يهدي لهن اللحم لأجل ذكرها،

(٧٦) الروض الأنف (٤ / ١٧١).



وتأمل تأثره الشديد لما رأى قلادتها حينما أرادت ابنته زينب
فداء زوجها بها.

ومواقف الوفاء الهائلة منه ﷺ لا يكاد الصدر يطيق تذكرها
كلها مجتمعة إلا بعد قوةٍ ويقين، فواردها شديد القوة على المحلّ
المحبّ لذلك الإنسان الكامل ﷺ، فالشعورُ بها وإمرارُ صورها
أمام عين القلب الوامق؛ يَحْطِمْهُ بِأَمْوَاجِ حَرَارَاتِ الشَّوْقِ وَاللَّهْفَةِ
والحب والوفاء، فصلى الله وسلم وبارك على من كان للوفاء إماماً
وَفِيّاً.

سَيَبْقَى لَكُمْ فِي مُضْمَرِ الْقَلْبِ وَالْحَشَا سِرِيرَةٌ حُبِّ يَوْمِ تَبْلَى السَّرَائِرُ
إِنَّ الْوَفَاءَ خَلَقَ أَصِيلٌ وَسَجِيَّةٌ كَرِيمَةٌ لَا يُوقَّقُ إِلَيْهَا إِلَّا ذُو نَفْسٍ
طَيِّبَةٍ وَمَغْرَسٍ عَذْبٍ، وَالْوَفَاءُ مِنْ أَخْصِ صِفَاتِ الْعَرَبِيِّ الْكَرِيمِ،
فَالْعَرَبُ إِذَا رَأَوْا زَهَرَ الْعَرَارِ؛ اشْتَاقُوا لِنَجْدٍ، وَإِذَا رَأَوْا الْأَرَاكَ؛
حَنُّوا لَتِهَامَةٍ.

تَمَتَّعَ مِنْ شَمِيمِ عَرَارِ نَجْدٍ فَمَا بَعْدَ الْعَشِيَّةِ مِنْ عَرَارِ

* ومن الوصايا: معرفةُ قدر النفس ونقصها وضعفها وعجزها وهواها. فاحذر - حرسك الله - العُجبَ والتَّيّه، فمن الناس من لا يرون لغيرهم فضلاً، ولا يراعون له في الدين والعلم حرمة ورحماً، حتى وإن علا كعبه في الدين والعلم والفضل والسابقة، بل حتى لو كان من الربانيين الراسخين وممن شاب فوداه في رياض العلم والدعوة والخير. فترى من بعض شرسي الأخلاق وقليلي الحياء - بل قد يكون ممن تتلمذ على ذلك العَلَمِ الربّاني - من يقرع وجه الشيخ بأوحش القول، وأنكى التّهم، وأرذل القالات، إرضاء لصغر نفسه، وقلة علمه، وضعف عقله، ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]. بعضهم كأنما عناه الخزاعيُّ دَعْبَل:

أَمَّا الْمَجَاءُ فَدَقَّ عَرَضُكَ دُونَهُ وَالْمَدْحُ عَنْكَ كَمَا عَلِمْتَ جَلِيلُ
فَإِذْ هَبَ فَأَنْتَ طَلِيقُ عَرَضِكَ إِنَّهُ عَرِضُ عَزَزَتَ بِهِ وَأَنْتَ ذَلِيلُ

* ومن شريف الوصايا: خَفِ الله تعالى في الغيب، فذلك معيارُ التقوى، ودليلُ الصدق، وبرهانُ الإيمان، وهي بإذن الله من أعظم وسائل الثبات على دين الله حتى الممات، وضدّها من



أوسع أبواب الانتكاسات عيادًا بالله رب البريات. وقد أثنى الله تعالى على من خافه بالغيب فقال: ﴿لَيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤] وقال: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ [فاطر: ١٨] وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك: ١٢] ومن خوفك حتى تأمن خيرٌ لك ممن أَمَّنكَ حتى تخاف.

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال ولنا وقفةٌ يسيرةٌ في مقارنة بين أصحاب محمدٍ وأصحاب موسى عليهما الصلاة والسلام في خشية الله بالغيب، وفي الجهاد: ففي حفظ الله بالغيب: مكر اليهود واحتالوا في السبت طمعاً في الصيد؛ فمسحهم الله قردة، ﴿وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣]. أما الصحابة المرضييون فإنهم حين أحرموا؛ تركوا الصيد وهو بين أيديهم وفي متناولهم، ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ

تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ» [المائدة: ٩٤]. قال مقاتل بن حيان: «أنزلت هذه الآية في عُمره القضية الحديبية، وكان الوحش والطير والصيد يغشاهم في رحالهم، لم يروا مثله قطّ فيما خلا، فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون، ليعلم الله من يخافه بالغيب، وليعلم من يطيعه في سره وجهره»^(٧٧). أي ليظهر علمه في الغيب في عالم الشهادة.

(٧٧) تفسير ابن كثير (٣ / ١٩٣) وقد ذكر الحافظ ابن كثير عند تفسير هذه الآية خبرين فيهما عبر تربوية عالية، فقد نقل بسنده عن ميمون بن مهران: «أن أعرابياً أتى أبا بكر قال: قتلت صيداً وأنا محرم، فما ترى عليّ من الجزاء؟ فقال أبو بكر رضي الله عنه لأبي بن كعب وهو جالس عنده: ما ترى فيما قال؟ فقال الأعرابي: أتيتك وأنت خليفة رسول الله ﷺ أسألك، فإذا أنت تسأل غيرك؟ فقال أبو بكر: وما تُنكر؟ يقول الله تعالى: ﴿فَجَزَلْنَا مِثْلَ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ فشاورت صاحبي حتى إذا اتفقنا على أمرٍ أمرناك به».

وهذا إسناد جيد، لكنه منقطع بين ميمون وبين الصديق، ومثله يُحتمل هاهنا. فبين له الصديق الحكم برفقٍ وتؤدة، لما رآه أعرابياً جاهلاً، وإنما دواء الجهل التعليم، فأما إذا كان المعارض منسوباً إلى العلم، فقد ذكر ابن جرير بسنده عن قبيصة بن جابر قال: «خرجنا حُجَّاجاً، فكنا إذا صلينا الغداة اقتدنا رواحلنا نتماشى نتحدث، قال: فبينما نحن ذات غداة إذ سنع لنا ظبي، فرماه رجلٌ كان معنا - وعند ابن أبي حاتم: وهو مُحْرَمٌ - بحجرٍ فما أخطأ خُشَاءَهُ - وهو العظم الدقيق العاري من الشعر الناقئ خلف



الأذن - فركب رَدْعَهُ مَيْتاً - أي خَرَّ لوجهه على دَمِهِ - قال: فعظّمنا عليه، فلما قدمنا مكة خرجتُ معه حتى أتينا عمر رضي الله عنه، قال: فقَصَّ عليه القصة قال: وإلى جنبه رجل كأن وجهه قلب فضة - أي سِوَارٌ من فضة ويعني عبد الرحمن بن عوف - فالتفت عمرُ إلى صاحبه فكلّمه قال: ثم أقبل على الرجل فقال: أعمداً قتلته أم خطأ؟ قال الرجل: لقد تعمّدت رميه، وما أردتُ قتله. فقال عمر: ما أراك إلا قد أشركت بين العمد والخطأ، اعمد إلى شاة فاذبجها وتصدق بلحمها واسقِ إهابها - أي تصدّق بجلدها لمن يدبغه ويستقي به، والإهاب هو الجلد قبل الدباغ -.

قال: فقمنا من عنده، فقلت لصاحبي: أيها الرجل، عَظِمَ شعائرُ الله، فما دَرَى أميرُ المؤمنين ما يفتيك حتى سأل صاحبه: اعمد إلى ناقتك فانحرها، ففعل ذاك. قال قبيصة: ولا أذكر الآية من سورة المائدة: ﴿يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ - وتأمل حماسة الشباب وطيش الإنكار بلا علم — قال: فبلغ عمر مقالتي، فلم يفجأنا منه إلا ومعه الدِّرَّة. قال: فعلا صاحبي ضرباً بالدِّرَّة، وجعل يقول: أقتلت في الحرم، وسفّهت الحُكْم؟ قال: ثم أقبل عليّ فقلت: يا أمير المؤمنين، لا أحلُّ لك اليوم شيئاً يحرم عليك مني، - قال العلامة أحمد شاكر في هامش تحقيقه لتفسير الطبري (١٠ / ٢٥): يعني أنّه لما أقبل عليه عمرُ وعرف أنّه ضاربه كما ضرب صاحبه، رَهَّبَ عمرُ وأخافه بقوله: إنّهُ لن يحلّه من ضرب بشرٍ هي عليه حرام إلا بحقّها. فلذلك هاب عمر أن يضربه كما ضرب صاحبه. فانظر إلى ما طُبِعَ عليه أسلافنا من حرية الطباع وما وَقَدَ الإسلامُ من عرامهم حتى كفَّ عمر يده مخافة أن يصيب من أبشار المسلم حراماً لا يحلّ له إلا بحقه -.

قال عمر: يا قبيصة بن جابر، إنّني أراك شابَّ السن، فسيح الصدر، بين اللسان، وإنّ الشابَّ يكون فيه تسعة أخلاقٍ حسنة وخلقٌ سيئٌ، فيفسدُ الخلقُ السيئُ الأخلاقَ الحسنة، فإنّك وعثراتِ الشباب».

وعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: كنت يوماً جالساً مع رجال من أصحاب النبي ﷺ في منزلٍ في طريق مكة، ورسولُ الله ﷺ أمامنا، والقومُ مُحْرَمُونَ وأنا غيرُ مُحْرَمٍ عام الحديبية، فأبصروا حمراً وحشياً - وأنا مشغولٌ أخصفُ نعلي - فلم يؤذِنُونِي^(٧٨)، وأحبُّوا لو أنّي أبصرته. وفي رواية: فرأيتُ أصحابي يتراءون شيئاً. وفي رواية: يضحك بعضهم إلى بعض، فنطرتُ فإذا حمراً وحشياً، فقمْتُ إلى فرسي فأسرَجته، ثم ركبْتُ ونسيتُ السوط والرحم، فقلت لهم: ناولوني السوط والرحم، قالوا: والله لا نعينك عليه، فغضبتُ فنزلتُ فأخذتهما، ثم ركبْتُ فشددتُ على الحمار فعفرته، ثم جئتُ به وقد مات، فوقعوا فيه يأكلونه. ثم إنهم شكُّوا في أكلهم إياه وهم حُرُمٌ، فرحنا، وخبأتُ لرسول الله ﷺ العُضدَ معي، فأدركنا رسول الله ﷺ، فسألناه عن ذلك فقال لهم: «هل منكم أحدٌ أمره أن يحمل عليه، أو أشار إليه؟» قالوا: لا، فقال: «كلوا ما بقي

(٧٨) أي لم ينبهوني ويخبروني عن الصيد.



من لحمه، إنما هي طعمة أطعمكموها الله، هو حلالٌ، هل معكم منه شيء؟» فقلت: نعم، فناولته العَصَدَ فأكلها^(٧٩)، وهو محرم^(٨٠).

أما في الجهاد في سبيل الله وحسن الأدب معه: فيكفينا ما حدث به عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لقد شهدت من المقداد مشهداً لأن أكون أنا صاحبه أحب إلي مما عدل به: أتى رسول الله ﷺ وهو يدعو على المشركين، فقال: والله يا رسول الله، لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤] ولكنا نقاتل عن يمينك وعن يسارك، ومن بين يديك ومن خلفك. فرأيت وجه رسول الله ﷺ يشرق لذلك، وسره بذلك»^(٨١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ شاور حيث بلغه إقبال أبي سفيان، قال: فتكلم أبو بكر؛ فأعرض عنه،

(٧٩) أكل منها تأكيداً لحلها، وقطعاً لوارد التأويلات.

(٨٠) البخاري ٤ / ٢٩ (١٨٢٤) ومسلم ٢ / ٨٥٤ (٦٠ / ١١٩٦).

(٨١) أحمد (١٣٢٩٦) ومسلم (٢٨٧٤).

ثم تكلم عمر؛ فأعرض عنه^(٨٢)، فقال سعد بن عباد: إيانا يريدُ رسولَ الله، والذي نفسي بيده، لو أمرتنا أن نُخِيضَها البحار لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بركِ الغماد لفعلنا»^(٨٣). إنهم أصحابه وكفى! اللهم ارض عنا معهم يا كريم.

ولم يكن الله سبحانه ليختار لنبيه سوى صفوة أمته وخلاصتهم ممن سيحيطون به ويحملون رسالته ويصونون شريعته، فهم صحابته الذين مات وهو راضٍ عنهم واثقٌ بهم محبٌ لهم. فلهم عند ربه مكارم خاصة بهم، لا يدانيهم لها أحدٌ من الأمة مهما علا كعب فضله، فتنظرهم بعيدة المنال، بل مستحيلة النوال؛ لأنَّ سبب

(٨٢) لأنهما من المهاجرين، وهنا قد أراد الأنصارَ لأجل بيعة العقبة، فقد كانت بيعتهم له ﷺ أن ينصروه في المدينة، لذلك أراد أن يطمئن لسماحة نفوسهم بنصره خارجها. وقد فهم المغزى النبويَّ سيّد الخزرج سعد بن عباد رضي الله عنه فقام وقال تلك المقالة العظيمة المشكورة، والله أعلم.

وحبُّ الأنصار إيمان، وبغضهم نفاق. وقد قال عمير بن وهب فيهم وفي المهاجرين لما أرسلته قريش؛ لينظر حال المسلمين ذلك اليوم: «ولكنِّي قد رأيتُ يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع». قال حسان رضي الله عنه:

وإنك لن تلقى من الناسِ معشراً
أعزَّ من الأنصارِ عزّاً وأفضلاً

(٨٣) أحمد (١٣٧٠٣) ومسلم (١٧٧٩).



فضلهم قد انقطع عما بعدهم. ومن تأمل سيرتهم؛ أيقن صدقية تفضيلهم، فلا كان ولا يكون مثلهم.

وعلى المسلمين أن يحذروا كسرَ باب الصحابة رضي الله عنهم، فالطعنُ فيهم يتعدى بالتضمّن للطعن في رسالتهم وهي الإسلام الخالص، وهذا من أهم ملاحظ الدفاع عنهم. وجُملة ما روي مما يغضّ منهم؛ لا يخرج عن أن يكون مُحْتَلَقًا، أو مزيّدًا، أو منقوصًا، مع قليلٍ صحيح ينغمر في بحر فضلهم. فمّا يؤسف له أن بعض المكثّرين من الإخباريين فيهم تحاملٌ وكذبٌ كأبي مخنف، والواقدي، وابن الكلبي، وغيرهم.

ومن تأملَ طبيعة الطاعنين واللامزين وتدرّجهم في النيل من الصحابة؛ وجد أنّ القاعدة الابتدائية المضطّردة له تبدأ بالقدح في كاتب الوحي معاوية رضي الله عنه. لذا فعرضه هو البوابة التي تدخل منها عاديّات الروافض وأشباههم. وقنطرةُ سب الصحابة هي استباحة عرض خال المؤمنين معاوية رضي الله عنه وعنهم. وتأمّل قول ابن المبارك رحمه الله: «معاويةٌ عندنا محنة، فمن رأيناه

ينظر إليه شزراً، اتّهمناه على القوم». يعني الصحابة. وقال
الريعي بن نافع الحلبي رحمه الله: «معاوية سترُ لأصحاب محمد ﷺ،
فإذا كُشف الرجل الستر؛ اجترأ على ما وراءه»^(٨٤).

(٨٤) وفوق ذلك؛ فلمعاوية رضي الله عنه مناقب خاصة، منها كتابته الوحي،
ودعاء رسول الله ﷺ له، فعند الترمذي (٣٨٤٢) وحسنه، ورجاله ثقات، عن النبي
ﷺ أنه قال لمعاوية: «اللهم اجعله هادياً مهدياً» وأخرج الإمام أحمد في مسنده (٤/
١٢٧) عن العرباض بن سارية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «اللهم علّمه الكتاب
والحساب، وقه العذاب». وأخرج البخاري (٢٩٢٤) من طريق أم حرام بنت ملحان
رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «أول جيش من أمتي يغزون البحر
قد أوجبوا» قالت أم حرام: قلت: يا رسول الله أنا فيهم؟ قال: «أنت فيهم» ثم قال النبي
ﷺ: «أول جيش من أمتي يغزون مدينة قيصر - أي القسطنطينية - مغفور لهم»
فقلت: أنا فيهم يا رسول الله؟ قال: «لا». ومعلوم أنّ معاوية هو قائد الجيش الأول،
وابنه يزيد هو قائد التالي. قال ابن جرر معنى أوجبوا: أي فعلوا فعلاً وجبت لهم به
الجنة.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا تذكروا معاوية إلا بخير». وعن علي رضي
الله عنه أنه قال بعد رجوعه من صفين: «أيها الناس؛ لا تكرهوا إمارة معاوية، فإنكم لو
فقدتموها؛ رأيتم الرؤوس تنذر عن كواهلها، كأنها الخنظل». وقيل لابن عباس: هل
لك في أمير المؤمنين معاوية؛ فإنه ما أوتر إلا بواحدة، قال: «إنه فقيه». وسأل رجل
المعافي بن عمران فقال: يا أبا مسعود؛ أين عمر بن عبد العزيز من معاوية بن أبي سفيان!
فغضب غضباً شديداً وقال: «لا يُقاس بأصحاب محمد ﷺ أحد، معاوية رضي الله عنه
كاتبه وصاحبه وصره وأمينه على وحي الله عز وجل». وعن الأعمش أنه ذكر عنده



عمر بن عبد العزيز وعدله، فقال: «فكيف لو أدركتم معاوية!» قالوا: يا أبا محمد؛ تعني في حلمه؟ قال: «لا والله، بل في عدله». وعن قتادة قال: «لو أصبحتم في مثل عمل معاوية؛ لقال أكثركم: هذا المهدي». وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «واتفق العلماء على أنّ معاوية أفضل ملوك هذه الأمة، فإنّ الأربعة قبله كانوا خلفاء نبوة، وهو أول الملوك، كان ملوكهم ملوكاً ورحمة». مجموع الفتاوى (٤ / ٤٧٨) وقال: «فلم يكن من ملوك المسلمين خيراً من معاوية، ولا كان الناس في زمان ملك من الملوك خيراً منهم في زمان معاوية». منهاج السنة النبوية (٦ / ١٤٣) وقال ابن خلدون في تاريخه (٢ / ٢٥٨): «إنّ دولة معاوية وأخباره؛ كان ينبغي أن تلحق بدول الخلفاء الراشدين وأخبارهم، فهو تأليه في الفضل والعدالة والصحة».

إنّ معاوية من سادة الصحابة رضي الله عنهم، والصحابة مريضون قد جاوزوا القنطرة، فلا بد إذن من النظر لما روي عنه بعدل وبنظرة شمولية كلية، لا مجرد صور مجتزأة من سياقاتها، أو روايات مفردة من مجمل الأحداث المؤثرة فيها. فما ورد مما شجّر في فتنة الاقتتال له محاملٌ يجدها سليم الطوية على الأصحاب كلّهم، كتأخير المبايعة للاقتصاص من القتلة دون طلب الخلافة، ثم دخول أهل الفتنة بين الفريقين. والله تعالى في ذلك حكمٌ وحكمٌ يُحمد عليها، ونحو ذلك مما أورده الأئمة من معاذير له ولأصحابه ترفعهم فوق مستوى شبهات حبّ السلطة ونحوها، إنّما هي أولويات رأوا تقديمها مع عدم علمهم بما سترتب على ذلك من مآسي، فعلومٌ أنّ ثوران وتسارع وتشابك الأحداث الكبار؛ تجعل حلیم القوم حيراناً، مع التسليم بأنّ أولى الطائفتين بالحق هو عليّ رضي الله عنه.

كذلك ما ذكر من تولية ابنه يزيد لما ظنّه بأنّ ذلك يؤول لحفظ بيضة الأمة من التصدع ووحدتها من الانشقاق، بعدما رأى أنهار الدماء من قبل، هذا وقد تتفق أو تختلف مع رؤيته، ولكن لا بد من أخذ هذه الغاية الجليلة في الاعتبار. فابنه يزيد ليس كما رواه الإخباريون واتهمه أعداؤه به من الفسق واللهو والفجور، فهو من جملة

التابعين، وله سياسته وحزمه، لولا تساهله مع قتلة السبط الشهيد الحسين رضي الله عنه، وعدم اقتصاصه منهم، فقد اكتفى بسبهم ولعنهم، ولم يثبت أنه أمر بذلك، أو فرح به، أو أهان أهل الحسين، بل أكرمهم، قال ابن الصلاح رحمه الله في فتاواه (٢١٦/١): «لم يصح عندنا أنه أمر بقتله».

ومعلوم أن الوالي تبع لمن ولّاه، مبتغى مرضاته في أفعاله إلا من خشى الله وراقبه وأخلص له، واعتبر ذلك برجلٍ من سادة التابعين هو سعيد بن المسيب رحمه الله، فقد جلدّه والي المدينة من قبل ابن الزبير ستين سوطاً، لأنّه تخلف عن البيعة، فلما علم ابن الزبير بذلك؛ عزّل واليه، وفي عهد عبد الملك جلدّه واليه من قبله ستين سوطاً أخرى وسجّنه؛ لأنّه لم يبايع بولاية العهد لابنيه الوليد وسليمان، فلما علم عبد الملك؛ اكتفى بعتب رقيق! وكان ابن المسيب يقول: «الله بيني وبين من ظلمني». الطبقات الكبرى لابن سعد (١٢٦/٥).

ورجع بنا القول ليزيد: ففعله بأهل الحرّة أشدّ من تقصيره في الاقتصاص من قتلة الحسين، ووقعة الحرّة: هي الواقعة التي كانت بالمدينة في زمن يزيد بن معاوية سنة ثلاث وستين. وسببها أن عبد الله بن حنظلة وغيره من أهل المدينة وفدوا إلى يزيد فرأوا منه ما لا يصلح، فرجعوا إلى المدينة فخلعوه وبايعوا عبد الله بن الزبير رضي الله عنه، وأرسل إليهم يزيد مسلم بن عقبة الذي سمّاه الناس بعدها مسرف بن عقبة، فأوقع بأهل المدينة وقعة عظيمة، وقتل كثيراً جداً من الناس، واختلف في أعدادهم. فقد ولّى يزيد على الجيش مسرف بن عقبة. وقد سأل مهنا بن يحيى الشامي الإمام أحمد عن يزيد، فقال: «هو فعّل بالمدينة ما فعل». قال: وما فعل؟ قال: «قتل أصحاب رسول الله ﷺ، وفعل». قال: وما فعل؟ قال: «نهبها». السنة للخلال (٤١١/١). والرواية هنا ثابتة إلى الإمام أحمد، ولكن التي لا تصحّ هي التي تومئ إلى تجويز الإمام للعن يزيد، وهي التي أخرجها أبو يعلى الفراء بإسناده إلى صالح بن أحمد بن حنبل، قال: قلت لأبي: إن قوماً ينسبون إلى تولية يزيد، فقال: «يا بني؛ وهل يتولّى يزيد أحد».



يؤمن بالله!! فقلت: ولم لا تلعنه؟ فقال: «ومتى رأيتني ألعن شيئاً، ولم لا يلعن من لعنه الله في كتابه! فقرأ قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَرَهُمْ﴾ [محمد: ٢٣]». الآداب الشرعية لابن مفلح (١/٢٧٤). قال شيخ الإسلام في المنهاج (٥٧٣/٤): «هذه الرواية التي ذكرت عن أحمد منقطعة، ليست ثابتة عنه، ثم إن الآية لا تدل على لعن المعين».

فالثابت أن الجيش قد قتل ونهب المدينة النبوية، أما القول بأنه استباحها باغتصاب النساء؛ فلم يثبت بسند صحيح، بل جُلُّ روايتها من الشيعة، أو المتهمين بالكذب، أو من الضعفاء، أو أنها رويت بانقطاع. مع أن الاستباحة في حروب العرب هي استباحة المال، ولا يلزم منها استباحة النساء. وقد فند الدكتور عبد العزيز نور الروايات التي ذكرت استباحة الجيش للمدينة، وخلص لتضعيفها في كتابه: «أثر التشيع على الروايات التاريخية في القرن الأول الهجري». وسئل الحافظ عبد الغني المقدسي عن يزيد بن معاوية فقال: «خلافته صحيحة، وقال بعض العلماء: بايعه ستون من أصحاب النبي ﷺ، منهم ابن عمر. وأما محبته: فمن أحبه فلا ينكر عليه، ومن لم يحبه فلا يلزمه ذلك، لأنه ليس من الصحابة الذين صحبوا رسول الله ﷺ، فيلزم محبتهم إكراماً لصحبته، وليس ثم أمرٌ يمتاز به عن غيره من خلفاء التابعين، كعبد الملك وبنيه، وإنما يُمنع من التعرض للوقوع فيه؛ خوفاً من التسلق إلى أبيه، وسداً لباب الفتنة». ذيل طبقات الحنابلة (٣٤/٢) ومع ذلك؛ فيبقى يزيد من جملة المسلمين، ولعلّ مسرفاً قد أسرف في القتل بدون أمره، وقد لا يكون كذلك! وبكل حال؛ فهو قائد الجيش الذي أخبر ﷺ فيهم أنهم قد أوجبوا. فالعدل أن نكل أمره إلى الله، وقد أفضى إلى ما قدم. ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَآلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٣٤].

ويروي ابن كثير في تاريخه (٨/٢٣٣): أن عبد الله بن مطيع مشى من المدينة هو وأصحابه إلى محمد بن الحنفية، فأرادوه على خلع يزيد؛ فأبى عليهم، فقال ابن مطيع: إن

يزيد يشرب الخمر، ويترك الصلاة، ويتعدى حكم الكتاب. فقال محمد: «ما رأيتُ منه ما تذكرون، قد حضرته وأقمتُ عنده؛ فرأيتُهُ مواظباً على الصلاة، متحريراً للخير، يسأل عن الفقه، ملازماً للسنّة». قالوا: ذلك كان منه تصنعاً لك، فقال: «وما الذي خاف مني أو رجا حتى يظهر إليّ الخشوع؟ ثمّ أفأطلعكم على ما تذكرون من شرب الخمر؟ فلئن كان أطلعكم على ذلك؛ فإنكم لشركاؤه، وإن لم يكن أطلعكم؛ فما يحلّ لكم أن تشهدوا بما لم تعلموا». قالوا: إنّه عندنا لحقّ، وإن لم نكن رأينا، فقال لهم: «أبى الله ذلك على أهل الشهادة، ولستُ من أمركم في شيء».

وقال شيخ الإسلام: «اقترق الناس في يزيد بن معاوية بن أبي سفيان ثلاث فرق طرفان ووسط.. والقول الثالث: أنّه كان ملكاً من ملوك المسلمين، له حسنات وسيئات، ولم يولد إلا في خلافة عثمان، ولم يكن كافراً، ولكن جرى بسببه ما جرى من مصرع الحسين وفعل ما فعل بأهل الحرّة، ولم يكن صحابياً ولا من أولياء الله الصالحين. وهذا قول عامة أهل العقل، والعلم، والسنة، والجماعة. ثم اقترقوا ثلاث فرق: فرقة لعنته، وفرقة أحبّته، وفرقة لا تسبّه ولا تحبه، وهذا هو المنصوص عن الأمام أحمد، وعليه المقتصدون من أصحابه وغيرهم من جميع المسلمين». مجموع الفتاوى (٤ / ٤٨١)

قلت: فأمر المؤمنين معاوية رضي الله عنه رأى أنّه إن مات ولم يستخلف؛ فستعود الفتنة جذعة، وهذا ما لا يطيقه قلب مؤمن، فاستشار أهل الشام، فاقترحوا أن يكون الخليفة من بعده من بني أمية، فرشّح ابنه يزيد، فأجابه أهل الشام ومصر وغيرهم، ثم أرسل إلى المدينة يستشيرها؛ فخالفه الحسين وابن الزبير وابن عمر وعبد الرحمن بن أبي بكر وابن عباس رضي الله عنهم، وكلّهم أفضل من ابنه، ولعلّه خاف الاقتراق والاختلاف؛ فألزمهم بيعته، خاصّة وأنّ مع ابنه مزية الجند وطاعة أهل الشام والكثرة والحوالة في بني كلب، فظنّ أنّ سيحسم الأمر قبل التفاقم. قال ابن خلدون رحمه الله في مقدمته (٢٦٢/١، ٢٦٣): «والذي دعا معاوية لإيثار ابنه يزيد بالعهد دون



سواه؛ إنما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس، واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد حينئذٍ من بني أمية، إذ بنو أمية يومئذٍ لا يرضون سواهم، وهم عصابة قريش، وأهل الغلب منهم، فأثره بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها، وعدل عن الفاضل إلى المفضول حرصاً على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم عند الشارع، ولا يُظن بمعاوية غير هذا، فعدالته وصحبته مانعة سوى ذلك، وحضور أكابر الصحابة لذلك وسكوته عنده؛ دليل على انتفاء الريب فيه، فليسوا ممن يأخذهم في الحق هواده، وليس معاوية ممن تأخذه العزة في قبول الحق، فإنهم كلهم أجل من ذلك».

وبالجملة؛ فمن انطلق من قلب سليم وفرح بوجود العذر؛ فسوف يجد لمعاوية أعذاراً فهو من جملة المجتهدين، ومن اجتهد بعدل؛ كان بين الأجر والأجرين. وأما من بدأ بسريرة غشٍّ ودغل؛ فسوف يجد من المرويات المرسلة ما يطعم حقه، والله الموعده. ثم يأتينا اليوم من جرة الفسقة من يحكم عليه بالنفاق والردة! ألا شلّ لسان، وقُطِعَ بنان من لحق الآل أو الأصحاب بسوء.

شاهد القول أمران: أحدهما: أن معاوية رضي الله عنه باب للصحابة، فمن رام كسره؛ استباح سبهم ولو بعد حين. والثاني: أن من نظر لسيرته بعدل وسلامة سريرة؛ فسيجد له محامل حسنة في اجتهاداته التي قد يختلف معه فيها، فباب اجتهاد أمثاله من الكبار واسع. وبخاصة في مسألي قتال علي رضي الله عنه، وتولية ابنه يزيد من بعده. ولا شك أن الخطأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة، فظالم العباد شأنها عظيم، كيف وإن كانوا من أهل الصدر الأول؟! والله ناصر كل مظلوم، ومستوف حقه من ظالمه. وكم لدماء الموتى من لاعتق.

وإن كثيراً من الفتن قد فتح بابها الإنكار على السلطان بالسلاح، والخروج عليه، ويسبق الخروج بالسلاح التهييج باللسان. وقال القاضي عياض بشأن خروج الحسين وأهل الحرة وابن الأشعث وغيرهم من السلف: «وقيل: إن هذا الخلاف كان أولاً،

ولقد كان أبو بكر رضي الله عنه يتمنى أنه كان طيراً يؤكل أو شجرة تعضد مع بشارته التامة بالجنة، وبخو ذلك قال عثمان وطلحة وعائشة وهم بالجنة مبشرون، ومن الناس من يمشي بين الناس آمناً مكر الجبار كأنما قد بُشِّرَ بالجنة! فإنما يخاف المرء من الله ويخشاه على قدر علمه به، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] والخشية خوف مع علم.

وإن خوف المبشرين بالجنة؛ إنما هو خوف الهيبة والجلال والخشية، لمعرفة عظمة الله وكبريائه وإحاطته وغناه سبحانه، وليس نخوف القانطين. والجمهور على تغليب الخوف وقت العافية والنشاط، وعلى تقديم الرجاء حال المرض، مع الموازنة بينهما. واحذر غدرات الخطايا الخفيات، فعن ثوبان رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لأعلمن أقواماً من أمتي يأتون يوم القيامة بحسناتٍ أمثال جبال تهامة بيضاً، فيجعلها الله عرّاً وجلّ هباءً

ثم حصل الإجماع على منع الخروج عليهم. والله أعلم». شرح النووي على مسلم (١٢/ ٤٦٩، ٤٧٠).



منثوراً». قال ثوبان: يا رسول الله، صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا، أَلَّا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ. قال: «أَمَّا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمَنْ جَلَدْتُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنْهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا»^(٨٥).

ومن رام المكارم اجتنب المحارم. ومن درر الإمام الشافعي رحمه الله: «أَعَزَّ الْأَشْيَاءُ ثَلَاثَةٌ: الْجُودُ مِنْ قَلَّةٍ، وَالْوَرَعُ فِي خُلُوةٍ، وَكَلِمَةُ الْحَقِّ عِنْدَ مَنْ يُرْجَى أَوْ يُخَافُ»^(٨٦).

واجعل بينك وبين المحرمات حاجزاً مِنْ تَرَكَ الْمَكْرُوهَاتِ حِمًى لَوْرَعِكَ وَحِفْظاً لِأَمَانَتِكَ، قَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «أَعْمَالُ الْبِرِّ يُطِيقُهَا الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، وَلَكِنْ لَا يَصْبِرُ عَنِ الْمَعَاصِي إِلَّا صَدِّيقٌ»^(٨٧). وقال المجاج بن يوسف: «الصبر عن محارم الله أيسر من الصبر على عذابه»^(٨٨). والقاعدة المضطردة التي لم ولن تنخرم:

(٨٥) سنن ابن ماجه (٤٢٤٥) وصححه الألباني في الصحيحة (٥٠٥).

(٨٦) جامع العلوم والحكم (١٩٥).

(٨٧) نقله ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٢٤/١٧).

(٨٨) ربيع الأبرار، للزمخشري (٢٩١/٣).

من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه. وتأمل عَقْرَ سليمان عليه السلام خيله غضباً لله إذ ألهته عن صلاة العصر؛ فعوضه الشكور الحميد عنها بالريح: ﴿تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُحَاءٌ حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦].

ولقد قال ﷺ: «كُلُّ مُيسَّرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ»^(٨٩). فاحذر أن يكون تيسيرك لعمل أهل الشقاوة! ولا تأمن مكر الله تعالى، وتذكر صفات جلاله كما تذكر صفات جماله. وتدبر قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤] فقد بغتوا بعذاب ليس له مقدمات.

يا راقداً الليلِ مسروراً بأولِهِ إِنَّ الحَوَادِثَ قد يطرُقْنَ أسحاراً
 * ومن جليلِ الوصايا: التأكيدُ على العدل. فهو قيمةٌ كَلِيَّةٌ لا يجوز تهميشها تحت أي ذريعة على الإطلاق، حتى مع أعداء الله الكفرة، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] فبالعدل قامت

(٨٩) البخاري (١٥٣/٨) ومسلم (٤٨/٨).



السموات والأرض، وما الميزان في يوم الحساب إلا لإقامته،
والله عدلٌ يأمر بالعدل.

واعلم أنّ المحبة والبغضاء أمران يصدّان عن العدل في
الأحكام، فتنبه! والله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ
كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢] ويقول: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ
شَتَانُ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا﴾ [المائدة: ٨] وأجمل العدل هو
ما استوى طرفاه مع الحبيب والبغض. ولما قيل لابن باز رحمه
الله: إنّ فلاناً يزيد كلمة «وآله» في الصلاة والسلام على النبي ﷺ
تشبهاً بالشيعة، قال: «بل هذه السنة حتى وإن فعلها مبتدع».
هذا وإنّ بين النقد والتعيير فرقٌ تشمه الروح وتلهسه الفطنة،
فتفرّق بين الناقد الناصح والمعيّر الشامت، فأحسن يا صاحبي مبدأ
انطلاقك في ميدان النقد كأنك المنقود، وانصح لله بلا توبيخ
ولا تعيير، ومن نصّح أخاه على ملائٍ فقد عيّر. قال الفضيل:

«المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعير». ومن جميل وصايا العلماء: «لا تنصح على شرط القبول».

والمؤمن يقبل النصيحة بكلّ حال، خاصة إن كانت صادقة، حتى ولو لم يُوفّق مُسديها للأسلوب اللطيف، فإن الله تعالى قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ وَجَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٦] قال ابن مسعود رضي الله عنه: «ومن ذلك أن يقال له: اتق الله، فيقول: انشغل بنفسك». وكان عمر رضي الله عنه إذا قيل له: اتق الله؛ سقطت دِرَّتُهُ - أي عصا التأديب - من يده، خوفاً من الله وفرقا.

* ومنها: الورع. ومن أمور الورع التي بين أيدينا؛ الورع عن غيبة المؤمنين، فلا تستهن بغيبة المسلمين بحجة التحذير من مناهج وأشخاص غير سلفيين - زعموا - وولّ وجهك عمّن يحتجّون بعمل ابن حنبل وسفيان، فأين الثرى من الثرى! فلقد كان للسلف علمٌ وورعٌ وعدلٌ وحكمةٌ ورحمةٌ ورفقٌ، ولو صدق هؤلاء في اتّباعهم؛



لما شقّوا أعراض المسلمين بفراهم وقالاتهم، فنزّه عقلك عن
نفايات الألسن.

وإنّ الكلام في الرجال إنّما هو للتام في علمه وورعه، أمّا حججهم
الباردة فهي حفرة لا تعفيهم من مساءلة المظالم يوم الحساب،
وحديثُ المفلس معلوم، والغيرة للدين لا تكفي مالم تُضبط
ببرهان. فألجم لسانك وقلمك عن أعراض عباد الله، فإنّ لكل
باغ مصرع، ولكل ظالم ندامة، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾
[فصلت: ٤٦].

فأصبح لا يلوم بما جنّاه من التّفريطِ إنساناً سواه
أسرّ ندامة الكُسعيّ لما رأت عيناه ما صنعت يداه
فعليك بالورع في لسانك ويدك وبطنك وفرجك وجوارحك،
ولا تحفل بما لا ينفعك في مبعثك، وأولى عنه ما تخشى مغبته،
وربّ لُعاةٍ دنيا؛ حبت رضوان الله!

ولو عرّضت عليك حسناتٌ نضيرَ مبلغ مالي، فهل ستشتريها،
أو عرّض عليك حملُ بعض أوزارك عنك مقابل مبلغ مالي،

فهل ستقبل؟! هل تعلم أنّك تأخذ ذلك من الخلق إذا انتهكوا لك حقًا؟ وأنّك تعطيهم ذلك إذا انتهكت لهم حقًا، فغداً يوم الدينونة.

وكثيرٌ من سور القرآن العظيم تُختم بمواعظ عميقة ترقق قسوة القلوب، فما ظنك بجُتَام القرآن كله وهو قول الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨١] فما أعظمه من وداع، وما أجلاها من خاتمة، وهي آخر عهدٍ نزل من السماء، وآخر وصية لي ولك من الله العظيم، فتأملها وتدبرها وتفكر فيها، فأنت المعنيُّ بها.

* ومنها: البعدُ عن الانتقائية. فلا تكن انتقائيًا فهي هوى خفيّ، وادخل في المسألة بدون رأي سابق - إن كنت ذا علم - وإلا فاتبع من تُثق في دينه وورعه وعلمه. فبعض الناس ينتقون من كلام أهل العلم المتقدّمين والمتأخرين ما يوافقهم، ويعرضون



صفحةً عما خالفهم، حتى لو كان من ذات الشيخ في ذات المسألة.

هذا ولانتقائية وجه آخر سيء - وكلاهما سيء - وهي الانتقائية من كلام الخصم ما يوافق تحقيق تهمته لا ما يدفع عنه سوءتها. وتذكر قول المصطفى ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»^(٩٠). وقوله: «فمن أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة؛ فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه»^(٩١).

* ومنها: الإصلاح. فاحرص على إصلاح ذات البين وجمع كلمة المسلمين، ولا تستصغر نفسك في ذلك، ولا تحقرن من المعروف شيئاً، وعسى أن تلقى يوماً كلمة لم تحسب لها حساباً، ينفع الله بها العباد أحقاباً، وترتفع بها عند الكريم زلفى وقرباً ورضاً، فهلم للخير هلم.

(٩٠) البخاري ١٠/١ (١٣) ومسلم ٤٩/١ (٤٥) (٧١).

(٩١) مسلم ١٨/٦ (١٨٤٤) (٤٦).

وتأمل عظمة اللسان وخطره من قوله ﷺ: «إِنَّ الْعَبْدَ لِيَتَكَلَّمَ
بِالْكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ تَعَالَى مَا يَلْقَى لَهَا بِالْأَلَاءِ يَرْفَعُهُ اللَّهُ بِهَا
دَرَجَاتٍ، وَإِنَّ الْعَبْدَ لِيَتَكَلَّمَ بِالْكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَلْقَى لَهَا
بِالْأَلَاءِ يَهْوِي بِهَا فِي جَهَنَّمَ»^(٩٢). وقف طويلاً مع قوله: «لَا يَلْقَى لَهَا
بِالْأَلَاءِ».

تَفَرُّ مِنَ الْمَجِيرِ وَتُتَّقِيهِ فَهَلَّا عَنْ جَهَنَّمَ قَدْ فَرَرْتَ
وَلَسْتَ تُطِيقُ أَهْوَنَهَا عَذَابًا وَلَوْ كُنْتَ الْحَدِيدَ بِهَا لَذَبْنَا
فَلَوْ بَكَتِ الدِّمَاءُ عَيْنَاكَ خَوْفًا لَذَنْبُكَ لَمْ أَقُلْ لَكَ قَدْ أَمِنْتَ
وَمَنْ لَكَ بِالْأَمَانِ وَأَنْتَ عَبْدٌ أُمِرْتَ فَمَا أَتَمَرْتَ وَلَا أَطَعْتَ
واحذر أن تساهم في تفريق المسلمين، وصدع وحدتهم،
وتشتيت صفهم، ولو بشطر كلمة، ولا تنس حقوق الإسلام فلها
من الله طالبٌ.

* ومنها: كُنْ أَمْرًا بِالْمَعْرُوفِ نَاهِيًا عَنِ الْمُنْكَرِ، فجَمَالُ الْعِلْمِ
وَالْعِبَادَةِ الْأَمْرِ بِتَقْوَى اللَّهِ تَعَالَى. وَكُنْ مُبْتَدَأًا بِنَفْسِكَ، مُسْتَنًا
بِنَبِيِّكَ ﷺ، وَعَلَيْكَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ الْإِنْكَارِ، وَبِالْحِلْمِ وَالرَّفْقِ أَثْنَاءَهُ،

(٩٢) البخاري ١٢٥/٨ (٦٤٧٨).



وبالصبر بعده، فمن أنكر فإنه سيؤذى في الله، فهي سبيل المرسلين
 وأتباعهم الصادقين، لهذا أمر بالله بالصبر في هذا الموطن: ﴿وَأْمُرْ
 بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ
 الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] فكن - رعاك الله - من البقية السابقين البررة:
 ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ
 الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾ [هود: ١١٦].

وقد كانوا إذا عدوا قليلاً فقد صاروا أقل من القليل
 وتزداد أهمية الدعوة إلى سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن
 المنكر ونشر العلم عند انتشار الفساد وتفشي الغفلة وغلبة المنكرات.
 وإنّ الناهي عن المنكر دافعه أمران: براءة ذمته، ورحمته بالناس،
 ﴿قَالُوا مَعَذَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٤]. قال
 العثيمين رحمه الله: «كلما أضيعت السنة؛ كان فعلها ونشرها بين
 الناس أوكد؛ لئلا تُترك وتموت»^(٩٣). وقال ابن القيم رحمه الله: «وأيُّ

دينٍ وأيّ خيرٍ فيمن يرى محارمَ الله تُنتهك، وحدوده تُضاع، ودينه يُترك، وسُنَّةُ رسول الله ﷺ يُرغب عنها، وهو باردُ القلب، ساكت اللسان، شيطانُ أحرص، كما أنَّ المتكلم بالباطل شيطانُ ناطق. وهل بليَّة الدين إلا من هؤلاء الذين إذا سلمت لهم ما كلهم ورياساتهم؛ فلا مبالاة بما جرى على الدين، وخيارهم المتحرِّضُ المتلَهِّطُ، ولو نُوزع في بعض ما فيه غضاضة عليه في جاهه أو ماله؛ بذلَّ وتبدَّل، وجدَّ واجتهد، واستعمل مراتب الإنكار الثلاثة بحسب وسعه!

وهؤلاء مع سقوطهم من عين الله ومقت الله لهم قد بلوا في الدنيا بأعظم بلية تكون وهم لا يشعرون؛ وهي موت القلوب، فإنَّ القلب كلّما كانت حياته أتمَّ؛ كان غضبه لله ورسوله أقوى، وانتصاره للدين أكمل^(٩٤). وقال ابن الجوزي رحمه الله: «يا من هو من عسكر الرسول، أيحسُن بك كلَّ يوم هزيمة! فيا أقدام الصبر

(٩٤) إعلام الموقعين (٢ / ١٧٧).



أحملي، فقد بقي القليل»^(٩٥). وسئل الحسن البصري رحمه الله: أين

تجد الراحة؟ فقال: «في سجدة بعد غفلة، وتوبة بعد ذنب».

وإن أعظم حافظ لنعم الله؛ شكره، قال تعالى في حراسة النعم

بشكرها: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعَمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ

حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣] وقال: ﴿وَمَا نُرْسِلُ

بِالْآيَاتِ إِلَّا نَحْوَيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

وأصحاء العقول هم من لا يستنزلوا نغم الجبار بكفر نعيمه.

فالشكر - كما قيل - قيد النعم الموجودة وصيد النعم المفقودة.

والنعم إذا شُكرت قُرّت، وإذا كُفرت فُرّت. وقال ابن القيم:

«الشكر هو خلاصة العبودية لله تعالى»^(٩٦). ويا صاح لا تُمُت على

غفلة، فإنّ الأمر كما قيل: جنائز الغد تتنفس الآن!

وفي عصرِ فتن الشبهات والشهوات تزداد فاقتنا للصبر، ولا صبر

إلا من عند الله: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقَّنَا مُسْلِمِينَ﴾

(٩٥) نقلها عنه ابن القيم في بدائع الفوائد (٣/٢١٤).

(٩٦) مدارج السالكين (٢/٢٨١).

[الأعراف: ١٢٦]. وأغلبُ الشبهات وليدةُ أرحامِ الشهوات. وفرضُ الوقتِ اصطُفافُ أهلِ الفضيلةِ فقد طغى أهلُ الرذيلةِ. وإنَّ كثرةَ ضَرْبِ الآلَةِ الإفساديةِ الإعلاميةِ على أصولِ وثوابِ شرعيةٍ قد بدأ يُثِرُ العلقَمَ المسمومَ في الجيلِ الجديدِ، بل وفي بعضِ الأكابرِ، فالآنَ حَمِيَ الوطيسُ وبدأ فلَّ الحديدِ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وشؤمُ ذنبِ الفردِ عليه وحده مالم يجاهر عند من لم ينكروه فيعمّمهم العذاب. أما ذنبُ الدولِ والجماعاتِ فيعمّمهم شؤمهُ، سنة الله ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢]. وليس كلَّ صمتٍ حكمةً، فبعضه عيٌّ وعجز. وانتظارُ المعونةِ من الفاسدِ فسادٌ، فما بالك بمن يولّيه الإصلاح!

أترجو بالجرادِ صلاحَ أمرٍ وقد طُبِعَ الجرادُ على الفسادِ ومدافعةُ التغريبِ تكونُ بالقيامِ لله تعالى بدعوةِ المجتمعِ وتغذيته عبر أربعة محاور: الإيمان، والاحتساب، والوعى، والعفاف.



واعلم أنّ جزاء الصبر الخالص الجنة الخالصة: ﴿سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤] وكما قيل: العمل للدين قرين الانتماء إليه.

يهون علينا أن تُصاب جُسومنا وتسلم أعراضُنا لعقولنا وعلموا أولادكم وأحبابكم القوة في كلّ أمور الدين والدنيا، فالضعف ليس من الإسلام في شيء، ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣] و«المؤمن القوي خير وأحبُّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلّ خير»^(٩٧). وجاهد شيطاناً ولدك كما تجاهد شيطانك، لا يغلبنك على فلذة كبذك فيسرق ضوء هداه.

وما نيل المطالب بالتّمي ولكن تؤخذ الدنيا غلاباً
* ومنها: الرحمة بالخلق. ومن تأمل سيرة رسول الله ﷺ، فسيروى أنّ صفة الرحمة لديه قد رسخت رسوخاً حتى كادت تملو كل صفات كماله، فأجلّ صفاته وأظهرُ سجاياه الرحمة، ويكفيه

(٩٧) مسلم ٥٦/٨ (٢٦٦٤) (٣٤) قال النووي في شرح صحيح مسلم (٢٦٦٤): معناه في كل من القوي والضعيف خير، لاشتراكهما في الإيمان.

قول ربه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:

١٠٧] فهو رحمة مهداة من الرحيم الرحمن.

فرحمته بالناس عظيمة مؤمنهم وكافرهم، كذلك هي رحمته بغير الناس من البهائم والطيور والسباع، كرحمته بجمل الأنصاري، وردّ فراخ القُبْرَة لها، وغير ذلك كثيرٌ كثير. بل حتى الجمادات قد طالتها رحمته الوارفة؛ كجذع النخل الذي ضمّه واحتضنه لما حنّ في المسجد رحمةً به فما زال يُهدّده حتى سكت بعد البكاء! إنّها رحمة مثيرة للدهشة حقًّا، فهي لا تغادره في كل أحواله بتاتًا، فله من الرحمة غاية الكم والكيف الذي يستوعبه قلب بشر.

ومن كان مستنًا به في سنّته؛ فليستنّ به في أخلاقه، فهي من سنّته، فالرحمة بالمخالفين هي من سنة سيد المرسلين ﷺ، وأهل السنة ينصرون الحق، ويرحمون الخلق، كما قاله شيخ الإسلام رحمه الله.

وهناك فرق شاسع ويون هائل بين من ينظر للمخالفين والعصاة نظر المشفق الحادب الرحيم مرید الخير والهداية لهم، وبين من



ينظر لهم شزراً بعين الغلّ والحقْد والرغبة في التشفي بعذابهم والانتقام منهم، والاكتفاء بإقامة الحجّة عليهم دون الرغبة في هدايتهم. وسَلْ نفسك: أيّهما خُلِقَ رسول الله ﷺ؟ فكن رحيماً بنفسك؛ حتى ترحمها من عذاب الله، ورحيماً بالخلق؛ حتى يرحمك الله، فالراحمون يرحمهم الرحمن، وارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء. ولربّما ناحت الروحُ بأشجانها.

يُبيكي علينا ولا نبكي على أحدٍ لنحنُ أغلظُ أكباداً من الإبل ولما انتفش أحدُ الناس بالغضب قال مخاطباً بخشونة أحد الصالحين: والله لئن أسمعني واحدة؛ لتسمعني مني عشرة، فأجابه بسكينة وبشاشة: «فأنتَ والله لئن أسمعني عشرة، لا تسمع مني واحدة». قلت: هنا اقترقت عقولُ الناس وأحلامهم وهمهم.

وإنّ كثيراً من المسلمين قد ظلّموا إسلامهم وأساءوا لديانتهم عبر الممارسات المنافية لروحه العظيمة. فيا صاحبي؛ لتكن رقيقَ الحسّ مرهفاً لمشاعر الناس، مُحبّاً لنفعهم وإسعادهم، وليكن حديثك لطيفاً يدفئ القلب بما فيه من وجدانٍ ومحبةٍ وإخلاص،

وتأمل جواب الحكيم لما سُئِلَ: من أسعدُ الناسِ؟ فأجاب: من أسعدَ الناسَ.

ولئن كان في البشر ظالم؛ ففيهم مظلوم حقيق برحمتك وشفقتك وحنانك، وكما قيل: لم يبيض رغيفُ الغني؛ حتى اسودَّ عنق الفقير، ولم تذو ساقُ اليتيم؛ حتى عبل بطن الشحيح! لك الله يا مؤمن: كُن للمساكين ملاذاً. ولقد زار وزير خارجية إحدى الدول الأفريقية قبر الداعية عبد الرحمن السميّط في الكويت قائلاً: أنا أحدُ الأيتام الذين ربّاهم. رحمه الله رحمة واسعة سابعة.

* ومنها: والدَيْكَ والدَيْكَ، برّهما بالإحسان إليهما وجميل التودّد لقلبيهما، ولتكن أنت بطيبك وبرّك أول من يطرأ على قلبيهما حين يذكران الذرية البارة الطيبة الصالحة، واعلم أنّ أكثر ما يثلج قلبيهما سعادةٌ هو صلاحك واستقامتك.

فلكل ولد: ابتهج بوالديك قبل الذكرى، فلا عطر في الدنيا يضاهي ريح الوالدة، ولا عرقٌ يسامي رأس الوالد، هكذا حدثنا الأيام.



قَبْلَ رَأْسٍ وَيدَ والديكَ كُلَّ يَوْمٍ سَاعَةً رُؤيتَكَ لهما، وادْعُ لهما
 واطلب دعاءهما، واستمرَّ على ذلك؛ وسترى أَلطافَ البرِّ تترى على
 فؤادِكَ، وتلَوَّنَ بألوانِ السَّعادةِ حياتَكَ. وَكُنْ سلوةَ خَاطِرِ والديكَ،
 وتفنَّنْ في برِّهما. قال ﷺ عن أُويسَ القرَني: «له والدَةٌ هو بها برٌّ، لو
 أقسم على الله لأبره»^(٩٨). فبرُّه بأُمِّه جعله مستجاب الدعوة.

وبرُّ الوالدين من أعظم أسباب الغفران، ففي المسند أنَّ رجلاً
 أتى النَّبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، إني أصبتُ ذنباً عظيماً، - أي
 من الكبائر - فهل لي من توبة؟ قال: «هل لك من أمٍّ؟» قال: لا،
 قال: «فهل لك من خالةٍ؟» قال: نعم، قال: «فبرِّها»^(٩٩). قلتُ:
 لأنَّ الخالة هي بقيَّة الأم.

وقال رجل لعمر: قتلتُ نفساً، - وهو أعظم ذنب بعد الشرك -
 قال: «أُمُّكَ حيَّةٌ؟» قال: لا، قال: «فأبوك؟» قال: نعم، قال:
 «فبرِّه وأحسن إليه». ثم قال عمر: «لو كانت أمُّه حيَّةً فبرِّها

(٩٨) مسلم ١٨٨/٧ (٢٥٤٢) (٢٢٣).

(٩٩) أحمد (١٣/٢) (٤٦٢٤) والترمذي (١٩٠٤) وصححه الألباني في

صحيح الترغيب والترهيب (٢ / ٣٣١) (٢٥٠٤).

وأحسنَ إليها؛ رجوتُ أنْ لا تَطْعَمَهُ النارُ أبداً». وعن ابن عباس
بمعناه أيضاً. وقال الإمام أحمد: «برُّ الوالدين كفارة للكبائر».
ألم تعلم أن برَّ والديك أحبُّ إلى الله من الجهاد، ففي الصحيحين،
عن ابن مسعود، أنه قال: «قلت للنبي ﷺ: أيُّ العملِ أحبُّ إلى
الله؟ قال: «الصَّلَاةُ على وقتِها» قلت: ثمَّ أيُّ؟ قال: «برُّ الوالدين»
قلت: ثمَّ أيُّ؟ قال: «الجهادُ»^(١٠٠). وفي حديث آخر لم يذكرِ الوالدين،
فقال العلماء لأنه ليسَ لِكُلِّ أَحَدٍ والدانِ. فاحمد الله الذي أعطاك
ما حرم منه غيرك. ألا ما أعظم حقَّ الوالدين. ويكفي أن الله تعالى
قد قرَنَ حَقَّهُما بحَقِّه: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤] وقال
رسول الله ﷺ: «من أدركَ والديه أو أحدهما ثم دخل النار من
بعد ذلك؛ فابعدهُ الله وأسحقه»^(١٠١). وعند الشيخين: أقبلَ رجلٌ إلى
رسول الله ﷺ فقال أبايعُك على الهجرة والجهاد؛ أبغني الأجرَ من

(١٠٠) البخاري ١٧/٤ (٢٧٨٢)، ومسلم ٦٢/١ (٨٥) (١٣٧).

(١٠١) أحمد ٣٤٤/٤ (١٩٢٣٦) وصححه الألباني في السلسلة (٢ / ٤٢)

(٥١٥).



الله تعالى، قال: «فهل من والديك أحدٌ حيٌّ؟» قال: نعم بل كلاهما حيٌّ. قال: «فتبتغي الأجر من الله؟» قال: نعم. قال: «فارجع إلى والديك فأحسن صحبتَهُما». الله أكبر والله الحمد. وقال: «لا يَجْزِي وَلَدٌ وَالِدَهُ إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا فَيَشْتَرِيَهُ فَيُعْتِقَهُ»^(١٠٢). وعند أحمد بسند صحيح أن رجلاً قال: إني جئت لأبائعك وتركْتُ أبويَّ يبيكان قال: «فارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما»^(١٠٣).

والعجب أنَّ لهما حقًّا حتى وإن كانا مشركين، بل ولو دعيا ولدهما للشرك، قال سبحانه: ﴿وَإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥] فكيف إن كانا مؤمنين حنيفين. يا لله ألهذا الحد وصل أمر البرِّ؟!

(١٠٢) البخاري ٧١/٤ (٣٠٠٤)، ومسلم ٣/٨ (٢٥٤٩) (٥) و(٦).

(١٠٣) المسند (٢٦ / ٣٤٤) (٨٥٩١) وأبو داود (٢٥٢٨) وصححه الألباني

في إرواء الغليل (٥ / ٢٠).

وتأمل فقه محمد بن المنكدر في قوله: «بِتْ أَغْمِزُ رَجُلِي أُمِّي، وَبَاتَ عَمِّي يُصَلِّي لَيْلَتَهُ، فَمَا سَرَّنِي لَيْلَتُهُ بَلِيلَتِي». وقيل للحسن: إني أتعلم القرآن، وإنَّ أُمِّي تنتظرني بالعشاء، قال الحسن: «عشاء مع أُمِّكَ تُقَرِّبُهُ عَيْنَهَا؛ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ حُجَّةٍ تَحْجُهَا تَطَوُّعًا»^(١٠٤).

ولن رحل أحدُ والديه: ادعُ له، واستغفر له، وصِل أصحابه، وقد مرَّ رجلٌ من الأعراب بابن عمر، فسلم عليه عبدُ الله، وحمله على حمار كان يركبه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه. فسئل فقال: إنَّ أبا هذا كان وُدًا لعمر بن الخطاب، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ أَبْرَّ الْبِرِّ؛ صَلََةُ الْوَلَدِ أَهْلَ وَدِّ أَبِيهِ بَعْدَ أَنْ يُوَلِّيَ» رواه مسلم^(١٠٥). فبرُّهما بابُ الجنة، وعقوقُهما حفرةٌ إلى النار، قال ﷺ: «ملعونٌ من عَقَّ والديه»^(١٠٦).

(١٠٤) البر والصلة، لابن الجوزي ٧٣/١

(١٠٥) مسلم ٦/٨ (٢٥٥٢) (١١).

(١٠٦) الطبراني في المعجم الأوسط (٨ / ٢٣٤) (٨٤٩٧) وصححه الألباني في

صحيح الترغيب والترهيب (٢ / ٣٣٤) (٢٤٢٠).



ولن ثقل عليه البر: كيف تطلب الجنة بزعمك وهي تحت أقدام
أمك، حملتك في بطنها تسعة أشهر كأنها تسع حجج، وكابدت عند
وضعك ما يذيب المهج، وأرضعتك من ثديها لبنًا، وأطارت
لأجلك وسنًا، وغسلت بيمينها عنك الأذى، وآثرتك على نفسها
بالغذاء، ولو خيرت بين حياتك وموتها لآثرت حياتك بأعلى
صوتها.

هذا؛ وكم عاملتها بسوء الخلق مرارًا، فدعت لك بالتوفيق سرًا
وجهرًا، فلما احتاجت عند الكبير إليك؛ جعلتها من أهون
الأشياء عليك، وقدمت عليها أهلك وأولادك في الإحسان،
وقابلت أياديها بالنسيان، وصعب لديك أمرها وهو يسير، وطال
عليك عمرها وهو قصير، وهجرتها وما لها سواك نصير. ألا تخش
أن تعاقب في دنياك بعقوق البنات والبنين، وتخزي في أخراك
بالبعد عن رب العالمين، يا هذا تذكر الوعيد ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ
أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢] ^(١٠٧).

إياك وأقلّ العقوق لوالديك، فهو الخيانة العظمى لمن كانا سبباً
في إيجادك بإذن الله. قال ابن العميد في مرض موته: «ما قتلتني
إلا جُرْعُ الغيظ التي تجرّعتها من ابني»! ألا ما أقبح العقوق،
﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: ٨٣].

لَأُمِّكَ حَقٌّ لَوْ عَلِمْتَ كَبِيرُ كَثِيرُكَ يَا هَذَا لَدَيْهِ يَسِيرُ
فَكَمْ لَيْلَةٍ بَاتَتْ يَثْقَلُكَ تَشْتَكِي لَهَا مِنْ جَوَاهِرِهَا أَنَّهُ وَزِيرُ
وَفِي الْوَضْعِ لَوْ تَدْرِي عَلَيْهَا مَشَقَّةُ فَنَنْ غُصَصٍ مِنْهَا الْفَوَادُ يَطِيرُ
فَاهُ لَذِي عَقْلٍ وَيَتَّبِعُ الْهَوَى وَآهِ لَأَعْمَى الْقَلْبُ وَهُوَ بَصِيرُ
فَدُونُكَ فَارْغَبْ فِي عِمِّمْ دُعَائِهَا فَأَنْتَ لَمَّا تَدْعُو إِلَيْهِ فَقِيرُ

لا تجعل والديك مستودعاً لأحزانك، فأخبرهما بما يسرك لا ما
سأءك، فحزنهما عليك أضعافُ أضعافِ حزنك على نفسك،
فإحساس الوالدين تجاه الولد مضاعف، بل قد ينسى الولد
مشكلته، لكنها تبقى مغروزة في ذاكرة وصدر والديه، فلا تُضَيِّقُ
صدرَيهما بهومك الخاصة، بل أظهر لهما سرورك مهما يكن
حالك، وارحمهما رحمك الله. لا تنسَ فضلهما، ولا تغفل عن
جميل برّهما. واعلم أنّ الوالد أوسط أبواب الجنة؛ فخذ أو دَع. وبرُّ



الوالدين ليس في طاعتهما فقط، بل إنّ البرّ الحقيقي هو التفنُّن في إدخال السرور عليهما بأي شيء كان.

وتذكّر أنّ غيرك قد حُرِم من نعيم لقيائهما، بموت أو غربة أو غيرها، وودّ لو اشترى بسنةٍ من عمره جلوساً معهما ساعة من ليل أو نهار. فاعرف - رعاك الله - قدر نعمة الله عليك بوالديك. وإني موصيك ببرّهما برّاً خاصّاً لا يسبقك إليه سابق ولا يلحقك فيه لاحق.

دللّهما وأظهر لهما بصدق حبّك وشوقك ولهفتك، ولتكن بهجة لقلبيهما وسروراً وسعادة وأمناً وكفاية. لا تحزنهما بالانشغال عنهما بجوال أو غيره. أشركهما في كل دعوة صالحة، بل خصّهما دونك بدعوات ملحة خالصة، ولا تنس في كل سجود أن تضرع لربك: رب ارحمهما كما ربّاني صغيراً. وثق أنّك مهما فعلت وأحببت؛ فلن تستطيع أن تصل لمستوى حبهما لك، فحب الوالد لولده هو من النوع الذي لا يقاس ولا يوزن لأنه لا حدّ له.

فَبِرَّهْمَا حَيِّينَ وَمَيِّتَيْنِ، وَاسْتَمْتَعَ بِمَا تَبَقِيَ مِنْهُمَا، فَعُودُ الْحَيَاةِ
الرُّطْبُ يَذْبُلُ وَيَنْكَسِرُ بِرَحِيلِهِمَا، وَسَيَأْتِيكَ يَوْمٌ وَلَمْ يَبْقَ مِنْ
وَالِدَيْكَ لَدَيْكَ سِوَى الذِّكْرِيَّاتِ، وَلَنْ تَعْرِفَ قَدْرَ وَالِدَيْكَ حَتَّى
يَفَارِقَانِكَ، فَافْعَلِ الْيَوْمَ مَا تَرِيدُ أَنْ تُتَذَكَّرَهُ غَدًا. وَإِذَا أُرِدْتَ أَنْ
تَعْرِفَ قَدْرَ الْوَالِدَيْنِ فَاسْأَلْ مِنْ فَقْدِهِمَا!

فَمَنْ النَّاسُ مَنْ إِذَا دَفَنْتَهُ؛ دَفَنْتَ مَعَهُ جُزْءًا غَالِيًا مِنْ فُؤَادِكَ،
لَا يَعُودُ فَتَسْعَدُ، وَلَا يَبْرَأُ فَتَعِيشَ، وَلَا يَبْلَى فَتَنْسَى، بَلْ تُحِسُّ أَنَّ
جُزْءًا مِنْ قَلْبِكَ لَمْ يَعُدْ يَخْفِقُ بِنَبْضِ الْحَيَاةِ، ذَاكَ أَنَّهُ قَدْ دُفِنَ مَعَ
حَبِيبِهِ تَحْتَ الثَّرَى. اللَّهُمَّ أَبْرِدْ لَوَاجِحَ شَوْقِنَا بِلِقْيَاهُمْ فِي جَنَّتِكَ إِلَهَ
الْحَقِّ.

وَأَيُّ حَيَاةٍ بَعْدَ أُمَّ فَقَدْتُهَا كَمَا يَفْقِدُ الْمَرْءُ الزُّلَّالَ عَلَى الظَّمَا
تَوَلَّى فَوَلَّى الصَّبْرُ عَنِّي وَعَادَنِي غَرَامٌ عَلَيْهَا شَفَّ جِسْمِي وَأَسْقَمَا
وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا ذِكْرُهُ تَبَعْتُ الْأَسَى وَطِيفُ يُوْافِينِي إِذَا الطَّرْفُ هَوَّمَا
وَكُنْتُ لِعَيْنِي قَرَّةً وَلِمُهْجَتِي سُرُورًا نَفَابَ الطَّرْفُ وَالْقَلْبُ مِنْهُمَا
فَلَوْلَا اعْتِقَادِي بِالْقَضَاءِ وَحُكْمِهِ لَقَطَعْتُ نَفْسِي لَهْفَةً وَتَدْنُمَا



* ومنها: كن باراً واصلاً لا عاقاً قاطعاً، فالعلم رحمةٌ لا تنزلُ
على قُطّاع الأرحام، والجنةُ رحمةٌ محرومٌ منها أولئك، والرحم
والأمانة مرسلتان على جنبتي الصراط، فمن قطع أو خان كُردِس،
فكن مرحوماً لا محروماً، وطالبُ علمٍ يقطعُ الأرحام؛ لا خير
فيه، والقاطعُ ملعونٌ. فعظمُ شَجَنَةِ الرحمن، فمن وصلها؛ وصله الله،
وما بالك بمن وصله الله العظيم!

إنَّ شأنَ الرَّحِمِ جِدُّ عَظِيمٍ، ولقد كان النضرُ بنُ الحارث
العبدري شديدَ العداوة للإسلام، فقتله رسول الله ﷺ بعد بدر،
فرثته ابنته قتيلة، ومما قالته:

يا راجئاً إنَّ الأثيلَ مظنةٌ منْ صُبحِ خامسةٍ وأنتَ مُوقِفُ
أُمِّمُودٍ يا خيرَ ضنٍّ كريمةٍ في قومها، والفحلُ فحلٌ مُعْرِقُ
مَا كَانَ ضَرَّكَ لَوْ مَنَنْتَ وَرَبَّمَا مَنْ الْفَقَى، وَهُوَ الْمَغِيظُ الْمُحْتَقُ
فالنضرُ أَقْرَبُ مَنْ أَسْرَتْ قَرَابَةً وَأَحَقُّهُمْ إِنْ كَانَ عِتْقُ يُعْتَقُ
ظَلَّتْ سِيُوفُ بَنِي أَبِيهِ تَنُوشُهُ لَلَّهِ أَرْحَامُ هُنَاكَ تُشَقِّقُ

فُرُوِي أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَقَّ لَهَا حَتَّى دَمَعَتْ عَيْنَاهُ، وَقَالَ:
«يَا أَبَا بَكْرٍ، لَوْ سَمِعْتُ شَعْرَهَا مَا قَتَلْتُ أَبَاهَا»^(١٠٨). أَيْ لَقَبِلَ شَفَاعَتَهَا
فِيهِ. نَعَمْ، فَلَا يَهْتَزُّ لَصَدَقِ الْمَشَاعِرُ سِوَى مُعَادِنِ الْأَحْرَارِ،
وَسَيِّدِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ.

وَتَهَيَّزَنِي ذِكْرُ الْمُرُوءَةِ وَالنَّدَى بَيْنَ الشَّمَائِلِ هَزَّةَ الْمُشْتَاقِ
هَنَّاكَ فِي دَاخِلِ النَّفْسِ الْإِنْسَانِيَةِ ثُمَّ رَغْبَةً فِي الْخُصُوصِيَّةِ،
وَتَأْمَلُ نَفْسَكَ لَوْ جَلَسْتَ فِي مَكَانٍ عَامٍّ، ثُمَّ جَلَسَ بِقُرْبِكَ شَخْصٌ
لَا تَعْرِفُهُ حَتَّى كَادَ أَنْ يَلْزِقَ بِكَ، فَمَا سَتَحَسَّ بِهِ هُوَ رَغْبَتُكَ فِي
الْإِبْتِعَادِ عَنْهُ قَلِيلًا لَتَتَنَفَّسَ الْخُصُوصِيَّةِ. وَبِمَا أَنَّ الْإِنْسَانَ لَا مَفْرَّ
لَهُ مِنْ خُلُطَةِ الْبَشَرِ وَالْإِحْتِكَالِ بِهِمْ؛ فَفَنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ يَكُونَ بَيْنَهُ
وَبَيْنَ بَعْضِهِمْ نُفْرَةً وَمَشَاحِنَةً، وَرَبَّمَا قَطِيعَةً، لِذَلِكَ شَدَّدَ اللَّهُ الْأَمْرَ

(١٠٨) الاستيعاب لابن عبد البر (٤/٥٥٨) وهي مشهورة في السير من طرق
مختلفة وبألفاظ متقاربة، وقال ابن الملقن في غاية المأمول: «لم ثبت لنا بإسنادٍ صحيح.
ومن العلماء من وجَّه هذا القول بأنَّ كلامه ﷺ هذا ليس معناه الندم، لأنه لا يقول
ولا يفعل إلَّا حقًّا، والحقُّ لا يُندَمُ على فعله، ولكن معناه: لو شَفَعْتَ هذه المرأة
عندي بهذا القول لَقَبِلْتُ شَفَاعَتَهَا وَلَا سِوَا الْإِسْتِعْطَافِ بِالشَّعْرِ، فَإِنَّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ
تَقْتَضِي إِجَازَةَ الشَّاعِرِ وَتَبْلِيغَهُ قَصْدَهُ». وانظر: شرح تنقيح الفصول (٣ / ١٥٩).



في كتابه بوصل ما أمر به أن يُوصل؛ كحفظِ حقِّ الجار وصلة
الرحم ونحو ذلك. ومن نفيس وصايا زين العابدين رحمه الله: «يا
بني لا تصحبَنَّ قاطعَ رحم؛ فإنِّي وجدته ملعوناً في كتاب الله
تعالى في ثلاثة مواضع». ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي
الْأَرْضِ وَتَقْطَعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾ [محمد: ٢٢]^(١٠٩).

(١٠٩) ذكرها أبو نعيم في حلية الأولياء (٣ / ١٨٤) فساق سنده عن أبي جعفر
الباقر محمد بن علي زين العابدين رحمه الله قال: أوصاني أبي فقال: «لا تصحبَنَّ خمسة
ولا تحادثهم ولا ترافقهم في طريق. قلت: جعلت فداك يا أبت من هؤلاء الخمسة؟
قال: لا تصحبَنَّ فاسقاً فإنه يبيعك بأكلة فما دونها، قلت: يا أبت وما دونها؟ قال:
يطمع فيها ثم لا ينالها.
قلت: يا أبت ومن الثاني؟ قال: لا تصحبَنَّ البخيل، فإنه يقطع بك في ماله أحوج
ما كنتَ إليه.
قلت: يا أبت ومن الثالث؟ قال: لا تصحبَنَّ كذاباً، فإنه بمنزلة السراب؛ يُبعد منك
القريب ويقرب منك البعيد.
قلت: يا أبت ومن الرابع؟ قال: لا تصحبَنَّ أحمقاً، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك.
قلت: يا أبت ومن الخامس؟ قال: لا تصحبَنَّ قاطعَ رحم، فإنِّي وجدته ملعوناً في
كتاب الله تعالى في ثلاثة مواضع».
قلت: وهذه من غُرر الوصايا، ولا غرو أن تخرج من الدوحة النبوية.

ولكلٍّ من كانت بينه وبين رَحِمِهِ قطيعة: تذكّر ليالي الجمع، فقد قال رسول الهدى ﷺ: «إِنَّ أَعْمَالَ بَنِي آدَمَ تُعْرَضُ كُلَّ نَحْمِيسٍ لَيْلَةَ الْجُمُعَةِ، فَلَا يَقْبَلُ عَمَلٌ قَاطِعٌ رَحِمًا»^(١١٠). لذا فانتبه ألا تكون قاطعاً؛ فتقطع! فمن وصل وُصِلَ، ومن قطع قُطِعَ، قال ﷺ: «خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْهُمْ قَامَتِ الرَّحِمُ فَأَخَذَتْ بِحَقْوِ الرَّحْمَنِ، فَقَالَ: مَهْ؟ قَالَتْ: هَذَا مَقَامُ الْعَائِدِ بِكَ مِنَ الْقَطِيعَةِ. قَالَ: أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكَ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكَ؟ قَالَتْ: بَلَى يَا رَبِّ. قَالَ. فَذَلِكَ»^(١١١). وقال ﷺ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَاطِعٌ رَحِمًا»^(١١٢). وفي الصحيحين في حديث الصراط: «وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ، فَتَقُومَانِ جَنْبَتِي الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا»^(١١٣).

(١١٠) أحمد (٢ / ٤٨٤) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب

(٢٥٣٨).

(١١١) البخاري (٤٨٣٠).

(١١٢) البخاري (٥٩٨٤) ومسلم (٦٦١٢).

(١١٣) مسلم ١٢٩/١ (١٩٥) (٣٢٩).



أخي: ألا تريدُ عمراً طويلاً ورزقاً داراً؟ إنَّ وُصْلَكَ لِرَحْمِكَ مُؤَدِّ
لِذَلِكَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي رِزْقِهِ وَيُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ؛ فَلْيَصِلْ
رَحْمَهُ»^(١١٤).

فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ أَصِلُ رَحْمِي وَهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ؟ بَلْ وَلَا
سَلَامَةَ مِنْهُمْ إِلَّا بِالْبَعْدِ عَنْهُمْ! قُلْتُ: بَلِ الْوَصْلُ يُسِيرُ وَالْأَمْرُ هَيْنٌ
بِحَمْدِ اللَّهِ، وَلَكِنْ بَشْرُطُ أَنْ تَفْهَمَ سَرَ سَهولَتِهِ، أَلَا وَهُوَ يَقِينُكَ أَنَّكَ
تُعَامَلُ مَعَ اللَّهِ لَا مَعَهُمْ، وَأَنَّكَ تَنْتَظِرُ الْأَجْرَ وَالرِّضَا مِنْهُ لَا مِنْهُمْ،
وَتَذْكُرُ حَدِيثَيْنِ عَنْ حَبِيبِكَ ﷺ: فِيهِ الْبَخَارِيُّ: «لَيْسَ الْوَاصِلُ
بِالْمُكَافِئِ، وَلَكِنَّ الْوَاصِلُ الَّذِي إِذَا قُطِعَتْ رَحْمُهُ وَصَلَّاهَا»^(١١٥). وَفِي
مُسْلِمٍ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي قَرَابَةً أَصْلَهُمْ
وَيَقْطَعُونَنِي، وَأُحْسِنُ إِلَيْهِمْ وَيُسِيئُونَ إِلَيَّ، وَأَحْلُمُ عَنْهُمْ وَيَجْهَلُونَ
عَنِّي؟ قَالَ: «لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ؛ فَكَأَنَّمَا تُسْفَهُمُ الْمَلَّ، - وَهُوَ الرَّمَادُ
الْحَارُّ - وَلَنْ يَزَالَ مَعَكَ مِنَ اللَّهِ ظَهِيرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى

(١١٤) البخاري ٧٣/٣ (٢٠٦٧) ومسلم ٨/٨ (٢٥٥٧) (٢١).

(١١٥) البخاري ٧/٨ (٥٩٩١).

ذلك»^(١١٦). فهل تريد أجمل من هذا. فيا أخي: اجعل صلة أرحامك من صلب اهتماماتك وأولوياتك، واجعل لها نفيس وقتك، والأمر يسهل بالعود. وتذكّر أنّ الجنة تريد منك مهراً من الصالحات، أم هل تريدُها مجاناً! ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأحقاف: ١٤] فيدخلون الجنة برحمة الله تعالى، ويتفاضلون في درجاتها برحمة الله تعالى ثم بأموال منها فضل أعمالهم.

ولا تخط - حرسك الله - بين أمر الدنيا والآخرة في الخصومات، فهما كان حجم الخصومة بينك وبين مسلم - ويزداد الأمر مع ذي رحم - فلا تسمح أن تصل الخصومة لدينك، فالدنيا بمن عليها لا تساوي حسنة واحدة تضيّعها من ميزانك. واعلم أنّ الصلّة من الدين، قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢١]. وإنّ من الحسنات الكبار

(١١٦) مسلم ٥/٨ (٢٥٥١) (٩).



المغفول عن مدى عظمتها في الإسلام؛ صلةُ الرحم بكل مراتب الصلة. والوصل حقَّ الرحمن، والقطيعة حظُّ الشيطان، فاختر لنفسك.

كَلَانَا غَنِيٌّ عَنْ أَخِيهِ حَيَاتُهُ وَنَحْنُ إِذَا مِتْنَا أَشَدُّ تَغَانِيَا

وقد كان السلف يتخاصمون، بل ويجلسون للخصومة بين يدي القضاء، ثم يخرجون متماسكة قلوبهم قبل أيديهم، لأنهم لا يرضون أن يصل الأمر لأديانهم. وأدركت أقومًا يخرجون من خصومتهم في المحكمة ثم يشربون القهوة عند أقربهم منزلاً، فلا هجر ولا حقد. بل ربما كان بينهم قتال وفتنة لكن صدورهم سليمة، ومن نعيم الجنة: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] فالمودة في الجنة والغل في النار.

وربما تضطر أحياناً للبعد عن مواطن تشويش جمعيتك على الله، أو تخشى على نفسك فساداً في دين أو دنيا، فحينها يتوجه شيء من الاعتزال مع عدم القطيعة، قال المحدث الفقيه ابن عبد البر رحمه الله تعالى: «والذي عندي أنَّ من خشي من مجالسته ومكالمته الضرر

في الدين أو في الدنيا، والزيادة في العداوة والبغضاء؛ فهجرانه والبعد عنه خير من قربته.. وَرُبَّ صَرْمٍ جَمِيلٍ خَيْرٌ مِنْ مَخَالِطَةِ مُؤْذِيَةٍ»^(١١٧).
وكثيرٌ من أسباب افتراق أهل السنة لا تستدعي العتب، فضلاً عن الهجر، بلّه الافتراق. ولقد اختلف الصحابة على أمور كبار، وبقيت أخوتهم لا تهزّها رياح الخلاف. وانظر كيف يختلف الكبار، فلقد كان بين خالد بن الوليد وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهما كلام، فذكر رجل خالدًا بسوء عند سعد فقال: «مه! إنّ ما بيننا لم يبلغ ديننا». فالكبار وإن اختلفوا واختصموا لدنيا؛ فهم لا يتقاطعون، بل يسلمون ويتزاورن، أما الصغار فتقطعهم نفوسهم الصغار. والقومُ إخوانٌ وشقّ في الشّيم. والله معن بن أوس إذ أنشد:

وذي رحمٍ قلّبتُ أظفارَ ضغْنِهِ بحلبي عنه وهو ليس له حلمٌ
فما زلتُ في لينٍ له وتعطفٍ عليه كما تحنو على الولدِ الأمُّ

(١١٧) الاستذكار (١٥٩/٢٦) (٣٩٠٢٤).



* ومنها: قيد علمك وأفكارك وخواطرك، فالكاتب قيد صيد الخاطر، فهي تجمع شتات الأفكار وتحفظ نادر الفوائد، فالذاكرة خؤون، والكاتب أمينة. وكثيرٌ من البشر ترد خواطريهم إضاءات فكرية عميقة وأحاسيس شاعرية جميلة، لكنها تذهب مع ريح النسيان العاتية، وخيرٌ لهم لو قيدوها بقلم.

وإنّ الكاتب كالإنسان، فالعاطفةُ روحه، والأحكام دمه، والدلائل عقله، والأخبار أعضاؤه، فعلى قدر تمامها ونقصها تكون حياته.

العلم صيدٌ والكاتبُ قيدهُ قيدٌ صيودك بالجمال الواقعة

وليكن نثرُك سلساً متدفقاً، وأسلوبُك أخاذاً طلياً، ومشاعرك طاهرةً صافية، وأفكارك قوية واضحة، ودلائلك صادقة مترابطة، حينها ستملك ناصية البيان، وتقود عنان الإقناع. ويكفيك من البيان السهل الممتنع، فلا تتقعر ولا تتوحش، بل أسهل برونق. فالفصاحة والبلاغة هما برزخُ كلامٍ جزلٍ مبین، بين السوقي والهجين والمبتذل، وبين الوحشي الغريب المتقعر.

* ومن الوصايا: عليك بمراعاة كرام الناس، واحترام أقدرهم وأسنانهم ومقاماتهم، وبخاصة إن وقعت منهم على زلةٍ غير معتادة، فمن المروءات إقالة ذوي الهيئات العثرات، واجعل نفسك مكانهم عند الزلل، ولا تكن لئيمًا لا يرى الناس شيئًا، فاللئام - كما قيل - يعيشون أوغادًا، ويموتون أوحادًا.

وَمَنْ يَتَّبِعْ جَاهِدًا كُلَّ عَثْرَةٍ يَجِدْهَا وَلَا يَسْلَمْ لَهُ الدَّهْرُ صَاحِبُ

* ومن جليل الوصايا: احرص بشدة على اختيار الرفقة الطيبة الصالحة، فإنهم من ذخائر القيامة وكنوز الحساب بإذن الله تعالى، وتأمل حال البائس في جهنم وهو يولول: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٠ - ١٠١] وتذكر حديث الشفاعة وكيف يناشد الأصحاب رب العالمين في أصحابهم، قال ﷺ في حديث الشفاعة: «فما أنتم بأشدّ مناشدة في الحقّ قد تبين لكم من المؤمنين يومئذ للجار، إذا رأوا أنهم قد نجوا في إخوانهم. فيقولون: ربنا كانوا يصومون معنا، ويصلّون ويحجّون، فيقال لهم: أخرجوا



من عرفهم»^(١١٨). فاستمسك بأصحابك الصالحين فهم نور في الدنيا
وذُخْرُ في الآخرة، وقد كان أبو الدرداء رضي الله عنه يقول: «إني
لأدعو لأربعين من إخواني في سجودي، أَسْمِيَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ».

فعليك بحسن انتقاء أصحابك من أهل الديانة والورع والشهامة
والمروءة وحب العلم والعمل والبر، الذين يعينونك إن عملت،
ويذكرونك إن غفلت، ويستغفرون لك إذا للآخرة رحلت، قال
أيوب السخيتاني: «إذا بلغني موتُ أخٍ لي، فكأنما سقط عضو مني».

لعمرك ما مال الفتى بذخيرة ولكن إخوان الثقات الذخائر
ومن خاف الله؛ لا تخف شره. ولن تعرف قيمة صديقك
حتى تُعثر أو تسقط، فالعافية تجمع الجميع، والشدائد تُمايزهم.

جزى الله الشدائد كل خير عرفتها بها عدوي من صديقي
ومن وصايا الحسن البصري رحمه الله: «تواصلوا مع أصحابكم،
فالصاحب الوفي مصباح مضيء، قد لا تدرك نوره إلا إذا أظلمت
بك الدنيا». ويحكون أن لبيداً رضي الله عنه - وهو المسلم الوحيد

(١١٨) البخاري (٥٦/٦) ومسلم (١١٤/١).

من أصحاب المُعلّقات - لم ينشد بعد إسلامه سوى هذا البيت
البديع:

ما عاتب الحرّ الكريمَ كنفسِهِ والمرءُ يصلحهُ الجليسُ الصالحُ
وليكن أصحابك أهلَ شِمةٍ ومروءةٍ وكرامةٍ ونبِلٍ وتقى، ولما ذُكر
الشَّرْفُ عند عائشة رضي الله عنها قالت: «كُلُّ شَرَفٍ دونه لؤمٌ؛
فاللؤمُ أولى به، وكلُّ لؤمٍ دونه شرفٌ؛ فالشرفُ أولى به»^(١١٩)،
وهذا من فاخر المعاني وجميل المقاصد.

واعلم أنّ الصديقَ الأحق كالطبيب الجاهل، يريد أن ينفعك
فيضرك. ولا أسوأ ممّن استودعته سرّاً فأذاعه.

واعلم أنّ أفضلَ الحسبِ شرفُ الأخلاق، ولا بدّ للكاتب أو
المقاتل من خصلتين: الشجاعة والشرف. فالأولى تحجز عنه
الجبين، والثانية تُردّه عن الجور على الضعفاء. فليكن أصحابك
كذلك. ومن دُرر شوقي:

ومن العقولِ جداولٌ وجلامدٌ ومن النفوسِ حرائرٌ وإماءٌ

(١١٩) الفاضل للمبرد (٧/١).



وصاحبُ خيارِ الناسِ واجتنب أراذلهم، ولا تغترَّ بجمالِ ظاهرٍ
قد طوى قبحَ باطن، وليكن صاحبك ممن قيل فيه: لا يضلُّ
حتى يضل النجم، ولا يهاب حتى يهاب السيل، وكان خيرَ ما
يكون: حينَ لا تظنَّ نفسٌ بنفسٍ خيراً. وجماعُ ذلك: التقيّ النقيّ
المطبوع على كريم السجايا ونبييل الأخلاق.

وأصبرُ من عودٍ وأهدى إذا سرى من النجم في داجٍ من الأرض غيبُ
وكن معتدلاً في خلطة الناس، واجعل مسافةً كافيةً بينهم وبين
مشاعرك؛ حتى لا تتحكم فيك أهويةُ العاطفة ورغائبُ الفؤاد حباً
وكرهاً، فالاعتدال مطلبٌ، واهتمامك الزائدُ بالناس قد يفقدك
في يومٍ كرامتك. والحياء زينٌ كله، ولا بن ميادة:

بنفسي وأهلي مَنْ إذا عَرَضُوا له ببعضِ الأذى لم يدرِ كيف يُجيبُ
ولم يعتذرْ عذرَ البريء ولم يزلْ له سُكْتَةٌ حتَّى يُقالَ مُريبٌ

وتوسط في مشاعرك لا تفلت زمامها، قال عمر رضي الله عنه:
«لا يكن حبُّك كلفاً، ولا بغضُك تلفاً». فسئل عنها فقال: «إذا

أَحْبَبْتَ كَلَفْتَ كَلَفَ الصَّبِيِّ، وَإِذَا أَبْغَضْتَ أَحْبَبْتَ لَصَاحِبِكَ
التلف»^(١٢٠).

وإن استبان لك سوادُ قلبٍ مَنْ ظننته أبيضاً؛ فدعه يذهب
بهدهوءٍ كيما يأخذ معه غطاءَ عينيك، وليكن سالف طيب
معشرك وأيامك الصادقة معه تُثَمِّنَ تركك له.

ومتى ما عشتَ وقتاً طيباً مع أحدٍ، ثم رأيتَ منه جفاءً وإساءةً
في حقِّك بلا مبررٍ ولا عذرٍ سوى الملal أو النسيمة؛ فلا تنسَ
حُسنَ ماضيه معك، واعلم أنَّ حُسنَ العهد من الإيمان، وهو سِمةُ
النبلاء الكرام. وأنسلَّ عنه، ثم اسحب عليه ثوب النسيان، فلو
أرادك ما قَبَلَ فيكَ المنام، ولا استروحَ في عِرضك بغيبة، فدعه
يذهب، فالدنيا أقلُّ من وقوفك ساعة تحتمله، ولتكن ذكرى
الصفاء عزاءً، ولتغفِّرْ ما تسمعه.

وَإِذَا جَفَاكَ خَلِيلٌ كُنْتَ تَأَلَّفُهُ فَاطْلُبْ سِوَاهُ فَكُلُّ النَّاسِ إِخْوَانُ
وَإِنْ نَبَتْ بِكَ أَوْطَانٌ نَشَأْتَ بِهَا فَارْحَلْ، فَكُلُّ بِلَادِ اللَّهِ أَوْطَانُ

(١٢٠) الأدب المفرد (١٣٢٢)، وصححه الألباني.



واقترَبَ مَن أحبَّ قَربَكَ مِنَ الطَّيِّبِينَ، فَإِن أَحسَسْتَ بِثِقَلِكَ
 عَلَيْهِ؛ فَابْتَعدْ عَنْهُ بِهَدوءٍ، ذَاكِرًا زَمَانَهُ بِخَيْرٍ وَسْتَرٍ، فَكَرِيمِ النَّفْسِ
 خَفِيفٌ عَلَى الرُّوحِ قُرْبُهُ، سَلِيمٌ مِنَ الْأَذَى بَعْدَهُ. وَقَلِّمَا يَخْطِئُ
 الْحَدْسُ إِنْ أَحْسَنْتَ الْإِصْغَاءَ إِلَيْهِ، وَاحْذَرِ أَنْ تَنْقَلِ مِنْ تُحِبُّ
 مِنَ الْخَوْفِ عَلَيْكَ إِلَى الْخَوْفِ مِنْكَ. وَلَا تُعْطِ أَحَدًا أَكْثَرَ مِنْ
 قَدْرِهِ فَيَطْغَى، وَلَا أَقَلَّ فَيَرْحَلُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ صِدْقَ الْمَوَدَّةِ لَيْسَ بِبَذْلِ عَذْبِ الْكَلَامِ، وَلَكِنْ
 بِصِنَاعَةِ مَوَاقِفٍ تُثَبِّتُ صَدَقَهَا. وَإِذَا رَسَخَتْ الْحُبَّةُ فِي الْقَلْبِ؛ ثَبَّتَتْ
 الْعِلَاقَةَ أَمَامَ عَوَاصِفِ الْخِلَافِ، فَالْمَوَدَّةُ الصَّادِقَةُ بِحَرِّ تَغْرُقُ فِيهِ
 كُلُّ الْأَشْيَاءِ غَيْرِ الْجَمِيلَةِ. وَلِلْقَلْبِ عَلَى الْقَلْبِ دَلِيلٌ حِينَ يَلْقَاهُ.

فَإِنْ كُنْتُ مَأْكُولًا فَكُنْ خَيْرَ آكِلٍ وَإِلَّا فَأَدْرِكْنِي وَلَمَّا أُمِرْتُ
 وَمَا أَجْمَلَ مَنْ أَنْ تُنْعَمَ عَلَى أَحَدٍ بِخُصُوصِيَّةِ التَّفَاتِيَةِ، وَكَانَ
 الرَّجُلُ إِذَا نَظَرَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؛ ظَنَّ أَنَّهُ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْهِ،
 مِنْ تَدَفَّقِ الْمَشَاعِرِ عِبْرَ النُّظَرَاتِ الْمُبْتَسِمَةِ الْحَانِيَةِ.

ولا تخجل من بوج خلا من عيب، ولا تأنف من بثٍّ يُريح
صدرَكَ إن لم تُطق احتماله، فالهروبُ من البكاء بكاءً، ويا لك
من فصيح أيها الصمتُ.

لكنّما اللّوعاتُ حينَ أوارُها تجثوا على القلبِ القويّ فيهمدُ
تَهْشُمُ الأضلاعُ من رَجْعِ الصّدَى مِنْ أَنَّةٍ مَكْلُومَةٍ تتردّدُ
يا مُقلتي ما عدتُ أقوى صابراً جودي بجرٍ زانٍ يتجدّدُ
بجرٍ خضمٌ سُخِنَتْ أُمُوجُهُ مِنْ نارِ كبدي والضلوعُ تُقدّدُ

ومن أنكى معاول هدم العلاقات: المقارنات، وهي في الأغلب
ظالمة، فالناس يظهرون أحسن ما لديهم، ويطوون المثالب فيما
بينهم.

ولا تكن ضجراً محبباً لجلد المحبين، فثمتَ عجيبةٌ إنسانية: وهي أنّ
بعض النفوس لديها ميلٌ لمحبة الإحساس بألم الظلم، فتستروح ألمَ
المظلومية، ولربّما فرحت في باطنها بظلمهم لها كيما تعتب وتحنن!
وفرقها عن «متلازمة ستوكهولم» - ويعنون بها تعاطف الضحية
مع عدوّها وظالمها -: أنها هنا بمثابة حبٍّ خفيٍّ للشعور بالمظلومية،



وهي موجودة بكثرة عند من مرُّوا بمرحلةٍ قهريٍّ واستضعافٍ، فهم
سريعو العتب بلا مبرر.

وجميلةٌ هي تلك النفوس التي لا تُتكرر المعروف، ولا تنسى خيرَ
الصاحب مهما هاجت بينهما رياحُ الخلاف، ودبت بينهما دوابُّ
الفراق. ولا بأس بعتبِ صديقٍ عند انسداد أوجه محاسن الظن،
لأنه أبقى للمودة، لكن بقدر الحاجة عند الحاجة، وبلا إلحاح،
أو تحقيق، أو تكرار، أو تجريح.

أُعاتِبُ ذا المودّة من صديقٍ إذا ما رابني منه اجتنابُ
إذا ذهب العتابُ فليس وُدٌّ ويبقى الودّ ما بقي العتابُ

ولا تبقى مع سوء الظنون للأخوة بقيّة، فإن دخل سوء الظن
أو فقدت الثقة مع الباب؛ خرجت المودّة مع النافذة، وعينُ البغضِ
عوراءٌ، وقد قيل:

إذا كان المحبُّ قليلَ حظٍّ فما حسناته إلا ذنوبُ

ولقد اختصَّ الله عز وجل بعض عبادة بخصلة جميلة نفيسة
نادرة، وهي أنهم يرون أفضل ما في الناس، ويعاملونهم بحسب
ذلك. فكن لطيفاً بشوشاً دمثاً، ولا بأس ببعض مزاح يزِيل ثِقَلَ

التكلف وزمانة الجدية، لكن لا يكن ديدناً ولا مؤذياً، والفكاهة
في غير أوانها ضربٌ من الحماسة.

إذا لم يكن صفو الوداد طبيعةً فلا خير في ودّ يجيء تكلفاً
وكن جواداً سمحاً سخياً، باذلاً للمعروف، غير منتظرٍ للشكر
والثناء، واعلم أنّ الاعتذار مع الاقتدار طرفٌ من البخل، وسادةُ
الدنيا الأسماء، وسادة الآخرة الأتقياء. وقالت العرب: الكرمُ
يُقربُ للرجل أصداده، والبخلُ يكره فيه أولاده.

وإن كثرت عيوبك في البرايا وسرك أن يكون لها غطاءٌ
تسترّ بالسخاء فكلّ عيبٍ يغطّيه كما قيل السخاءُ
واعلم أنّ الأصحاب على ثلاثة أنحاء: منهم من يُقربك من الله
بقوله وعمله وسمته؛ فاحرص عليهم حرصك على نور عينيك.
ومنهم من يُبعدك عن الله ويُقسّي قلبك ويجلب غفلتك ويطيل
أملك؛ ففرّ منهم فرارك من الطاعون، فصحةُ السوء طاعون
الأديان، وحقيقٌ بهم ضربُ غرائب النُّوق، وإبعادهم خلف
العيوق، وأغلق الباب عن الذباب.



ومنهم من صحبتهم تنفع معاشك ولا تخدش معادك، إنما
تحتاجهم لصالح دنياك، وهم لا ينفعون لآخرة ولا يُبعدون عنها
إلا إن أكثرت خلطتهم، وأولئك هم أهل البطالة ودنوا الهمة
والزهادة في معالي أمور الآخرة، وهم أكثر الناس؛ فلتكن
خلطتك بهم على قدر حاجتك، مع بذل الجهد لنفعهم في
الدارين، مع الحذر الشديد من تآكل همّتك للدار الآخرة،
فالصاحبُ صاحب، وللأخلاق مدرك. وعند الله للأتقى مزيد.
فعليك بالأصحاب الجادّين دون البطالين، واعلم أن أعظم وصية
في اختيار الأصحاب هي وصية الله تعالى إذ يقول: ﴿وَأَصْبِرْ
نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ
وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ
أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف:
٢٨]. واعلم أن كثافة الأرواح أثقل من كثافة العقول. فأبعد عن

جَنَابُكَ الْكَذَابِينَ وَرِقَاقَ الدِّيَانَةِ وَالْمَتَمَلِّقِينَ، فَأَشَدَّ مَهِيجَاتِ الْغَثِيَانِ
 التَّمَلُّقِ. وَإِيَّاكَ إِيَّاكَ وَصَحْبَةَ مَنْ يَبْعَدُكَ عَنِ اللَّهِ وَالِدَارِ الْآخِرَةِ.
 صَحْبَتُكَ إِذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غَشَاوَةٌ فَلَمَّا انْجَلَتْ قَطَّعْتُ نَفْسِي أَلُومُهَا
 وَلِيَكُنْ سَلَامُكَ لِإِخْوَانِكَ لِمَنْتَهَى اسْتِحْقَاقَهُمْ بِدُونِ نِفَاقِهِمْ،
 وَمَنْ مَدَحَكَ الْيَوْمَ بِمَا لَيْسَ فِيكَ؛ سَيَذَمُّكَ غَدًا بِمَا لَيْسَ فِيكَ،
 ذَلِكَ أَنَّ بُضَاعَةَ الْكَذِبِ وَاحِدَةٌ.

وَعَلَيْكَ بِاتِّقَاءِ أَطْيَابِ الْكَلَامِ وَأَحَاسِنِ الْحَدِيثِ، وَلِتَكُنْ
 أَطْرَافُ كَلِمَاتِكَ لِلنَّاسِ لَيِّنَةً هَنِئِيَّةً، وَاجْتَنِبْ حَادَّهَا وَخَشِنَهَا. وَثَمَّةَ
 فَرْقٍ بَيْنَ جُرْأَةِ الرَّأْيِ وَجُرْأَةِ اللَّفْظِ، تَجَنَّبِ الثَّانِيَةَ قَدْرَ اسْتَطَاعَتِكَ،
 فَتَجَنَّبُهَا هُوَ اللَّبَاقَةُ، وَلَا يَعْنِي هَذَا الْغَمُوضُ بِحَالٍ، لَكِنَّهُ لَطْفُ
 الْكَلَامِ.

وَاللَّبَاقَةُ هِيَ فَنُّ الْحَدِيثِ الْمَتَوَسِّطِ بَيْنَ الصَّرَاحَةِ وَالْمَجَامَلَةِ، فَإِنْ
 جَنَحَ الْحَدِيثُ نَحْوَ الْمَجَامَلَةِ؛ فَيُخْشَى مِنَ الْكَذِبِ، وَإِنْ بَالِغٌ فِي
 الصَّرَاحَةِ بِدُونِ لَطْفٍ مَجَامِلَةٍ؛ فَهِيَ الْوَقَاحَةُ وَالصَّفَاقَةُ. وَقَدْ قَالُوا
 وَصَدَقُوا: مَنْ كَمَلَ عَقْلُهُ حَسُنَ لَفْظُهُ.



واحفظ كلامك من خدشِ قلوب من صحبوك ومن أحبوك،
ويا صاح؛ لا تهدم القصر الذي لك في صدر صاحبك بكلمةٍ لم
تعباً بها، لكنّها عاثت في مدينة قلبه أسي وحسرة، وشظّت روحه
بين شواطئ الدهشة والحيرة والندم، لا تفعل، لا تفعل.

واحرص على حفظِ القلوب من الأذى فرجوعها بعد التنافر يصعبُ
أما قاعدة الندم الذهبية في الحياة فهي: لا تندم إلا على
معصية، أما قراراتك الدنيوية ففوضها إلى من دبرها أولاً
وقضاها، واعلم أنّ كلّ أمرٍ المؤمن خير.

وكما يُحمد الرجلُ على جميل إبداعه وإنشائه في كل أمره؛
فكذلك اختياره، فحُسْنُ الاختيار دليل على قوّة العقل وجمال
الذوق ورهافة الحس. فليس الإبداع والإنشاء شرطاً للنباهة أو
السمو العقلي، إنّما يكفيك أن تُحسن انتقاءك، فاخيارُ المرء قطعة
من عقله كما قيل، فإن أمّك الله بمنحة ذاتٍ نفير. فالانتقاء -
إنشاءً أو نقلاً - مسبارُ الذوق ورونقُ الأدب وميزانُ العقل، قال

زياد بن أبيه: «ما قرأتُ كتابَ رجلٍ قطُّ، إلا عرفتُ عقله فيه»^(١٢١).

والعقلُ جوهرةٌ فريدة، وكنزٌ مذكور، ونعمةٌ مكفورة لدى أكثر الخلق. ويقال: إنَّ الإنسانَ في العادة يموت ولم يستخدم سوى بعض عقله، فاشكر النعمةَ بحمدِ مُسديها.

وهل تساءلت يوماً: ما هو الجمال التام الكامل الذي كلُّ ما سواه عدم؟ إنَّه جمالُ الله تبارك وتعالى، فهو الجميلُ، ومن أسمائه الجميل، وما أعطي أهلُ الجنة نعيمًا كروية وجهه تبارك وتعالى. وثلاثٌ إن وفَّقتَ لهنَّ فأنت بخير: حبُّ العلم، ودوامُ العبادة، وصالحُ الأخلاق.

وليكن معدنك الأخلاقي أصيلاً، فمنَ البشرِ مَنْ معدنه كالذهب، لا يصدأ مهما تقادم عهده، ولا تزيده الخطوبُ إلا لمعاناً وجمالاً ومضاءً. وكَم نحن بحاجة في زمن الترف والعجلة إلى شيء من الوعي والتَّعقُّل، فمن يريد ألا يخسر أي شيء، سيخسر

(١٢١) أملي القالي (١/٢٧٠).



كل شيء، وقيل – وما أحسن هذا القيل –: «إذا لم يكن ما تُريدُ، فأرد ما يكون».

وحافظ على طهارة قلبك من دغلٍ سافلٍ الأخلاق، ولتعتنِ بذلك الطفل البريء بداخل صدرك، ولتُحسنِ رعايته، فإنه على الفطرة والمكارم جُبِلَ. وانتقِ لحديثك أطيبَ الكلامِ لأطيبِ القلوب الضامئة، والأسماع الظاهرة، وليكن لسانك عليها كأثثارٍ وبلٍ على يبابٍ صادي.

واعلم أنّ أفضلَ القلوب قلبٌ طاهرٌ من الغلِّ، وأفضلُ الناس من لا ينسأك لأنه يحبك في الله، وأفضلُ الأيام يومٌ يمرّ بك بلا ذنب، وأفضلُ إهداءٍ دعاءٌ يُرفع لك وأنت لا تعلم، ومن البشر من إذا ذكرته شفق قلبك شوقاً، ورُفرت روحك لهفة!

فمن النفوسِ نفوسٌ إنَّ استقبلتْ روحَكَ ملأتها انشراحاً وبِشْراً، ووجوهٌ إن تذكّرتْ قسمايتها ارتمت ذاكرةُ الجمالِ نخلي على أهدابها، وأحاديثٌ يجتني التذكار منها ما تمنّى، تلك زينة الدنيا.

وبعض الوجوه يكفيك النظر لمُحَيَّاها لتسكن إلى قربها، طيبةً
وضياءً وبِشْرًا وإيمانًا، فإذا نظرتَ إليها ذكرتَ الله عز وجل.
في وجهه شافعٌ يخوِّسُ إساءتهُ من القلوبِ وجيهٌ حيثُ ما شفعاً
ومنهم من تودُّ أن يكون سعيداً بعيداً، فإن بُليتَ بهم فاغمس
شجرَكَ وغيضَكَ في بحر جمال حلمك وكريم سجياك. وقال
علقمة بن ليبد في وصيته لابنه: «يا بني، إن نزعَكَ إلى صحبة
الرجال حاجة؛ فاصحبْ من إذا صحبته زانك، وإن خدمته صانك،
وإن أصابتك خصاصةٌ أعانك، وإن رأى منك حسنةً عدّها، وإن
بدت منك ثُلْمَةً سدّها»^(١٢٢).

وإن امرؤً أهدي إليك صنعةً من جاهه فكأنّها من ماله
* ومنها: لا تصحب شرّ الناس ذا الوجهين، فيأتيك بوجه ويدبرُ
بآخر، قال رسول الله ﷺ: «تجدون شرّ الناس ذا الوجهين، الذي
يأتي هؤلاء بوجهٍ، وهؤلاء بوجه»^(١٢٣). ولو تدبّر ذو الوجهين حاله
مع اطلاع العليم الخبير عليه؛ لاستبصر شناعة حاله، قال تعالى:

(١٢٢) الجليس الصالح الكافي، للمعافي بن زكريا (٣٢٥/١).

(١٢٣) البخاري ٢١٦/٤ (٣٤٩٣) ومسلم ١٨١/٧ (٢٥٢٦) (١٩٩).



﴿يَسْتَحْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَحْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾ [النساء: ١٠٨].

والكذب والغيبة فشل وجبن وآفة مهما تأول المتأولون، خلا ما أباحه الشرع، وتأمل وصف الصحابة بالنفاق لمن خالف وجهيه حتى عند السلطان، فعن محمد بن زيد أن ناساً قالوا لجدّه عبد الله بن عمر رضي الله عنه: إنا ندخل على سلاطيننا فنقول لهم بخلاف ما نتكلم إذا خرجنا من عندهم. قال: «كنا نعدّ هذا نفاقاً على عهد رسول الله ﷺ»^(١٢٤). والرجل حقاً هو من كان وجهه واحداً مهما تقلّبت أيامه. قال حذيفة رضي الله عنه: «إياك والتلون في دين الله، فإنّ دين الله واحد».

حرامٌ على أرمحينَا طعنٌ مُدبرٍ وتندقُّ قُدماً في الصدورِ صدورها
مُحرمةٌ أعجازُ خيلي على القنَا مُحللةٌ لِبَاتِهَا ونُحورها

(١٢٤) البخاري ٨٩/٩ (٧١٧٨).

* ومنها: اعتزالُ من تضرَّك خلطته. فاحذر مصاحبة بعض النفوس التي لا تستطيع العيش والتنفس إلا في أجواء التفرُّق والشقاق وانتشار الضغائن، فهي كدغالب المستنقعات، يغذيها الكدر، ويقتلها النقاء والصفاء، لا تصحب أولئك فالمصاحبة ذريعة المشاكلة.

ومن خالط الناس وصبر على أذاهم لنفعهم فهو أفضل وأولى، أما من خاف على دينه وفي الناس كفاية عنه فالعزلة أحتم، والعافية لا يعدلها شيء. وليس أروح من أنفاسٍ لا تخلطها معصية.

واعلم أنَّ شيطان الإنس أشدُّ فتكًا بالدين من شيطان الجن، وتأمل تقديم ذكره في الشيطنة في عداوته الأنبياء وأتباعهم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢]. ومن أطمعك دنياه ليطمع من دينك؛ فألقِ دنياه في وجهه، وانفذ بعافيتك، فدينك دينك لا تُثلنّه، ورأس مالك هو الإيمان ولتحقيقه خلقت.



وأوصى الإمام الشافعي تلميذه الربيع رحمهما الله تعالى فقال:
«مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَفْتَحَ اللَّهُ قَلْبَهُ وَيَرْزُقَهُ الْعِلْمَ؛ فَعَلِيهِ بِالْخُلُوةِ، وَقِلَّةِ
الْأَكْلِ، وَتَرْكِ مَخَالَطَةِ السُّفَهَاءِ وَبَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ الَّذِينَ لَيْسَ مَعَهُمْ
إِنْصَافٌ وَلَا أَدَبٌ»^(١٢٥).

والصاحبُ صاحبٌ إما للحق والهدى وإما للشر والردى، ومن
زعم أنه لا يتأثر بجليسه فهو مكابر أو مخدوع، فالطِّبَاعُ سَرَّاقَةٌ،
وسجايَا الأصحابِ نَزَّاعَةٌ، والنفس الإنسانية بطبعها مجبولة على
التأثر بالصحبة. ومن الأصحاب ذباب طمع فلا تتخذه بهم ولا
تحفل بقربهم.

وكان بنو عَمِّي يقولون مرحباً فلما رأوني مُعْدِماً مات مرحبٌ
والحبةُ النافعة هي ما كانت لله، وفي الله، وعلى طاعة الله، وفي
مرضاته، وما سواها للزوال، بل للوبال. فليكن ثوبك نقياً من
لوثات الهوى، وصحيفتك بيضاء بطيب عملك. وتأمل فضيلة النقاء

(١٢٥) المجموع شرح المذهب (١ / ١٣) وبستان العارفين (١ / ١٨) وكلاهما
للنووي رحمه الله.

بتأملِ حالِ أبوينَا عليهما السلام، فلها كان الأبوان نقيين؛ ذكرَ الله تعالى كلامه لهما بصيغة القُرب: ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ١٩] ولكن بعد الذنب كان بصيغة النداء، إشعاراً بنوع بُعد: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا﴾ [الأعراف: ٢٢] فالعلياء نقاء. أما مع إبليس: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: ١٣] لأنَّ الملاء الأعلى لا يليق به متكبر، بل مكانه: ﴿إِنَّكَ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣] فما تكبر على الحق إلا لصغره وصغاره، فاستحقَّ لقدر معصيته البعاد لحالك الظلم وضيق الدركات.

* ومنها: الحكمة. فكن حكيماً هادئاً لا طائشاً متسرّعاً، واحذر أمَّ الندامات: العجلة. وقد أخطأ العجول أو كاد، وأصاب المتأني أو كاد، وربَّ عجلة تُعقب ريثاً.

وإن كان صدرك يضيق عن احتمال النقد؛ فاقبض لسانك عن البيان سلفاً، فيدان الكلام واسع لمن يعقلون، وكذلك لأضدادهم.



وإن أُعجبتَ برأيك فلا تستعجل قرارك، وعليك بالتؤدة؛ فقلها
 تروى عاقلٌ فندم، وكَم من حكمةٍ ذي رأيٍ تاهت في غمّراتِ
 العجلة، فهل مرّ عليك أن اتّهمتَ أحداً وبنيتَ على ذلك أمراً،
 واخشوشنت معه موقفاً، ثم تبين ظلمك بعد الفوات؟ حقاً ما أمرٌ
 ذلك.

وإذا تشاجر في فؤادك مرّةً أمرانٍ فاعمد للأعفّ الأجل
 وإذا هممتَ بأمرٍ سوءٍ فاتنّذ وإذا هممتَ بأمرٍ خيرٍ فاعجل
 واعلم أنّ استعجالَ الحلولِ لبعضِ المشاكلِ بالتنقيبِ
 والاستدعاءِ يزيدُ تفاقمها ويضري نارهها، والزمنُ كفيلاً بحلّها
 بهدوءٍ، أو على الأقل ردّها بترابِ التقادم والنسيان.
 ولكلّ مؤلفٍ وكاتبٍ وشاعرٍ وناثرٍ وأديبٍ: اكتب ما شئتَ،
 ثم اطوهِ زمنًا حتى يختمر نضجاً، ثم راجعه وصحّحه واحذف منه
 كثيراً وأضف إليه قليلاً، ينجع المسعى بإذن المولى.

وفكّر في الموضوع وتأمله قبل البحث في موارده؛ حتى لا تجعل
 الآخرين يفكرون نيابة عنك، واقرأ الشخص قبل أن تقرأ عنه؛ حتى

لا تظلمه بمنظار غيرك. ولا تستعجل أحكامك، ففي الدنيا وفي الناس
وفي أنفسنا أشياء كما نظن أننا نفهمها تمامًا، ثم يأتي زمانٌ يعلمنا
حقيقة جهلنا المطبق بها، والله المستعان.

وفي أمورك الكبار لا تعجل باتخاذ قرارك، بل شاور الأقوياء
الأمناء، ثم استخر رب الأرض والسما، فكم من اختيار يُبنى
عليه عمرٌ ومصيرٌ، وربُّ لحظةٍ انبثق منها زمانٌ مختلف. فإذا
استبان لك طريقك، وأضاءت بصيرتك؛ فاعزم عزم الرجال
واحزم أمرك حزم الكرام، ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران:
١٥٩] ثم بادِرْ على مهلٍ، ولا تندم على أمرٍ مضيت فيه بعد
استخارتك علام الغيوب، واعلم أنَّ الخيرة قد يتأخر إدراكها،
﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا
شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:
٢١٦].

وكم رمتُ أمراً خرت لي في انصرافه وما زلت بي ميني أبر وأرحما



وإياكَ والتَّردّد، فإنّه عيبٌ في الرجل، وخورٌ في العزم، بل
افعل ما يلزمك أن تفعله، وليكن بعد ذلك ما يكون!

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكنْ ذا عزيمةٍ فإنّ فسادَ الرأي أن تَرَدّدَا
وإنّ من أقوى مخلوقات الله: همةُ الإنسان إن صاحبها عزمٌ
وثباتٌ ويقين. فلا تقل: هذا الأمرُ مستحيلٌ، بل يبقى دوماً
هناك خيار. ولما سأل الجنرال الإيطالي جراتسياني عمرَ المختار
رحمه الله: لو عفونا عنك هل تعدني أن تترك حربنا؟ فأجابه
مُقسماً: «لن أتركَ حربكم؛ حتى أطرّدكم أو أموتُ». فشنته.
ومعلومٌ من المنتصر، ففي الدنيا عمرٌ لأنّه قد صار رمزَ مُدافعةٍ
واستشهاد، وفي الآخرة: لا سواء، قتلنا في الجنة، وقتلناكم في
النار، الله مولانا ولا مولى لكم، فميزانُ النصر ليس موتُ إنسان،
فلربما يكونُ بموته حياةُ أمة، وتأمّل قصة الغلام في أصحاب
الأخدود. وقد قيل: من كنتَ تحبُّ الحياةَ لأجله؛ فلا تستعظم
الموت لأجله. فالثباتُ على الحق والإيمان هو النصر المؤكّد والفوز
الحقيقي، وتأمّل خبر جموع الشهداء المحرّقين لأجل دينهم من

أصحاب الأخدود، وكيف سماه الله الفوز الكبير، كذلك سحرة
فرعون حين أسلموا ثبتوا، فكان هذا نصرهم.

وتدبر قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً
لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۖ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ
ضِدًّا ۖ﴾ (٨٢) أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ۖ (٨٣)
فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ۖ [مريم: ٨١ - ٨٤]. فلا
تعجل، فكل شيء بحساب ومقدار.

وفي كل معركة - حسية كانت أو معنوية - يتبقى هناك خندق
أخير، يجتازه المنتصر ويدفن فيه المهزوم، فهل حصنت خندق
إيمانك من عدوك الرجيم!

واعلم أن اتباع العاطفة كثيراً ما يعقبه الندم، فاتبع علمك
وعقلك ففيهما الحكمة، أما قلبك فأخره قليلاً، فعاطفتي الشهوة
والغضب عميان، وناصح العقل خير من ناصح القلب.



وإنَّ الاستغراق في التفكير والتأمل؛ صقيعٌ عقلي، كما أنَّ ركوبَ متنِ المشاعر بلا لجام؛ حريقٌ نفسي، والحكمةُ في مزجهما بعناية ولطف. فالنفس تُملِي وتُمتنِّي، وتُزين وتُسَوِّل، وتُبدِّل وتُتَأَوِّل، والعقلُ واعظٌ ناصحٌ عليمٌ مشفقٌ حكيمٌ، والقلبُ بينهما حرونٌ متقلب، حتى يطمئن في فردوس الإيمان. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «رأسُ الحكمةِ مخافةُ الله». فمن خاف الله؛ خافهُ كلُّ عدو، واجتذبه كلُّ توفيق، واعلم أنَّ مصيرك غداً - بإذن الله - هو قرارُك اليوم.

إذا هبَّت رياحُك فاغتنمها فإنَّ لكلَّ خافقةٍ سُكُونُ
وإن دُرَّتْ نياقُك فاحتلبها فما تدري الفصيلُ لمن يكونُ
وعليك عليك بوقودِ الآخرة، واعلم أنَّ الأملَ وقودُ الصابرين،
والشوقُ وقودُ المحبين، والرجاءُ وقودُ العاملين، والخوفُ وقودُ
الهابسين. وكلُّ شيءٍ تخافه ففرّ منه سوى الله: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾
[الذاريات: ٥٠] وكلُّ شيءٍ يُحِبُّ لغيره خلا الله؛ فإنه يُحِبُّ لذاته،
وكلُّ فوزٍ زائلٌ حاشا الفوزَ بالجنة: ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ

وَأَدْخَلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ
 الْغُرُورِ [أل عمران: ١٨٥] . ومهما كثرت الحِكَمُ فلن تجد كهذه
 الثلاثية الربانية الفريدة: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ ﴿٢﴾
 وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾
 [الطلاق: ٢-٣] .

وإنَّ الموفق هو مَنْ وَرَدَ مناهل الحكمة من أفواه أهلها، وقَدَحَها
 من معادنها، وتأمَّلْ وصية علي رضي الله عنه لصاحبه كُمَيْل بن
 زياد النخعي، قال كُمَيْل: أخذ بيدي علي بن أبي طالب فأخرجني
 إلى ناحية الجبَّانة، فلما أضحَرَ تنفَّس ثم قال: «يا كُمَيْل، إنَّ هذه
 القلوب أوعية، نخيرها أوعاها، احفظ عني ما أقول لك: الناسُ
 ثلاثة: عالمُ ربَّاني، ومتعلِّمٌ على سبيل نِجاة، وهمجٌ رِعا عِ أتباعُ كلِّ
 ناعقٍ، يميلون مع كلِّ ريحٍ، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجأوا إلى
 ركنٍ وثيقٍ .



يا كميل: العلمُ خيرٌ من المال، العلمُ يحرسك، وأنتَ تحرس المال، والعلمُ يزكو على العمل، والمالُ تنقصه النفقة.
يا كميل: محبةُ العالمِ دينٌ يُدانُ بها، العلمُ يُكسِبُ العالمَ الطاعة لربه في حياته، وجميلَ الأحدثى بعد وفاته، وصنيعةَ المالِ تزولُ بزواله، والعلمُ حاكمٌ، والمالُ محكومٌ عليه.

يا كميل: مات خزانُ الأموال وهم أحياء، والعلماءُ باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة، هاه، إنَّ ههنا - وأشار إلى صدره - علماً لو أصبتُ له حَمَلَةٌ^(١٢٦). ثم قال: اللهم بلى، أصبته لقنأ غير مأمون^(١٢٧) يستعملُ آلةَ الدينِ للدنيا، ويستظهرُ بحججِ الله على أوليائه، وينعمه على معاصيه، أو مُنقاداً لأهل الحق لا بصيرة له، يقتدحُ الشك في قلبه بأول عارضٍ من شُبُهَة^(١٢٨)، اللهم لا ذا ولا ذاك، أو منهوماً باللذات سلسَ القيادِ

(١٢٦) أي أنه يتشوق أن يبت علمه في صدر طالب علمٍ يستحق أن يُبدل له العلم.

(١٢٧) أي عنده فهم بلا ورع، وذكاء بلا زكاء.

(١٢٨) أي عنده أمانة وورع، لكن بلا عقلٍ متين.

للشهوَات، أو مُغرَى بجمع الأموال والادخار وليس من دعاة الدين، أقربُ شَبْهًا بهما الأنعام السائمة.

كذلك يموتُ العلمُ بموتِ حَامِلِيهِ. ثم قال: اللهم بَلَى، لا تَحُلْ الأرضُ من قائِمٍ لله بِحُجَّةٍ، إمَّا ظاهِرٌ مشهور، وإمَّا خائِفٌ مغمور، لئلا تَبْطُلَ حُجُجُ اللَّهِ وَبَيِّنَاتُهُ، وكم وأين أولئك، أولئك هم الأَقْلَوْنَ عددًا، الأعظمون عند الله قدرًا، بهم يدفع الله عن حججه حتى يؤدوها إلى نظرائهم، ويزرعوها في قلوب أشباههم، هَجَمَ بهم العلمُ على حقيقة الأمر^(١٢٩)، فباشروا روحَ اليقين، واستسهلوا ما استوعَرَ منه المُتَرْفُونَ، وأنسُوا بما استوحش منه الجاهلون، صَحِبُوا الدنيا بأبدانٍ أرواحها معلقة بالنظر الأعلى^(١٣٠).

(١٢٩) وهو غاية طلب العلم بعد رضوان الله تعالى.

(١٣٠) كنز العمال (١٠ / ٢٦٢) (٢٩٣٩١) وإن كان في إسناده كلام، لكن معانيه حسنة جميلة. قال ابن القيم في إعلام الموقعين (٢ / ١٩٥): «وهو حديث مشهور عند أهل العلم، يُستغنى عن الإسناد لشهرته عندهم». ونقل عن أبي بكر الخطيب في مفتاح دار السعادة أثناء شرحه له (١ / ١٢٣) قوله: «هذا حديث حسن من أحسن الأحاديث معنى وأشرفها لفظًا».



* ومنها: الرفقُ في الشأن كله، وبخاصة في مسائل الدعوة إلى الله تعالى، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يَحِبُّ الرِّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ»^(١٣١). فلم يستثنِ شيئاً من محبة الله للرفق فيه، وتأمل كيف وصف الله تعالى بالرفق، وقال: «إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يَحِبُّ الرِّفْقَ، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه»^(١٣٢). وقال: «إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ»^(١٣٣). ولئن كان الحلمُ سيد الأخلاق؛ فالرفقُ تاجها، فالرفقُ الرفقُ معاشِر الدعاة إلى سبيل الله.

لقد ألان رسول الهدى ﷺ الخطاب والأسلوب إلى رأس الكفر هرقل، ووصفه بعظيم الروم، ولا زال بعضُ القوم يصف إخوته من حَمَلَةِ القرآن بالبهائم والكلاب.. سبحانك ربي!

(١٣١) البخاري ٢٠/٩ (٦٩٢٧)، ومسلم ٤/٧ (٢١٦٥) (١٠).

(١٣٢) مسلم ٢٢/٨ (٢٥٩٣) (٧٧).

(١٣٣) مسلم ٢٢/٨ (٢٥٩٤) (٧٨).

وهذا العنف شأنٌ كثيرٌ من الردود والحوارات والمناظرات في زماننا، فهي مرتعٌ خصيبٌ لسلطان الاستطالة، ووقودٌ جزلٌ للقوة الغضبية، أعادنا الله جميعاً منها إلا بحقها. فالخشونة في الخطاب على خلاف الأصل الحمديّ إلا على وجهه السائع؛ كإنكارٍ على مكابرٍ، أو زجرٍ لغالٍ، ونحو ذلك مما جاءت به الشريعة، وأولى درجات حسن الخلق؛ البشاشة.

وهو الرفيقُ يُحِبُّ أَهْلَ الرَّفْقِ بَلْ يُعْطِيهِمُ بِالرَّفْقِ فَوْقَ أَمَانٍ
ولا يعني هذا المنع من الشدة في حينها اللائق بها، فإن موسى عليه السلام الذي أمره الله تعالى بتليين الخطاب لفرعون بقوله:
﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ [طه: ٤٤] قد قال لفرعون بعدما رأى مكابرتة وعناده وغلظ كفره: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرَعُونَ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] فالشدة في موضعها هي عين الحكمة. والله تعالى حينما شرع جدال أهل الكتاب قال: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] فالظالم المعاند المستكبر منهم يُغلظ له الخطاب.



وقال الله تعالى في شأن المنافقين: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٨٨].

وبالجملة؛ فالأصل هو اللين أما الشدة فهي استثناء في موضعه، وقد تبتلى يوماً بمن تسود نظرتك إليه حتى تظنه أخبث من نقطة إبليس، فما هو إلا أن يغيب عن ناظريك زمناً ثم يعود إليك مُتَطَهِّراً بماء التوبة ونور العلم والإيمان والخلق الحسن، مُبَهِّراً لفؤادك طهراً ونوراً وصفاءً ونقاءً وطيباً وخيراً حتى يذكرك مرآة بطهر ونور الملائكة الكرام! فلا إله إلا الله الأحد الخلاق اللطيف العليم الحكيم، فالقصدُ القصدُ في حبك وثنائك، وفي بغضك وتعييبك، والله المستعان^(١٣٤).

(١٣٤) وانظر: هل انتشر الإسلام بحدث السيف؟ للمؤلف.

ولا تكن كثير المخالفة لمن حولك، فقلهما يبقى صديق مع معتاد الخلاف. وادفن كثيراً من آرائك وملاحظاتك ونقداتك غير الملحة، فأكثر الصمت نافع.

ولا بد أن تعلم أن الناس غير معنيين بتعكر مزاجك أو صفائه، لكنك معنيٌّ بما تقول وتفعل مهما كان حالك. ومن جميل وصايا السراج البلقيني رحمه الله: «الانتهاض لمجرد الاعتراض من جُملة الأمراض».

أي صاحبي: لا تكن من قوم ظنوا الصفاقة شجاعة، والوقاحة بسالة، ولّ وجهك عنهم؛ فالحياء خير كله.

ويا طالب العلم: احذر أن تتخذ العلم بغياً، فالعلم هدى ورحمة، لا عدواناً وبغياً واستطالةً بحق أو بغير حق، وما كان الرفق في شيء إلا زانه. وتذكر أنه ليس من سيما طالب العلم الناصح والداعية الصالح الرعونة والتشنج وضيق العطن والحدة والشدة في الخطاب.



وفي مبالغةٍ هادفةٍ قال محمد الغزالي رحمه الله: «إِنَّ انتشارَ الكفرِ في العالم، يحملُ نصفَ أوزاره متدينون بغضوا الناس في الدين بسوء صنيعهم وسوء كلامهم». قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «السَّمْتُ الحَسَنُ، والتَّؤَدَةُ، والاقتصاد، جزء من أربعة وعشرين جزءًا من النبوة»^(١٣٥). وعن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿سَيَمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ قِنَّ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩] قال: السَّمْتُ الحَسَنُ^(١٣٦).

وتأمل العقل الوافر للإمام الشافعي رحمه الله، إذ قال عنه يوسف الصديقي: «ما رأيتُ أعقلَ من الشافعيِّ، ناظرته يوماً في مسألةٍ، ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي، ثم قال: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة»^(١٣٧). لذا؛ فلا جرم أن حرص الإمام أحمد على مجالسته، فلها قيل له في ذلك – وكان قد أتى مكة وفيها الشافعي وسفيان بن عيينة، فأقبل على الشافعي

(١٣٥) أخرجه الترمذي وحسنه، والمخلص في الفوائد المنتقاة (١٠ / ٧ / ١)

بإسناد حسن. وانظر: صحيح الجامع (٣٠٠٧، ٣٥٨٦).

(١٣٦) السنن الكبرى للبيهقي (٢ / ٢٨٦).

(١٣٧) سير أعلام النبلاء (٨ / ٢٤٠)، وتاريخ دمشق (٥١ / ٣٠٢).

دون سفيان -: «ومن لي بمثل عقل محمد بن إدريس»؟! أي الشافعي. فالعقل الوافر زينة وبركة وغنيمة حتى لمن جاوره إن أُعطيَ حقّه وأُعمل في وجهه.

وأهمسُ لك: مَنْ عصى الله فيك؛ فلا تعصه فيه، وَمَنْ أخرجك من السنة لهواه أو لجهله؛ فلا تخرجه من السنة لأجل ذلك، بل احلم واعلم أَنَّكَ الْأَسْعَدُ بِاتِّبَاعِ نَبِيِّكَ ﷺ بِدَفْعِ السَّيِّئَةِ بِالْحَسَنَةِ. وافرح ببشارة ربك: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ٣٤﴾ وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ [فصلت: ٣٤ - ٣٥]. فالمشاعر لا تُقدَّم على الشعائر: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٢]. وكن عند اشتداد الخصومات واجتماع أسباب الشرور كالنهباني إذ يقول:

فَمَا لَيْتَ مِنَّا قَنَاءَ صَلِيَّةٍ وَلَا ذَلَّلْنَا لَلَّتِي لَيْسَ تَجْمُلُ



ولكن رَحَلْنَاهَا نَفُوسًا كَرِيمَةً تُحْمَلُ مَا لَا يُسْتَطَاعُ فَتَحْمِلُ
 وَقِينَا بِحُسْنِ الصَّبْرِ مِنَّا نَفُوسَنَا فَصَحَّتْ لَنَا الْأَعْرَاضُ وَالنَّاسُ هُزِّلَ
 * ومن الوصايا: لا تجعل مزاجك حاكماً لمنهجك، كأن تكون
 غضوباً أو عجولاً أو سيء الظن أو متشائماً.. وإلا فما فائدة العلم
 إذا لم تتخلق به وتطبع بآدابه وتلتزم بحدوده! وإنّ لدى غير قليل
 من طلبة العلم أزمة أخلاق، فيا ليت العلماء والقداوات والمربين
 يولونها عنايتهم الفائقة.

وأكثر الأخطاء التي ندمنا عليها في مسيرة حياتنا مردّها للغضب،
 وخيراً تفعلُ لنفسك ولغيرك لو تركتَ الجواب أثناء الانفعال، دَعِ
 المشاعر تبرد؛ حينها ينقشع غيمُ الغضبِ عن جوهر الصواب.
 وصدّقني: إن سكّتَ وسكنتَ وقتَ الغضبِ والانفعال؛ فستسلمُ
 من نصف مشاكلك بإذن ربك. والغاضِبُ لا عقل له، والضَّجِرُ
 لا حِلْمَ له، والخائفُ لا فِكْرَ له، والطامعُ لا صبرَ له، أي على التمام.
 * ومن التوصيات: التأكيدُ على معاملة الخلق بما ظهر منهم،
 وردّ سرائرهم إلى العليم الخبير سبحانه، فإنّ الطعن في النيات رقة

في الدين ونقص في العقل. فالسرائرُ علمها إلى علام الغيوب وحده، ودع عنك سابلة من كان ديدنهم في أحكامهم طعن نيات العباد، ومن نقص العقل اتهم النية الخفية.

وفرق بين هذا وبين الكلام في المآلات التي منها الحذرُ المشروع من ذرائع المفسدين بقوالب الإصلاح، وهذا مقصدُ السلف بكلامهم في هذا الباب. وإن بين التوسع في فتح الذرائع والتشدد في منعها برزخ انتهى إليه الموفقون.

فنيات البشر لهم وعليهم، ليست لك ولا عليك، وليس لك اتهم ضمائرهم، ولا شق صدورهم والتنقيب عن نياتهم، فليس لك من ذلك سوى ظواهرهم، ﴿أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠].

وإنما تظهر حقائق معادن البشر عند صهرها في تنور معاملة الخلق، ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا [الفرقان: ٢٠]. وكل إنسان مُبتلى بغيره



من البشر، سواء ارتفعوا عنه في الدين أو الدنيا أو اتضعوا،
فالابتلاء حاصل بالجميع على الجميع؛ ليلو الله صبرنا وإيماننا. ومن
قواعد الحياة: كن مطمئنًا فلا ألم في الدنيا يدوم، فلكلّ شدة
مدّة، وكلّ مرٍّ سيمرّ.

* ومنها: تذكّر أنّ الأصل في المسلم السلامة حتى يثبت
العكس. فالمخذول من أعملَ في عباد الله قاعدة أسوأ المحامل،
وقدّم سوء ظنونه، وركب قلائص بغيه لمراقِدِ فتنه. واعلم أنّ سوء
الظن رائجٌ في سوقهم، فاغتم عافيتك واحذرهُ، فإنّه سمٌّ للقلب
ناقع، ووباء يفتك بطهارة صدرك ونقاء روحك وصفاء نفسك
وسلامة دينك.

ولكم يعزّ عليّ رؤية بعض منتسبة السلفيّة^(١٣٨) يسيئون إليها بسوء
فهمهم من حيث أرادوا الإصابة، وبقبح أخلاقهم من حيث
أرادوا الإحسان. إنّ السلفية ليست مجرد اعتقاد بلا وعيٍ

(١٣٨) وإن كانت لدى غيرهم أكثر وأشدّ وأشرّ، ولكن لخصوصية هؤلاء خصوصًا
بالمثال.

المضمونه، بل هي سلامة اعتقادٍ يُثَرُّ طيب السلوك، وصالح الأخلاق، وحسن العبادة، ولين المعاملة.

وكثيرٌ من سوء الظن بالناس ناجمٌ عن ضعف ثقة المرء بنفسه. ويالله! كم هدم سوءُ الظنِّ من بيوتٍ، وقطَّع أواصرَ قلوبٍ، وأوحش بعد الأنس الصدور، فإننا لله وإنا إليه راجعون. ولما مرض الشافعي رحمه الله عاده بعض أصحابه فقال له: قوِّ الله ضعفك. فقال الشافعي: «لو قوِّ ضعفي لقتلني!» فقال: يا إمام، والله ما أردتُ إلا الخير، فقال: «أعلمُ أنك لو شمتني ما أردت إلا الخير». ومرَّ رحمه الله بقوم فقالوا منه، فتمثل بأبيات كثير عزة:

هنيئاً مريئاً غير داءٍ مخامرٍ لعزةٍ من أعراضنا ما استحلَّتِ
واعلم أنك إن قدّمت سوء الظن؛ فستجد أمامك الكثير من
موادّه، وإن قدّمت حُسْنَ الظن؛ فالكثير كذلك، فعاد الأمر
لنفسك، فاطبعها بما شئت.



وعجبا لمن يتتبع أخطاء عباد الله بالمناقش، ثم ينفخ فيها بسوء ظنونه حتى تكون في عينه وصدره كالجبل. يرى القذاة في عين صاحبه، ولا يرى الجذع المعترض في عينه! وإن سوء الظن إذا حضر؛ استضافته العيوب، وإن دخل حسن الظن؛ ازدانت بالعين المزايا، فكن حسن الظن دوماً مع الحذر الكامن في الرّيب، وستتجّل حينها عافيتك وتغنم بذلك سرورك. ولا تكن متدمراً، فيبقى للحياة دوماً وجه بهيج، لا يراه إلا من وثق بوجوده.

وتدبر قول الملك العلام: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢] فهنا يتجلى مفهوم الجسد الواحد، فقد حضّ على حسن الظن بالمؤمنين لافتاً أنهم إنما يظنون بأنفسهم. فالإسلام يعزز استشعار وحدة الذات مع تفرقها في الأفراد قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١] فالذات واحدة لمن كان يحب

لأخيه ما يحب لنفسه. وقد سُئِلَ أحد العلماء: من أسوأ الناس حالاً؟ فأجاب: «من لا يثق بأحدٍ لسوء ظنه، ولا يثق به أحدٌ لسوء فعله». وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لن ينتفع بعقله، حتى ينتفع بظنه».

سَأَتْرُكَ لِلظَّنِّ مَا بَعْدَهُ وَمَنْ يَكُ ذَا رِيَّةٍ يَسْتَبِينُ
وَلَا تَتَّبِعِ الظَّنَّ إِنَّ الظَّنَّ تُرِيكَ مِنَ الْأَمْرِ مَا لَمْ يَكُنْ

* ومنها: السُّتْرُ. فهو بابٌ عظيمٌ من أبواب الدين غفل عنه بعض الأخيار، فاجعل الأصلَ عندك السُّتْرَ، أما الفضحُ فليس من سيما المؤمنين إلا بشرطه. فالله تعالى سِتِيرٌ يحب السُّتْرَ، فاستر اليوم إخوانك فإنك - لا محالة - محتاجٌ لسُتْرِكَ غداً، «ومن سَتَرَ مسلماً، ستره الله في الدنيا والآخرة»^(١٣٩).

واحذر السخرية، فلا تهزأ بأخيك؛ فيعافيه الله ويبتليك، وإياك أن يصل بك المزاحُ للسخرية والأذى لعباد الله، فتدخل

(١٣٩) مسلم (٢٦٩٩).



في وعيد الجبار تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١].
واعلم أنّ دليل ضعة النفس الشماتة.

فقل للذي يُبدي الشماتة جاهلاً سيأتيك كأس أنت لا بدّ شاربه
فعليك بالستر على المسلم والنصح له ما لم يدع لضلّاله، وعليك
بحسن الخطاب في الحديث والابتداء بالمجملات والتلميحات،
وليكن أسوتك من قال الله تعالى عنه: ﴿عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ
بَعْضٍ﴾ [التحریم: ٣] وما استقصى كريم قط. والتعريض في
الخطاب سنة نبوية «ما بال أقوام»^(١٤٠)، وهو كافٍ في إيصال
المطلوب. قال ابن رجب رحمه الله: «كان السلف إذا أرادوا
نصيحة أحد وعظوه سرّاً». ولا زال بعض الطيّبين يصرّ على ذكر
الأسماء وتفاصيل أفعالهم بحجة: أنّه صريح، وهذه مغالطة ناشئة
عن جهل، وطيش دفعت به رعونة، فالسنة السنة رعاك الله.
فلا تفرح بالمعصية، وذلك بان تنشرها مغتبطاً بالعلو على خصمك
في صورة غاضب لله، وهذه من تلبس إبليس. واعلم أنّ من يعمل

(١٤٠) البخاري ١٩١/١ (٧٥٠).

ويبني فهو - في العادة - لا ينشغل بالكلام في عيوب غيره، لأنه مشغولٌ عنهم بتكميل نقصه وجبر عيبه. وكم من نقاشٍ انقطع في الدنيا سيكتمل يوم الحساب!

واحتمل - رعاك الله - أخطاء الناس في حقك، فذلك من شرفك ومروءتك ونبلك وفروسيته، قال أبو حامد: «من شكا من سوء خلقٍ غيره؛ دلّ هذا على سوء خلقه؛ فإنّ من حسن الخلق احتمال الأذى». ومما يُنسب للإمام الشافعي رحمه الله:

يُخاطبي السفیه بكلّ قبح فأكره أن أكون له جُبيّاً
يزيدُ سفاهةً فأزيدُ حِلماً كعودٍ زاده الإحراق طيباً

* ومنها: الحرص على ألا تنشر عاهاتٍ منتسبةٍ السُّنة وتُشمت بها الأعداء، فلا تكن حمالةً حطبٍ فرقة في الأمة أو نفاخة كبرٍ فتَنها، ولا تنقل جمر الشقاق ورماد الإحن في أمتك من جهة إلى أخرى، ولا تكن كالذباب ينقل الأذى بين البشر، بل كن شريفاً عفيفاً سامياً ورِعاً. واعلم أنّ كثيراً مما أمامك من أسباب العداء ليس على ظاهره المتبادر إليك، بل هناك عللٌ نفسية من



غَيْرَةٍ وَحَسَدٍ، وَأُخْرَى ثَارَاتِ شَخْصِيَّةٍ، وَثَالِثَةٌ مُخْتَرَقَةٌ مِنْ جِهَاتٍ لَا تَرِيدُ الْخَيْرَ لِأَهْلِ السَّنَةِ بَعَامَةً.. فَارْتَفِعْ وَاسْمُ بِنَفْسِكَ وَبِمِنْ حَوْلِكَ، وَاصْعِدْ عَنِ الْقَاعِ إِنَّ الْقَاعَ مَوْبُوءٌ. وَقَدْ قَالَ حَكِيمٌ: «لِيَكُنْ حَظُّ الْمُؤْمِنِ مِنْكَ ثَلَاثَ: إِنْ لَمْ تَنْفَعِهِ فَلَا تَضُرَّهُ، وَإِنْ لَمْ تُفْرَحِهِ فَلَا تَغْمَهُ، وَإِنْ لَمْ تَمْدَحْهُ فَلَا تَذُمَّ».

وَسَوَى الرُّومِ خَلْفَ ظَهْرِكَ رُومٌ فَعَلَى أَيِّ جَانِبِكَ تَمِيلُ
 * وَمِنْهَا: الْحَاسِبَةُ الصَّادِقَةُ لِلنَفْسِ. وَمِنْ ذَلِكَ الْحَرِصُ عَلَى تَتَقِيَّةٍ ثَوْبٍ إِيمَانِكَ مِنْ دَرَنِ الْمَعَاصِي، وَقَبْلَ أَنْ تُثَبَّ وَثُوبَ السَّبَاعِ عَلَى طَرِيدَةِ لِسَانِكَ مِنْ عَرْضِ أَخِيكَ؛ تَذَكَّرْ مَعَاصِيكَ وَذُنُوبَكَ الَّتِي لَوْلَا جَمِيلُ سِتْرِ اللَّهِ عَلَيْكَ، مَا رَدَّ النَّاسُ عَلَيْكَ سَلَامًا. وَمَا نَحْنُ فِي الْحَقِيقَةِ سَوَى كَائِنَاتٍ مَلِيئَةٍ بِالْعُيُوبِ، وَتَتَزَيَّنُ بِجَمِيلِ سِتْرِ السَّيِّئِ سُبْحَانَهُ.. وَ«مَنْ كَانَ مِنْكُمْ بَلَا خَطِيئَةٍ فَلْيَرْمِهَا أَوَّلًا بِحَجَرٍ»^(١٤١).

(١٤١) منسوبة لعيسى عليه السلام. يوحنا (٧/٨).

وبالجملة؛ فلا بدّ من محاسبة النفس بدقّة وحزم وبصيرة
وحكمة، وتجديد التوبة على الدوام، فالتوبة تجبّ ما قبلها،
والإسلام يهدم ما قبله. فلا بدّ للمؤمن من تجديد توبته وتعاهدها
حتى يستحقّ خَلْعَ العبدِ التائب من الربّ التّوّابِ جلّ وعلا،
﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾
[النور: ٣١]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:
٢٢٢].

ومن فقه الأسماء الحسنی: أنّ اسم التّوّابِ متضمّن لأمرين:
توفيقُ الله تعالى عبده للتوبة أولاً، ثم قبولها منه ثانياً، فله الفضل
في الأولى والآخرة وفي الأمر كله جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه،
كذلك يتضمّن اسم الغفورِ أمران: السّتر والتجاوز، كما يتضمّن
اسم الحكيمِ أمران: الحكمة والحكم.

وإنّ تلك المعصية مهما تزيّنت لك، فلا بدّ أن تأتيك ساعة
تركها تائباً أو عاجزاً، بسقم أو فقر أو عجز أو وفاة. اللهم أحسن
عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.



والنفس - فاعلم - حُرُونُ شُرُودٌ، تقوى عند المعصية وتضعف عن الطاعة، فلا بدّ لها من مجاهدة بالعلم والعقل والإرادة، بعد الاستعانة لها بمولاها الذي بيده ناصيتها، حتى إذا اطمأنت بالإيمان ساقتك هي لعلين، نسأل الله الكريم من فضله.

ومهما يكن حال إيمانك؛ لا تنس نصيبك من الليل. واعلم أنّ الاستغفار حافظٌ خير الدنيا، جلابُ خير الآخرة. وقيل للحسن: ألا يستحي أحدنا من ربه يستغفر من ذنوبه ثم يعود، ثم يستغفر ثم يعود، فقال: «ودّ الشيطانُ لو ظفر منكم بهذه». فالإيمان والاستغفار قرينان. قال شيخ الإسلام: «قوام الدين بالتوحيد والاستغفار، قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد: ٤٧]». وقال أيضاً: «التهليلُ يحو أصولَ الشرك، والاستغفار يحو فروعَه»^(١٤٢).

وهَلَّا تَأْمَلُ الْأَخْيَارُ قَوْلَ رَبِّهِمْ: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ﴾ [البقرة: ٧٤]
عن ذَنْبٍ طَالَ بِهِ الزَّمَانُ، أَوْ زَلَّةٍ صَغُرَتْ بَيْنَ ثَنَائِهَا طَاعَاتٌ، أَوْ
رُكُوبٍ تَأْوِيلُ زِينَتِهِ النَّفْسُ الْأَمَّارَةُ، أَوْ طَاعَةُ صَادِقَةٍ!

وَلَا تَحْرَمِ نَفْسَكَ - رَحِمَكَ اللَّهُ - مِنْ لَحْظَاتٍ صَفَاءٍ وَهْنِيَّاتٍ
صَدَقَ، تُرَمِّمُ مَا تَهَاوَى مِنْهَا، وَتُجَهِّزُهَا لِدَارِ قَرَارِهَا الْأَبَدِيِّ بِكُلِّ
مَا أَوْتَيْتَ مِنْ عِزِّمْ وَإِرَادَةٍ. وَحَرَّكَ قَلْبَكَ كَثِيرًا بِتَرْيِدٍ: ﴿قَالَ اللَّهُ
خَيْرٌ حَفِظْتُهَا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٦٤].

وَيَا أَخَا الْإِيمَانِ: أَنْتَ بَيْنَ ذَنْبَيْنِ: ذَنْبٍ تَذْكُرُهُ، وَذَنْبٍ قَدْ نَسِيتَهُ،
فَجَدِّدْ تَوْبَتَكَ دَوْمًا، وَأَكْثِرْ مِنَ الْاسْتِغْفَارِ بِخُشُوعٍ. قَالَ ابْنُ عَوْنٍ:
«لَا تُثِقْ بِكَثْرَةِ الْعَمَلِ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَيْقُبَلُ مِنْكَ أَمْ لَا، وَلَا
تَأْمَنُ ذُنُوبَكَ؛ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي كُفِّرَتْ عَنْكَ أَمْ لَا، إِنَّ عَمَلَكَ
مُغَيَّبٌ عَنْكَ كُلَّهُ».

وَيَا مَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ فَاثْقَلَبَ، وَحَالٌ فَاسْتَحَالَ: أَبْصِرْ ثُمَّ أَقْصِرْ
ثُمَّ أَبْشِرْ بِفَتْحِ الْبَابِ لِلتَّائِبِينَ الْمُدْلِجِينَ، فَلَجَّهُ مُحَسِّنًا ظَنَكَ بِمَنْ يَحِبُّ



التوايين، فالحق بركبهم، وكُن في معيَّتهم، ولا تستوحش فلا زال
في الصدر خير ما دام فيه نفسُ بين الحنايا يترددُ، وتذكر أيامك
ولياليك التي كنت فيها قريباً من ربك.

وأذكر أيام الحِمى ثم أنثني على كبدي من خشية أن تصدَّعا
وفرق بين الحب الصادق والحب الكامل، فكل المؤمنين يحبون
الله حباً صادقاً، ولكن الشأن في كماله، فلو كُل الحب، لاستقام
القلب تماماً.

وطهارة القلب ذاتية، عصية على التدنُّس، وثمة طهارة
مكتسبة، فاعمل كثيراً كثيراً لأجلها، فالأمر - وربِّي - يستحق!
فقد تدرك يوماً منزلة أن يحبك الله تعالى، حينها لا تسل عن كل
نعيم وبهجة وسعادة في انتظار قدومك عليه. ويا رب هل إلا
عليك المعولُّ.

وإنَّ خاصيةَ الوقت والعمر أن ما مضى منه لا يعود. لكنَّ
اللطيف سبحانه فتح لعبده باباً يستطيع أن يلج منه ليغيِّر أثر السوء
في ماضيه، إنَّه باب التوبة! ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ

الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] فمن لم يك تأبياً
فليس بمفلح.

* ومن المحاسبة النافعة؛ حراسةُ زاد الآخرة قبل الرحيل
الأخير. وقد بكى النَّخعي رحمه الله عند الموتِ وقال: «أنتظرُ
رَسُولَ رَبِّي وما أدري أَيُّشْرُنِي بِالْجَنَّةِ أَوْ النَّارِ». وقال
عبد العزيز بن أبي رواد: دخلت على المغيرة بن حكيم في مرضه
الذي مات فيه، فقلت له: أوصني. فقال: «اعمل لهذا
المضجع»! (١٤٣).

وَإِذَا حُمِلَتْ إِلَى الْقَبْرِ جَنَازَةً فَاعْلَمْ بِأَنَّكَ بَعْدَهَا مَحْمُولٌ
فِيَا صَاحِبِي عَلَيْكَ بِالْعِبَادَةِ، وَاعْلَمْ أَنَّهَا أُمْنِيَّةُ الْمَوْتَى، فَبَادِرْ قَبْلَ
أَنْ تَغَادِرَ. وَلِمَا رَأَى الْحَسَنُ جَنَازَةَ قَالَ لِمَنْ مَعَهُ: «أَرَأَيْتَكَ هَذِهِ
هَذَا الْمَحْمُولُ جَنَازَةً لَوْ عَادَ لِلدُّنْيَا فَمَا هُوَ فَاعِلٌ؟ فَأَجَابَهُ الرَّجُلُ:
لِيُطِيعَنَّ اللَّهَ حَقًّا، فَقَالَ: «فَإِذَا لَمْ يَكُنْ هُوَ، فَكُنْ أَنْتَ».
وَكُنْتَ فِي حَيَاتِكَ لِي عُظَاتٌ فَأَنْتَ الْيَوْمَ أَوْعُظُ مِنْكَ حَيًّا



وحينما ترحل للآخرة يبكي الناس على فوات حظهم منك،
والقليل من يبكيك لنفسك، فاغنم أولئك القلّة، واعمل على أن
ترحل بسلام لدار السلام بجوار السلام. ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوْا إِلَى دَارِ
السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥]
وشيع الحسن جنازةً فجلس على شفير القبر فقال: «إنّ أمراً هذا
آخره؛ لحقيق أن يُزهد في أوله، وإنّ أمراً هذا أوله؛ لحقيق أن
يُخاف آخره». وأوصى أحدُ المُحدّثين ابنه عند احتضاره بقراءة
أحاديث الرخص ليُحسن الظن بربه، «أنا عند ظن عبدي
بي»^(١٤٤).

فيا صاحبي: أوصي نفسي وإياك بالاهتمام الشديد بغذاء
الروح، فغذاء الروح أهمّ وأخطر من غذاء الجسد، والروح تطيبُ
وتخبث بحسب غذائها كالجسد، بل أشدّ.

(١٤٤) البخاري ١٤٧/٩ (٧٤٠٥) ومسلم ٩١/٨ (٢٦٧٥) (١).

وأمرُ الروح عَجِيبٌ، فحيناً يُرْفَرُ بِشَفَافِيَةٍ وَسَمٍّ وَنَقَاءٍ وَطَهْرٍ
 حَتَّى كَأَنَّمَا يَرَى الْجَنَّةَ، وَأَحْيَانَا يَتَكَثَّفُ حَتَّى يَكُونُ أَصْلَدُ مِنَ
 الصَّوَانِ، ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾
 [الإسراء: ٨٥]. والسعيدُ من ولد آدم من أَطْعَمَ رُوحَهُ الْإِيمَانَ،
 وَقَلْبَهُ وَلِسَانَهُ الذِّكْرَ وَالْقُرْآنَ، وَجَوَارِحَهُ صَالِحَ الْأَعْمَالِ. وَحِينَمَا
 اشْتَكَى أَحَدُهُمْ لِشَيْخِهِ أَنَّ فِي قَلْبِهِ ذُبَّانَ يَقْتَتِلَانِ، أَحَدُهُمَا أَيْضُ
 طَيِّبٌ وَالْآخَرُ أَسْوَدُ شَرِيرٌ، فَأَيُّهُمَا سَيَغْلِبُ؟ فَأَجَابَهُ الْفَقِيهَ الْحَكِيمُ:
 «سَيَغْلِبُ مَنْ كُنْتَ تُطْعِمُهُ مِنْهُمَا».

وَمَنْ وَجَدَ نَافِذَةً مِنْ قَلْبِهِ إِلَى رَبِّهِ فَلْيَصُنْهَا عَنْ عَادِيَاتِ
 الشَّيَاطِينِ، فَقَدْ تُغْلِقُ عَلَيْهِ حِينَ تَشْتَدُّ فَاقَتُهُ لِعَصْمَةِ رَبِّهِ، وَالْمَوْفِقُ
 مِنْ هِدَاةِ اللَّهِ. وَتَأْمَلُ أَيُّهَا الرَّاحِلُ حَدِيثَ رَسُولِ اللَّهِ وَخَلِيلِهِ
 وَكَلِيمِهِ ﷺ الَّذِي قَالَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثَةِ أَيَّامٍ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا
 وَهُوَ يَحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(١٤٥). تَأْمَلْهُ مَلِيًّا، فَفِيهِ مِنْ ذَخَائِرِ
 انْشِرَاحِ الصَّدْرِ وَبُحُورِ إِحْسَانِ الظَّنِّ بِاللَّهِ مَا لَا يَحْصَى، فَهِيَ وَصِيَّةُ

(١٤٥) مسلم ١٦٥/٨ (٢٨٧٧) (٨٢).



المشفق المحبّ الراحل إلى مَنْ لم يأت الخير إلّا منه تبارك وتعالى. فليست لنا أعمالٌ تؤهّلنا لدخول الجنة، لكن لنا ربٌّ يستحقُّ أن نحسن الظن به بكل إحسان الظن، وهو عند ظنّ عبده به فليظن به ما شاء. فحسنُ الظن بالله هو مستودع السعادة، وإكسير التوفيق، وينبوع الانشراح. ومن اطمأنت نفسه بالقرب من ربها الآن؛ اطمئنت عند رحيلها إليه، ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۖ﴾ [الفجر: ٢٧-٢٨].

ولتنبه - يا محب - لمسألةٍ في غاية الأهمية، وهي مسألة الحرص البالغ على زيادة منسوب الإيمان في القلب. فالإيمان ينقص - تلقائياً - مع مضي الوقت، فليس مستواه ثابتاً، ولو كان كذلك لاقتربنا من أحوال الملائكة، فإن غلبت القبضة النفخة، فعاجلها بزاد. فإن لم يرفع المؤمن منسوب الإيمان في قلبه بتوالي الطاعات كيفاً وكماً، فإنه يُخشى على الفؤاد أن يُمسي جافاً بلقعا. والمرض يسبق الوفاة! وأعظم الخيبة ظنُّ المُبتلى في دينه أنه مُعافى، ﴿لَسَوْأُ

اللَّهِ فَأَنسَهُمْ أَنفُسَهُمْ) [الحشر: ١٩] ومن رحمته تنبيه قلوبهم بالمصائب: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾ [الأنعام: ٤٢] ولكن الغافل لا عقل له، والخائب لا سمع له، والمخذول مخذول! وبعضُ الناس يظنُّ أنَّ المعصية المباشرة هي ما ينقص الإيمان فقط، وهذا خطأ ترتب عليه زهد بعض الصالحين في رفع مستوى إيمانهم عبر قنواته المعلومة المشروعة، وهي الطاعات تلو الطاعات، أي المراقبة في ثغور الفرائض والنوافل من قراءة وصلاة ودعاء وذكر وتفكر وصدقة وبر وصلة وحسن خلق وغير ذلك.. كما قال جلّ في علاه: ﴿وَيَزِدَادُ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا﴾ [المدثر: ٣١].

وقد صار لسان حال بعض الأخيار: بما أني لم أقع في كبيرة، ولم أصرّ على صغيرة؛ فإيماني جيّد وحالي مطمئن! وكأنّه لم يعلم أنّ الغفلة تأكل هذا المخزون الإيماني في القلب. بل إنّ الانجباب على الشهوات المباحة، وكثرة ملاستها؛ هو مما يُخلّقُ الإيمان في



القلب ويُنقص منسوبه، فضلاً عن المعاصي، فضلاً عن الموبقات. ولولا ذلك لصاغت الملائكة في الطرقات. وهذه سنة ربانية جعلها الحكيم سبحانه من موارد ابتلاء عباده. قال عمر بن مرّة: قدم وفدٌ من أهل اليمن على أبي بكر رضي الله تعالى عنه، فقرأ عليهم القرآن فبكوا، فقال أبو بكر: «هكذا كنّا حتى قست القلوب». وكان يقول: «طوبى لمن مات في نأاة الإسلام»^(١٤٦). أي: بدء الإسلام، وقلة عدده وعدده، وطراوة الدين، وصفوة القلوب من كدر الدنيا، لما كان أهل قلة مستضعفين.

والله تعالى قد عاتب الصحابة في نحو هذا فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنْ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]. وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أنه لم يكن بين إسلامهم ونزول هذه الآية المعاتبة إلا أربع سنين^(١٤٧)!

(١٤٦) الفردوس بمأثور الخطاب، للدليي ٤٤٨/٢

(١٤٧) الدر المشور (٥٨/٨).

فعلى الناصح لنفسه أن يراعي ذلك المخزون من الإيمان في قلبه، وأن يستمر ويداوم على تغذيته باستمرار، فهو كالحزان الذي ينزف الماء من أسفل، ولا حيلة في إغلاقه. فتردد النفس في الصدر في هذه الدار هو ذلك الخرق اليسير في أسفله، فإن صاحبه توسع في مباح، أو ركون لمكروه، أو طول غفلة عن ذكر، أو ملابسة خطيئة؛ فتلك خروق أخرى في جدار خزان الإيمان الكبير، وعلى قدر خطرهما يكون نزفه. فخروق الخطايا يمكن سدّها بالتوبة الصادقة النصوح، أما ذلك الخرق الأول اليسير فلا حيلة في سدّه بسبب ثقل الطين، وجذب الغريزة، وتحتم مخالطة المادة، وسنة الحياة الدنيا. ولكن الحيلة تكمن في تعويض ما ذهب بمنسوب جديد من الإيمان، ومواردهُ بحمد ربنا في تناول كلّ مؤمن مهما كان حاله. وعلى قدر كيفية وكمية إحسان الطاعة إخلاصاً واتباعاً؛ يكون المنسوب أغزر وأصفى وأضوأ. والشأن فيمن يملأ ذلك المخزون حتى يفيض على أركان روحه، فتطمئن



للقاء ربها، وتنتظر موعوده وأجله الذي أخفى وقته، وحتم وقوعه.

وتأمل الحكم السامية في فريضة الصلوات الخمس بديمومة لا يقطعها إلا الرحيل الأخير، وما فيها من ذكرٍ وابتهاٍ وتعلق، كذلك الخشوع في الصلاة، وما يترتب عليه من نعيم أنفُسٍ لا يصفها إلا من ذاقها من الموفقين. والوصية برطوبة اللسان بالذكر كناية عن استدامة الذكر به.

وتفكر في مشروعية الاعتكاف كل سنة، وما يصاحبه من جمعية قلب على الله. وتأمل قول نبينا ﷺ: «إِنَّ الْإِيمَانَ لِيَخْلُقَ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلُقُ الثَّوبُ، فَاسْأَلُوا اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجِدَّ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ»^(١٤٨).

ومما يلحق بذلك - وهو من أعظم تسويلات الشيطان - مَنْ سَوَّفَ التَّوْبَةَ إِلَى أَنْ تَقْوَى إِرَادَتُهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ، حَتَّى يَسْتَطِيعَ كَبْحَ جَمَاحِ نَفْسِهِ الْأَمَّارَةِ. وَهَذَا مُسْتَبَعْدٌ حَصُولُهُ فِي الْعَادَةِ إِلَّا

(١٤٨) المنتظم، لابن الجوزي (٢٤٨/١٢).

بمحض اللطف الربّاني، لأنّ العزيمة القوية للتوبة، والحلمة الصادقة للأوبة؛ لا تكون في القلب إلا بعد وصول الإيمان لدرجة عالية من شأنها حرق شهوة العصيان. فحال هذا كمن يستوقد من الماء، أو يمتح من النار.

أَطَلَّتْ عَلَيْنَا مِنْكَ يَوْمًا سَحَابَةٌ أَضَاءَتْ لَنَا بَرَقًا وَأَبْطَأَ رَشَاشُهَا
فَلَا غَيْمُهَا يَجْلُوُ فَيَأْسُ طَامِعٌ وَلَا غَيْثُهَا يَهْمِي فَيُرْوَى عِطَاشُهَا
وَمِنَ النَّاسِ مَنْ قُوَّتُهُ فِي جَسَدِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قُوَّتُهُ فِي عَقْلِهِ،
وْخَيْرُهُمْ مَنْ كَانَتْ قُوَّتُهُ فِي قَلْبِهِ. وَهَآكَ وَصِيَّةٌ تَخْتَصِرُ لَكَ وَصَايَا
السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى لِابْنِ الْفَرَخِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «لِيَكُنْ هَمُّكَ مَجْمُوعًا
فِيمَا يُرْضِي رَبَّكَ، فَإِنْ اعْتَرَضَ عَلَيْكَ شَيْءٌ فُتِبَ مِنْ وَقْتِكَ»^(١٤٩).
وَقَالَ ابْنُ الْجُوزِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «كُلَّ يَوْمٍ تَحْضُرُ مَجْلِسَ الذِّكْرِ يَقِفُ
لَكَ الشَّيْطَانُ عَلَى الْبَابِ، فَإِذَا خَرَجْتَ كَمَا دَخَلْتَ قَالَ: فَدَيْتُ
مَنْ لَا يُفْلِحُ. فَيَا صَبِيانَ التَّوْبَةِ: هَلَالِكُمْ خَفِيُّ، فَدُومُوا عَلَى الْمَعَامَلَةِ
يَصِرْ بَدْرًا، وَلَا بَدْ مِنْ ﴿وَلَتَبْلُوتُنَّ﴾ [محمد: ٣١]. دَبَّرَ دِينَكَ كَمَا

(١٤٩) رواه الحاكم (١ / ٤) ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في صحيح الجامع.



تدبر دنياك، ولو علق بثوبك مسمارٌ رجعت إلى وراء لتخلصه،
 فهذا مسمار الإصرار قد نشب بقلبك، فلو عدت إلى الندم
 خطوتين لتخلصت. يا مقهوراً بغلبة النفس، صل عليها بسوط
 العزم، فإنها إن عرفت جدك؛ استأسرت لك. امنعها ملذوذ
 مباحها؛ ليقع الصلح على ترك الحرام»^(١٥٠). وما أجمل ما كتبه
 الحسن البصري إلى عمر بن عبد العزيز رحمهما الله: «كأنك بالدنيا
 ولم تكن، وبالأخرة ولم تزل، والسلام»^(١٥١). نعم، فذكر الموت
 كفيل بإذابة أعتى الشهوات. وقال ابن مطيع:

أنا الذي فررتُ يوم الحرّة والشيخ لا يفرُّ إلا مرّة
 ولا بأس بالكرة بعد الفرّة

وبالجملة: فالإصرارُ على الذنب - أيّا كان - ينقص مخزون الإيمان
 الذي بدوره يُذيب الشهوة ويحرقها، لذا فإن ضُعْفَت عن الإقلاع
 الفوري عن الخطيئة، فلا تترك التزوّد من الطاعات ونوافل

(١٥٠) المدهش، لابن الجوزي (١٦١/١).

(١٥١) حلية الأولياء (٢٧٣/٧).

القربات بحجة أنك لست أهلاً لها لإصرارك، بل أمدّ الخزان بالإيمانيات، حتى وإن كنت مقيماً على الذنب، ومن أعظم الإيمانيات؛ تلاوة القرآن بتدبر، والضراعة بين يدي مولاك، حتى إذا وصل منسوب الإيمان لمستوى معين؛ كفأك مؤنة ضعفك، وأحرق شهوة العصيان، واندقت رقبة شيطان الإصرار، فدخلت التوبة من أوسع أبوابها. وإذا ضايقتك الخطايا فزاحمها بالطاعات. وقلوبُ الصديقين إذا سمعت القرآن طربت إلى الآخرة. ومن وصفهم لتلاوة الفضيل رحمه الله: «كانت قراءة الفضيل: حزينة، بطيئة، شبيهة، مُترسلة، كأنما يخاطب إنساناً». اللهم تب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

وليس بمستغرب وقوعُ المؤمن في الذنب، فكلنا بشر ذوو خطأ وضعف ومعصية، إنما الغرابة في الإصرار بعد الانتباه، أو المكابرة بعد التذكير، أو التساهل بعد التلوّث بنجس الخطيئة. وتذكر أنّ كلّ قبيح يتلاشى مع التعود، حتى قبح المعصية!



قال ابن الجوزي: «كان لبَّانٌ يخلط اللبن بالماء، فجاء سيلٌ فذهب بالغنم، فجعل يبكي ويقول: اجتمعت تلك القطرات فصارت سيلاً. ولسان الجزاء يناديه: يداك أوتكا وفوك نفخ»^(١٥٢).
والمؤمن الموفق إذا لدغت قلبه الخطيئة وصعب عليه الخروج من حفرتها؛ فإنه يقنت لربه ويلج ويضرع، ويجعل هذا الأمر بين عينيه صباحاً ومساءً؛ حتى ينجو ويفلح. وسئل سعيد بن جبير: من أعبد الناس؟ فقال: «رجلٌ اقترب ذنباً، فكلما ذكر ذنبه، احتقر عمله وانكسر لربه»^(١٥٣). والتوبة هي العلاج الناجع لمن يخشى ذكر الموت: قال أحد السلف: «كل شيء يخاف الموت لأجله فاتركه، ثم لا يضررك متى مت»^(١٥٤).

وحين يتأمل المرء تفاصيل عيوبه بكافة اتجاهاتها؛ فإنه يصاب بالإحباط والفشل، لكن ثمة شيء خارج عنه ينشر صدره

(١٥٢) المدهش (٣٨٩/١).

(١٥٣) البداية والنهاية (٩٩/٩).

(١٥٤) مصنف ابن أبي شيبة (٣٥٢٦٦).

جداً عند ذكره؛ إنه حسنُ ظنه بالله تعالى. ودليلُ حسنِ الظنِّ
صدقُ المحاسبة وإحسانُ العبادة.

ويا صاحبي، أقم الصلاة في قلبك قبل جوارحك، ثم اهتف
لنفسك عند كل بريق طمع أو شهوة حرام أو غائلة غضب:
﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ ابْتَغِ الصَّلَاةَ تَنْهَى
عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾
[العنكبوت: ٤٥] • ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّهَا وَمَا
عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ [القصص: ٦٠] •

وإن كثيراً من تصرفات الناس مرتبطة مباشرة بمدى حضور
ويقين الإيمان بالبعث بعد الموت، لذلك من المفيد جداً
استحضاره دوماً، قال ربنا: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ
تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣] • ومهرُ الجنةِ العملُ الصالح لا الأمانى
المُفلسة، قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾ [النساء: ١٢٣] وقال:



﴿وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمْ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾

[الأعراف: ١٤٣]. فقال: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ ولم يقل: تتمنون.

* وإياك والوسواس، فلا تستهن ببداياته، بل ازجرها بالاستعاذة، واخطمها بالانشغال عنه وعدم التفكير به، واستعن بحسن الظن بالله تعالى. قال الغزالي رحمه الله: «سبب الوسوسة: خَبَلٌ بالعقلِ أو جهْلٌ بالشرع»^(١٥٥). وإنَّ من أعظم ما تُدفع به الوسواس في الإيمانيات: العلمُ بأنَّ الله تعالى قد تجاوز لهذه الأمة ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم.

ومن أعظم ما تدفع به وسواس العبادات: العلمُ بأنَّ الطهارات والعبادات مبنية على غلبة الظن لا اليقين بحمد الله تعالى. وكثرة ذكر الله مجربة في دفع جميع أنواع الوسواس.

واعلم أنَّ الشكوى من الوسواس عامة، والعجيج فيه معتاد، وسبب الوسواس: الحرص على عدم الإخلال بالواجب، ولا ينبغي التماذي في خطرات الوسواس، فهي تبدأ بالطهارة، وتُثنى

بالصلاة، وثُلُثٌ بالإلهيات إن لم تعالج باكرًا، وهو - كما أسلفت لك - يقع في العبادات، وفي الاعتقادات. أما الباب الأعظم لدفعه في العبادات بعد الاستعانة بالله تعالى علمنا برحمة الله تعالى ضعفنا، فاكتمى منّا فيها بغلبة الظن وليس اليقين، وهذا يغلق أبواب الوسواس العبادية عامة.

أما في الاعتقادات فعلاجه بإذن الله تعالى: إحسان الظن بالله تعالى بتدبر قوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله عفا عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلم»^(١٥٦).

فالأصل أن الخطب في خواطر الوسواس يسير، فلا تفرع منه فتقع فيه، كما قال الأول: «فرّ من الموت وفي الموت وقّع». وبالله التوفيق.

وإن من التنطّع والغلو: الوسوسةُ بتتبع احتمالات دخول مانع على حلّ الطيبات، لذلك قيل: «لا يُتصوّر يقينٌ تامٌّ بالحلّ؛ إلا

(١٥٦) رواه البخاري (٥٢٦٩)، ومسلم (١٢٧).



لمطرٍ نازلٍ من السماء متلقًى باليد»! ولا تكن - حرسك الله - ممن يُسيطر عليهم هاجسُ الشك في تعامل الناس معه، فأكثر من يشقى بالشكوكي هم أقرب الناس إليه وأحبهم إلى قلبه، فالشكّ داءٌ عضال، ودواؤه المحاسبة الحازمة للنفس الأمارة.

* ومنها: تركُ الالتفاتِ للذين يصدّون عن سبيل الله - ولو بحسن نيةٍ منهم - ما دام هذا خُلُقٌ لهم، الذين يتعلقون لإثبات باطلهم بأوهى من خيوط العنكبوت، كمن ينادي بإغلاق حلق تعليم وتحفيظ القرآن لأنّ معلماً في مكان ما قيل إنه قد فعل وفعل.. وهذه الشبهة إظهارها كافٍ لإبطالها.

* ومنها: العنايةُ بفقهِ الأولويات والتوازنات وقواعد المصالح والمفاسد من التقديم والتأخير، والتحصيل والاحتمال، والدفع والرفع، على ضوء المحكمات الشرعية.

* ومنها: العملُ بقاعدة: لا إنكار في مسائل الاختلاف السائغ^(١٥٧). ولو أنّ أهل الشَّعْبِ العلميّ والدعوي عُنوا بهذه القاعدة وتقيّدوا بها؛ لكفوا الأمة شرَّ الفرقة وشماتة الأعداء. فبعضهم لسانه مقراضٌ أعراضِ الغافلين والغافلات من المؤمنين والمؤمنات، ولو تدبّر الحال بعقل من ينظر للأمر من آخر مرحلة من حياته؛ لتغيّرت مفاهيمه وأخلاقه وأعماله وأقواله وقراراته، والموفق من وفقه الله. وفي الوقت الذي علا فيه الكبارُ وسموا عن خلافاتهم لرصّ الصفِّ ورأب الصدع؛ نرى ضعافَ نفوسٍ همهم نخرُ جدارِ الأمةِ بغثاءٍ وسَفَهٍ وكذب. واللهُ تعالى قد تعبّد الإنسان بفهمه لا بفهم غيره، ولو نظرت لردود الناس بعضهم على بعض، في دائرة لا تنتهي من الشحناء والبغضاء والبغي والمراء؛ لوجدت أنّ غالب تلك القضايا المُفرّقة هي من الأمور التي يسوغ الخلاف فيها. وفي

(١٥٧) قد تردك بعض المعاني فيها تكرر، لكنه تكرر تنوّع لا تكرر ألفاظ، وله فوائد أعظمها التأكيد والتوضيح، والطارف يُذكر بالتليد، وهذا نهج قرآني كريم، وقد قال الفقهاء:

كرّر العلم يا جميل الحياء وتدبّره فالمكرّر أحلى



الصحيح: «أنا زعيمٌ بيت في ربض الجنة؛ لمن ترك المراء وإن كان محققاً»^(١٥٨). والزعيم هو الضامن. وتدبر قول الله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾

[الأنعام: ١٥٩].

فلا اجتماع أصلٌ رغبٌ، والافتراق منكرٌ بغيض، والعبرة بميزان الشرع لا رغائب الأنفس وحظوظها الزائلة محبة وكرهاً، وأصل الاجتماع؛ أن يكون على أصول الملة. ومن هنا: فهما تفرق عنك الناس وأنت على الحق؛ فأنت الأمة ولو كنت لوحداً، وعند الله في ذاك الجزاء.

ومن رأى خلاف الصواب الذي يعتقده فعليه بيانه، فالمؤمنون نصحاء، والمنافقون غشاة، لكن بدون تخوين ولا تبديع ولا تفسيقٍ وتحزيبٍ وسوء ظنٍ ورمي أعراضٍ عباد الله بالثهم جزافاً ظلماً وعدواناً. أما الفرحُ بحبس المسلمين وأذاهم وقتلهم على

(١٥٨) أبو داود (٤٨٠٠) بسند صحيح.

أَيْدِي أَعْدَاءِ اللَّهِ؛ فَهُوَ نِفَاقٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تُصِيبَكَ
مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ
فَرِحُونَ﴾ [التوبة: ٥٠].

وَإِنَّ مِنْ إِهَانَةِ الْعِلْمِ؛ نَثْرُهُ بَيْنَ الْأَقْدَامِ فِي اللَّهْوِ وَفِي الْخِصَامِ،
فَلَا تَبْذُلْ عِلْمَكَ لِمَنْ لَا يَرْفَعُ بِهِ رَأْسَهُ، وَلَا لِمَنْ أَرَادَ رِفْعَةَ نَفْسِهِ،
قَالَ يَحْيَى بْنُ أَكْثَمَ: «إِنَّ مِنْ إِهَانَةِ الْعِلْمِ أَنْ تَجَارِيَ فِيهِ كُلَّ مَنْ
جَارَاكَ».

* ومنها: العناية بعمارة الروح بالإيمان، واستفراغ الزمان في
مرضاة الرحمن، والسير الحثيث الحازم الجاد لمرضاة الملك العلام،
وتركُ بَنِيَّاتِ الطَّرِيقِ لِأَهْلِهَا. فَنَظَرُ الْمُؤْمِنِ أَبْعَدُ مَدًى مِنْ عُمْرِهِ.
وَاعْلَمْ أَنَّ الْمَوَاقِفَ مُحْكَّ مَعَادِنِ الرِّجَالِ، وَالْخُلُوفَاتُ مُحْكَّ حَقَائِقِ
الْإِيمَانِ، وَالصَّلَوَاتُ مُحْكَّ الْمُتَلَذِّذِ بِالضَّرَاعَةِ وَالْقُرْآنِ، وَالدُّنْيَا مُحْكَّ
الرَّائِغِ فِي الرِّضْوَانِ، وَمَنْ كَانَ مَعَ اللَّهِ؛ فَلَا يَخَافُ الضَّيْعَةَ وَلَا



يخشى الخذلان. ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] بلى
وعزّة العزيز ورحمة الرحمن!

* ومنها: قلّ طعامك ما استطعت، فالبطنة تُذهب الفطنة،
وتقوّي الشهوة، وقال ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَأْكُلُ فِي مَعَى وَاحِدٍ، وَإِنَّ
الْكَافِرَ يَأْكُلُ فِي سَبْعَةِ أُمْعَاءٍ»^(١٥٩). وقال لقمان لابنه: «يا بني إذا
امتلاّت المعدة؛ نامت الفكرة، وخرست الحكمة، وقعدت الأعضاء
عن العبادة»^(١٦٠). وقال أبو حامد الغزالي: «سببُ هلاك الناس:
حرصهم على الدنيا، وسببُ حرصهم عليها: البطن والفرج، وسببُ
شهوة الفرج: شهوة البطن. وفي تقليل الأكل ما يحسم هذه
الشهوة»^(١٦١).

(١٥٩) البخاري (٥٣٩٧) مسلم (٢٠٦٠) (١٨٢).

(١٦٠) الإحياء (٨٢/٣).

(١٦١) الإحياء (٨٨/٣).

* ويا صاحبي: دع الرغبة وانفذ للصريح، ودع الشعار وافهم الحقيقة، واترك اللَّبَّ واكشف الثمرة، فقد صرَّح الحقُّ عن محضه، وبينَ الصبحُ لذي عينين.

واعلم أنَّ الولعَ بالردود عيبٌ منهجيٌّ في طريق الطلب، وظلمةٌ في مسيرة الروح، وقسوةٌ في حياة القلب، وعثرةٌ في سلوك الصالحين، ويُستثنى من ذلك ما لا بد منه من لدن أهله..
ويكفيك من شرِّ سماعه.

* وكذلك: لا تحملنَّ قضيةَ كلام الناس مالا تحتمل، والناس لن ترضيهم مهما فعلت، رضاهم غاية لم يدركها بشر، وكما قال أحد الظرفاء لمن ضاق صدره من كلام الناس فيه: «إنَّ الناس إذا صادفوا نملةً يضع أحدهم أصبعه كي تُغيِّر مسارها، أُنْتَوَقِعُ أن يتركوك أنت في حالك!»! فيا صاحبي أرعهم أذنًا صماء وعينًا عمياء، وصدِّ ببالك عنهم، فمالك ولهم.



ولما قام رجلٌ فقال: يا رسول الله، إِنَّ حَمْدِي زَيْنٌ، وَذَمِّي شَيْنٌ، قال النبي ﷺ: «ذَاكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»^(١٦٢). فكفى بحمد الله وثنائه على عبده مدحاً وثناءً، جعلنا الله جميعاً منهم. وقالت أمنا الصديقة رضي الله عنها: «مَنْ التَّمَسَّ رِضَا اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ اللَّهُ مُؤَنَّةَ النَّاسِ، وَمَنْ التَّمَسَّ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ وَكَلَهُ اللَّهُ إِلَى النَّاسِ»^(١٦٣) وليكن شعارك ودثارك مع إهلك:

فليتك تحلو والحياة مريرةٌ وليتك ترضى والأنام غضابُ
وليت الذي بيني وبينك عامرٌ وبينني وبين العالمين خرابُ
إذا طاب منك الودُّ فالكلُّ هينٌ وكلُّ الذي فوق الترابِ ترابُ
وكم قتل الخوفُ من كلام الناس من إبداع، وكم أُمات من همّة، وكم دفن من جميل. وتعجبني كلمة قالها غازي القصيبي رحمه الله: «لست مغروراً، ولكنني أعرف مواهي».

(١٦٢) أخرجه الترمذي (٣٢٦٧) وقال حسن صحيح.

(١٦٣) سنن الترمذي (٢٤١٤). وصححه الألباني.

إِنَّ الْخَوْفَ مِنَ الْمَخْلُوقِ قُفْمٌ مَهُونٌ خَلْفَهُ الْعِزَّةُ، وَصندوقٌ وَحِشَةٌ مِنْ وَرَائِهِ الْأُنْسُ، وَسِجْنٌ عَبْدِيَّةٌ خَارِجُهُ الْحَرِيَّةُ، فَكَسَرَ بِخَوْفِكَ مِنَ اللَّهِ خَوْفَكَ مِمَّا سِوَاهُ.

وعلى قدر تحقيق التوحيد؛ يضمحلُّ الخوف من الخلق. ولما اشتكى أحد أصحاب الإمام أحمد أنه يخاف السلطان أجابه: «لو حققت لم تخف أحداً». أي لو حققت التوحيد؛ لم تَخَفْ غير الله. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «بالتوحيد يقوى العبد ويستغني، ومن سرّه أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله»^(١٦٤). وكتب بعض السلف إلى أخ له: «أما بعد؛ فإن كان الله معك فمن تخاف؟ وإن كان عليك فمن ترجو؟ والسلام». نعم، فإن الله تعالى يقول: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ [الزمر: ٣٦] فكل شيء غير الله لا تخف منه كي يتحقق توحيدك وتصلح أمورك وتنال الأمن التام في الدنيا

(١٦٤) مجموع الفتاوى (١ / ٥٥).



والآخرة: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ
الْأَمْنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢] . ولكل داعية إلى سبيل
ربه: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ
بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩] .

* ومن الوصايا: لا تجعل رأيك هو دينُ الله، بل ولا رأي
شيخك إن لم يكن دليله صحيحاً صريحاً جامعاً مانعاً خال من
المعارض الراجح أو المكافئ. فالعبرة - فقط - بما جاء عن الله
ورسوله، فعليه مدارُ عقد الإيمان وعهد الشريعة لمن كان له قلب
أو ألقى السمع وهو شهيد. واعلم أنَّ البدعة هي ما خالف إجماع
الصدر الأول.

فالحق المطلق يدور مع الوحي بشقيه الكتاب والسنة، أما غيرهما
فيلحقه نقص البشر غير المنفك عنهم، ما لم يُجمع السلف على أمر،
لأنَّ رسول الله ﷺ قد ذكر أنَّ الحقَّ لا يخرج عن إجماعهم، قال

رَبِّكَ ﷺ: «سَأَلْتُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَلَا يَجْمَعُ أُمَّتِي عَلَى ضَلَالَةٍ؛ فَأَعْطَانِيهَا»^(١٦٥).

ومن فروع ذلك: أَنَّ قَوْلَ وَاحِدٍ أَوْ اثْنَيْنِ مِنَ السَّلَفِ فِي مَسْأَلَةٍ مَا؛ لَا يَجْعَلُ هَذَا الْقَوْلَ هُوَ مِنْهَجَ السَّلَفِ إِنْ كَانَ ثَمَّ مُخَالَفٌ لَهُ. وما أكثر المسائل التي يستشهد فيها بعضُ الناس بقول واحد من السلف، وقد عَلِمَ مُخَالَفَةَ بعض معاصريه له فيها، ثم يُعلن أنها قول السلف، وَأَنَّ من قال بخلافها؛ فقد خرج عن منهجهم وابتدع وأحدث! فيا صاحبي، وَسَّعَ أَفْقُكَ، وَلينشرح صدرك لغيرك، واعلم أَنَّ الأمور لَا تُوْخَذُ بهذه الطريقة الضيقة، والتجوير الضائع، والطيش العلمي، والرعونة العملية، وَكُنْ حُرًّا، لَا مِمَّنْ يُقْرَعُ بالعصا.

* ومنها: الثِّقَةُ الرَّاسِخَةُ بِالوَحْيِ الْمُنْزَّلِ، فالهدى كل الهدى في الوحي، ﴿وَإِنْ أَهْتَدَيْتُمْ فِيمَا يُوحَىٰ إِلَيْكُمْ رَبِّكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ [سبأ: ٥٠] ومن لم يثق في الوحي ثِقَةً مُطْلَقَةً؛ فَلَا تَرْجُهُ.

(١٦٥) أحمد (٢٧٢٢٤) وصححه الأرناؤوط.



* ومنها: العناية بالنظر المقاصديّ للشرع المطهر، وهذا علمٌ شريف حقيقٌ بالتأمل والطلب والمدارسة.

* ومنها: العناية بالوسطية في الأمور، نخيرُ الأمور أوسطها، وقال علي رضي الله عنه: «خيرُ الناس هذا النَّمط الأوسط، يلحق بهم التالي، ويرجع إليهم الغالي»^(١٦٦).

ويتبع ذلك: التكاملُ والتوازن. فكن متوازنًا متكاملًا لا جافيًا ولا غاليًا، فلا تغلُ - مثلاً - في مسألة حقوق ولي الأمر والسمع والطاعة، ولا تنتطع في مخالفته والتأليب عليه، فلكل أصلٍ قدره. واحرص على الاستمسك بالسُّنة المحضة في عصر الفتن المدلّهمة، فثمةَ منهجٍ ينتهي لمذهب الخوارج في التكفير، ويقابله منهج إرجائي في العمل والمآل. والسعيدُ من جُنّبَ الفتن. وما من عملٍ إلا وللشيطان منه حظّان لا يبالي بأيّهما ظفر؛ تخذيلٌ عن طاعة فيقع العبد في التقصير، أو تنطع فيها فيركب قلائص الغلو. وكلا طرفي قصد الأمور ذميم.

(١٦٦) مصنف ابن أبي شيبة (١٣ / ٢٨٢) (٣٥٦٣٩).

* ومنها: صدقُ الاتِّباع. فلا تكن مرجئاً مع السلاطين خارجياً مع الدعاة، ولو بالسلوك والعمل. ولا تكن مدهناً للجمهور باغياً على الولاة. بل حَقِّقْ شهادَتِكَ.

ومن التوازن الرشيد: الفرحُ بالخير من كل مسلم، وكلما زاد خير المسلم ونفعه للناس؛ فلتزد جُرعةَ فرحك له، وأظهر سرورك واحتفاءك. واعلم أنَّ البشارة الحقيقية هي بشارة: ﴿وَبَشِّرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ [فصلت: ٣٠].

فاجعل - رعاك الله - أجملَ الأمور في عينيك، وأحلاها في صدرك، وأبقاها أثراً عليك في آخرتك: علماً تفيده، وضالاً ترشده، وملهوفاً تغيثه، وباباً من الخير تفتحه، ومحبةً لنشر الخير ونفع الناس على يديك ويدي غيرك، فغاية القلب الطيب والروح الطاهرة؛ سرور الناس وإسعادهم، وإسداء الخير لهم، فاعمل ولا تملّ، فالحركات بركات.



وأعظمُ الهدايا؛ الوصايا النافعة، قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «ما تصدَّقَ عبدٌ بصدقةٍ أفضلَ من موعظةٍ يعظُّ بها إخواناً له مؤمنين، فيتفرَّقون وقد نفعهم الله بها».

إنَّ من حقوق الإسلام: الفرحُ بداعٍ إلى الله اشتهر في الناس فضله ونفعه وسلامته، حتى وإن كان طرحه أو مواضعه ليست هي الأهم، فنفرح ونشيدُ به لأنَّه قد تكلم واجتهد فيما يحسنه، وقيمةُ كلِّ امرئ ما يحسنه، وحاجاتُ الأرواح لا تنتهي. وجزى الله خيراً كلَّ من نفع الناس ودعاهم للخير والشرع، ومهما كثر الدعاة وتوالت جهودهم؛ ففي الأمة حاجة، بل ضرورة إلى المزيد، ومنَ الناس من خلقهم الله غيائاً للناس ورحمة، فيا ورثة الأنبياء أمتكم أمتكم.

* ومن الوسطية: وسطيةُ التقوى بين الغلو والجفاء. فمن سنن الله تعالى في خلقته أن نوع المدارك، وفضل في المناخ، ورفع بعض الناس على بعض في أديانهم وعقولهم وأخلاقهم وأرزاقهم، وبثهم في هذه الدار امتحاناً وابتلاءً. كلُّ منهم يحرث أيامه بأعماله،

وَيَسْتَبْقُ أَجْلَهُ مَعَ أَنْفَاسِهِ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْمَدَى الْأَخِيرَ، عَادَتْ وَدِيعَةُ
الرُّوحِ لِمُصَاحِبِهَا، وَرَجَعَتْ لِخَالِقِهَا. فَإِذَا أَمَرَ اللَّهُ لِلْحِسَابِ؛ ابْتِغَاثِ
الْأَجْسَادِ وَأَقَامِ الْأَشْهَادِ، وَجَمَعَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ.. حِينَهَا يَكُونُ
تَأْوِيلُ الْكِتَابِ: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ
لِلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩] ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨]
﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]. وَحِينَهَا يَكُونُ
الْإِقْتِرَاقُ الْعَظِيمُ فِي الْمَصِيرِ عَلَى قَدْرِ الْإِقْتِرَاقِ الْيَوْمِ فِي التَّدِينِ، كَمَا
قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا
الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا
الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي
الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ﴾ [الروم: ١٤-١٦].

فَبِمَا أَنَّ الْأَمْرَ بِهَذَا الْخَطَرِ؛ فَقَدْ وَجِبَ عَلَى كُلِّ نَاصِحٍ لِنَفْسِهِ
أَنْ يُرَاجِعَ صَادِقًا مَسِيرَتَهُ، وَيُسَارِعَ لِإِصْلَاحِ سَرِيرَتِهِ، وَيَحَاسِبَ
نَفْسَهُ قَبْلَ الْفَوَاتِ؛ كَيْ يَسْتَعْبَ فِي دَارِ الْمَهْلَةِ وَيُؤْوِبَ قَبْلَ الْأَمْرِ



تَحِينَ مَنَاصٍ، ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا ءَامَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاقُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [سبأ: ٥١ - ٥٢] ، ﴿فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يُوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَلَّ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خِلْمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٢ - ١٥] .

يُذَكِّرُنِي حَامِيمَ وَالرُّحُ شَاجِرٌ فَهَلَّا تَلَا حَامِيمَ قَبْلَ التَّقَدُّمِ

* ومن فروع تلك المحاسبة: ألا يكتفي بإحسان النية دون إحسان الاتِّباع، فركنا قبول العمل: الإخلاص والاتباع. ولا يكفي شرط عن مكمله، فلا بد من تحقيق الشهادة الأولى بتجريد النية وإخلاص العمل وتوجيه الوجه للواحد الأحد لا شريك له، ثم بتحقيق الشهادة الثانية بإحسان الاتِّساء بمن هَجَّ له بالشهادة بالرسالة صلوات الله عليه وسلامه وبركاته، وهو القائل - بأبي هو وأمي ونفسي وولدي - فيما رواه الشيخان: «من أحدث في أمرنا

هذا ما ليس منه فهو ردّ»^(١٦٧). أي مردود غير مقبول، وكفى به
عن الإحداث زاجراً. فقل لمن لم يُخلص: لا تتبع! وقل لمن لم
يتبع لا تجهد، ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا
يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وشرع الإسلام وسطاً بين الشرائع، قد جمع الله فيه كل
كالاتها، وجعله خاتماً لها ناسخاً، ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا
فَلَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] وأمة محمد ﷺ وسط بين الأمم،
عدولاً خياراً شهداء على الناس، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً
وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. وما من أمرٍ لله إلا وللنفس فيه إفراط أو
تفريط، ومن رحمة الله أن جعل منار الدين واضحاً جلياً، وسنة
رسوله ﷺ محفوظة نقيّة ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾
[الأحزاب: ٢١] فمن رام الفلاح فليبدأ من هنا، لا غلو ولا جفاء.

(١٦٧) البخاري ٢٤١/٣ (٢٦٩٧)، ومسلم ١٣٢/٥ (١٧١٨) (١٧)

و(١٨).



فابعث نفسك على العمل، واجتهد ولا تقصّر، ثم قف حيث
 وقف القوم، فلا خير في التقصير ولا خير في الغلو.
 * ومنها: قَصْرُ الأمل، فمن طال أمله ساء عمله، ولا تزال تنعى
 ميتاً حتى تكونه، ومن أراد أن ينظر إلى حال الدنيا بعد رحيله؛
 فلينظر إليها الآن بعد رحيل غيره. وتذكّر من كان معك فوق
 الأرض بالأمس صار اليوم تحتها، ولربّما هذا التراب الذي تمشي
 فوقه قد كان جسداً لمن كان يهول في الدنيا كأنما هو من
 الخالدين!

سِرِّ إِنِ اسْطَعْتَ فِي الْهَوَاءِ رُويْدًا لَا اخْتِيَالًا عَلَى رُفَاتِ الْعِبَادِ
 رَبِّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لَحْدًا مِرَارًا ضَا حِكِّ مِنْ تَزَا حِمِ الْأَضْدَادِ
 ولو كُشِفَ لك ما بقي من أَجَلِكْ؛ لزهدت فيما بقي من
 أَمَلِكْ. والفطنُ الحازم هو من يعرف قدر ما أمامه ويفقه ما بين
 يديه، ولا ينشغل بالفاني على الباقي، ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [طه:

وتأمل مراحل الإنسان ونباته: بذرة ماء، ثم ولادة ورقة، ثم
برعم طفولة، ثم زهرة شباب، ثم شدة غصن الكهولة، ثم اصفرار
المشيب، ثم كسر حطامه بالموت.

وَمُشِيدٌ دَارًا لَيْسَ دَارُهُ سَكَنَ الْقُبُورِ وَدَارُهُ لَمْ تُسَكَّنِ
وتأمل لحظة تُغْنِيكَ: ماذا لو علمت الآن سنة رحيلك عن
الدنيا، ولو كان بعد سنين، ماذا سيتغير فيك؟! تأملها جيداً
وسترى الأثر.

وهل تعلم أنّ الدنيا ستستمرُّ بكل صخبها بعد رحيلك الحزين
عنها، سيتذكرك أجاؤك زمناً ثم ينسونك، سيستوي عندك الليل
والنهار، نخذ زادك منها الآن. وكلهم زائلون، وكلهم مغادرون،
وكلهم فانون، إلا أنت يا الله.

فهل تخيلت يوماً ذلك الزمان الذي ينسى فيه الجميع قبرك،
حتى معالم جدّتك قد اختفت، إذ خفقت رياح السنين، رحماك
يا رب فلا وحشة على من كنت أنيسه.

يا صاحبي إن جُزّت قَبْرِي هائماً فانصحْ لنفسك واعتبر بتجاربي



قال واعظ الإسلام ابن الجوزي رحمه الله: «وأيُّ موعظةٍ أبلغُ من أن ترى ديار الأقران، وقبور المحبوبين، فتعلم أنك بعد أيام مثلهم، ثم لا يقع انتباه حتى ينتبه الغير بك»^(١٦٨). ألا وإنَّ حبَّ الدنيا مغرورٌ في نفوس البشر، ومُزِينٌ لهم، ولا يلامون على ذلك، فليس حبًّا بعيد ولا ذنب، ولكن يكون كذلك إذا طغى على حب الآخرة، أو ألهى عنها، أو قسى القلب. وليس للمؤمن أن يكون بحالٍ غير حال العبودية حتى يلقي ربه، ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩]. وتدبر - حرسك الله - سوء حال الكافر عند قيامته؛ حتى تزهد في متاعه الفاني، ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [آل عمران: ١٧٨] اللهم رحمتك.

* ومنها: العناية بالأعمال الصالحة والقرب المرضية. فالانحراف عن السنة حتى بمعاصي الشهوات هو خروج عن السنة، إنما شدد

السلف في البدع؛ لأنها تؤولُ إلى التبديل، وليس مقصودُهم الاستهانة بمعاصي القلب والجوارح، فكلّ معصية ثلم في التوحيد ثلمةً بقدرها. والتوحيد عبودية، وأثما تضمحلّ العبودية بخالفات العبد، وتزيد وتقوى بطاعته، فمن الذنوب ما يقذف العبد خارج دائرة الإسلام، ومنها دون ذلك، فينطمس من أنوار العبودية على ذلك الاجترام، وتضيء شمسها بصالح الأعمال، قال تبارك وتعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣١]. روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «أخبروا فلاناً أنه قد أحبط جهاده مع رسول الله ﷺ إلا أن يتوب»^(١٦٩)، لأنها رأتَه تساهل في معاملة ترى أنها من أبواب الربا، والربا حرب لله، وحرب الله يهدم الحرب لله.

(١٦٩) تفسير ابن رجب (٢١٤/١). وعلق على ذلك الحافظ ابن رجب رحمه الله تعالى بقوله: «وهذا يدل على أن بعض السيئات تحبط بعض الحسنات، ثم تعود بالتوبة منها».



* ومنها: العناية الدائمة والحراسة اليقظة لأعمال القلوب، فهي محلّ نظر الله تعالى، فلا بد من الاهتمام الشديد والمراعاة التامة لأعمال القلوب، فالكثير من القلوب موحش بلقع!

* ومنها: العناية بتزيين النفس باطناً وظاهراً بالأخلاق الجميلة والصفات الحسنة، وهي من أثقل الصالحات غداً في الموازين، وفي الأدب المفرد^(١٧٠) أنّ رسول الله ﷺ قال: «أكثر ما يدخل الجنة تقوى الله وحسن الخلق». وقال ناصحاً مبيّناً: «ما من شيء في الميزان أثقل من حسن الخلق»^(١٧١). وقال مُظهراً حبه للمتخلفين بجمل سجاياه وكريم صفاته: «إنّ من أحبكم إليّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة؛ أحاسنكم أخلاقاً»^(١٧٢). وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «يا سعد بني وهيب، إنّ الله

(١٧٠) (١ / ١٠٨) وحسنه الألباني.

(١٧١) صححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٢٧٠).

(١٧٢) صححه الألباني في صحيح الترمذي (١٦٤٢).

إذا أحبَّ عبداً حُبُّهُ إلى خلقه، فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس، واعلم أنَّ مالك عند الله مثل الذي لله عندك»^(١٧٣).
 وإنما الأخلاق بالتخلق حتى وإن كان الطبع راسخاً، فمع الاستعانة بالله، ودعائه، والمجاهدة للنفس، وطول المدى؛ يسهل الأمر بإذن الله. ولا شك أنَّ الأمر يستحق فبادر أيها الخلق. واعتد طريق الخير؛ يكن لك طبعاً وراحة وسمَةً وجبلة. قال ابن مسعود رضي الله عنه: «تعودوا الخير، فإن الخير عادة».

وَإِذَا تَسَاوَتْ فِي الْقَبِيحِ فَعَالِنَا فَنِ التَّقَى وَأَيْنَا الزِّنْدِيقُ
 ومن محاسن النفس الإنسانية وزنُ ساعتها البيولوجية، ومن ذلك أنَّها إذا عودتُ الاستيقاظ في ساعة معينة لبضعة أيام؛ فإنها تستيقظ لاحقاً بالتدريج في نفس التوقيت بلا منبه. وقيل: يومك مثلُ جَمَلِك، إن أمسكت أوله تبعك آخره.

هذا ولا بد أن يُربى الناشئة منذ بداية ثلثمهزم على أصول أخلاق الإسلام، فالأخلاق جزءٌ كبير من المنهج النبوي، ومن

(١٧٣) البيان والتبيين (١ / ١٤٢).



قَصَّرَ فيها؛ ففيه نقص من تلك الجهة بقدر نقصه، فليستعن بالله في هدايته لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا هو. فكن - وفقك الله - دمثَ الأخلاق، رقيقَ الحاشية، سهلَ العريكة، بهيَ الابتسام، طلقَ الحيَّا، لينَ الخطاب، وقد قالت العرباء: من لانت كلمته وجبت محبته، وما تشاتمَ اثنانِ إلا غلبَ الأئمَّما.

وَكُنْ كما أنت على سجيَّتِكَ وطبيعتِكَ وعفويتِكَ بلا تكلف، وعش سهلاً حنوناً فهي سنة نبينا ﷺ، أمَّا تصنعُ الرزانة في العلاقة بالناس الأقربين؛ فحقيقته وضعُ جدران عالية بين المترزّن وبينهم بقدر ذلك التصنع النكد، وليس المقصود إخلال المروءة، بل دفع التعالي، وخيرُ الأمور أوساطها. ولا تدّعي زيادة علمٍ أو تقى أو ذكاء أو مال، وإياك وتصنع المثالية.

وروّح عن نفسك حيناً، وقد قال معاوية لعمر بن العاص رضي الله عنه: ما اللذة؟ قال: «طرحُ المروءة». وقال المأمون: «ما بقيت لي لذة إلا وجودُ أخٍ أضعُ بيني وبينه مؤنة التحفّظ». وقال مالك بن دينار: «أثقلُ إخواني عليّ من يتكلّف لي وأتَحفّظ

منه، وأخفّهم على قلبي من أكون معه كما أكون لو حدي». وقال الشافعي: «ليس بأخيك من احتجت إلى مداراته». وسُئِلَ ابن عمر رضي الله عنهما: هل كان الصحابة يضحكون؟ قال: «نعم، والإيمانُ في قلوبهم مثل الجبال». وقال بكر بن عبد الله: «كان أصحاب رسول الله ﷺ يمتازحون، حتى يتبادحون^(١٧٤) بالبطيخ، فإذا كانت الحقائق؛ كانوا هم الرجال».

* ومنها: الصبر والمصابرة والمrapطة في ذات الله، فاصبر وتصبر وصبر، واهتف لنفسك وإخوتك بقول ربكم: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧] وقوله: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠] وقوله: ﴿وَيَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥] وتدبر سورة العصر، فالإسلام دين الصابرين. وأر الله تعالى منك ما يُرضيه؛ حتى يعطيك ما يرضيك. فأَيُّ دينٍ كهذا الكمال والجمال، وأَيُّ مستودعٍ للصبر والأمل كهذا سعة وعظمة وسمواً.

(١٧٤) يتبادحون: يترامون.



وليس كلّ صبرٍ مستحقٌّ للثواب، فالصبر على الطاعة وعن العصيان وعلى البلوى مفتقرٌ إلى إخلاصه لوجه الله تعالى، قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا أَبْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ٢٢].

وخلّ الهويّ للضعيف ولا تكنْ نؤوماً فإنّ الحرّ ليس بنائم
 * ومنها: العناية بالفضاء الالكتروني، فقد بثّ في الأمة نوازع
 فرقة لم تكن قبله لسرعة وصول المعلومة الملوّمة لجماعات لا
 تُحصى من الناس، فيتلقّفها من قلّ حظّه من الفقه والحكمة.
 ومن الجيد إنشاء مواقع ومنتديات وتطبيقات تنشر ثقافة
 الاجتماع الحمود ونبذ الاقتراق المذموم. وإن كان لا بد من
 الحذر الشديد من اختراقها، ومتابعة ذلك، خاصة مع وسائل
 التواصل التي تمكّن بعض المؤسسات من صنع جدار منيع بجيش
 اقتراضي مزيف، ومسلّح بأقذع الألفاظ وأحطّ التهم، وإيقاد نار
 التشردم، وبثّ بذور التفرّق بين أهل الصف الواحد. علماً بأنّ
 هذا الطرف أو ذاك هو منهج في نسج مجتمعيّ مترامي، يسهل
 اختراقه تحت أيّ مسمّى وبأية ذريعة، فإن أردنا حراسته؛ فلا

بَدَّ من التأكيد والتواصي بمهمات علاقة المسلم بأخيه ولو خالفه،
كالتثبت والعدل والرفق وإحسان الظن والنصح ونحو ذلك، أما
ترك الحال بهذه الفوضى؛ فهي نكسة دعوية ومأساة سلفية وفُرقة
إسلامية بكل المقاييس. والرجال مواقف، والتاريخ لا ينسى،
والديان لا يموت، ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْشَلُوا وَتَذَهَبَ
رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦] ومن أفقه الفقه: احتمال أدنى
المفسدتين لدفع أشدهما، وتحصيل أعلى المصلحتين بتفويت
أدناها. ومقصدي هو التنبيه لنشر ثقافة الحوار البناء لا النقاش
الهدام، والله المستعان.

* ومنها: العفاف، فهو ضرورة الزمان، وتحقيقٌ بكل مؤمن
الحرص الشديد على غرس شجرته في قلبه، وإعلاء جدران بنيانه
في قلبه، خاصةً في زماننا زمانِ الشهوات والشبهات.
إنَّ العفاف تاجُ أخلاق المؤمنين، وشمسُ صفات المتقين، وقد
أجمعت أمم الأرض على استحسانه، ورفعت صاحبه للمقامات
العالية، ذلك أنه لا يكون إلا لشريف النفس سامي الخلق،



مأمون الجوانب الغادرة. ولقد أثنى الله تعالى على أهله، وجلّ لهم بحفظه ومعونته، ووعدهم أجزل العطايا وأكبر الهبات؛ لأنهم تساموا ببقاء أرواحهم وحسن تدينهم عن كل ما يشوب ذلك النقاء، أو يخدش جناب الإيمان.

وإنّه خلّق قلبي قبل أن يكون ظاهراً، فالقلب العامر بحبة الله تعالى، والحياء منه، وحسن الرجاء فيه، وعظم الخوف منه، وتمام التوكل عليه؛ لا بد أن يثر ذلك فيه صحيح العفاف وصریح الشرف. فالعفاف عمل قلب؛ لأنه حركة القلب للصالح والمباح، وكفّه وسكونه عن الحرام، فهو عمل من هذه الحيثية، وهو كذلك ثمرة من ثمار أعمال القلوب الزاكية، وظهوره في الثمرة أجلى من العمل. وحدّ العفاف: كف النفس عما لا ينبغي لها. وعلى قدر تحقيقه؛ يقترب صاحبه من كماله في نفسه، ورفعته عند ربه.

هذا والعفة أنواع عديدة، وجماعها الكف عن الحرام، والاستيحاش منه، والازورار بعيداً عن ذرائعه. وهي منقسمة

على الجوارح، وأصولها ثلاثة: عفةُ الفرج، وعفة اللسان، وعفة البطن، والبقية متفرعة عنها؛ كالعفة في المال والرئاسة والمدح والتكاثر، ونحو ذلك. وإذا ضبط المرءُ عفته في أنواع العفة الثلاث؛ فقد انتظمت له سائرُها، وتيسّرت له عواقبها، ويكون حينها قد لبس ثوب العفاف النقيّ الناصع الجميل، وهي على النحو التالي:

أولاً: العفة عما في أيدي الناس: وهي أن يعفَّ عما في أيدي الناس، سواء ببصره أو سمعه أو لسانه، أو حتى فكره، وأن يقنع برزق الله له، فهو أحكم وأعلم وأرحم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا تَمْدَنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ﴾ [الحجر: ٨٨] وكذلك بأن يترك مسألتهم، فعن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من يكفل لي ألا يسأل الناس شيئاً، وأتكفل له بالجنة». فقال ثوبان: أنا. فكان لا يسأل أحداً شيئاً^(١٧٥).

(١٧٥) أبو داود (١٦٤٣) وصححه الألباني في صحيح أبي داود (١٦٤٣).



ثانياً: كُفُّ اللسان عن الأعراض: فيجبُ على المسلم كُفُّ لسانه عن أعراض الناس، وألّا يقول إلّا طيباً، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «المسلمُ من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»^(١٧٦).

ويتبعُ اللسانَ القلمُ والكتابة، فالقلم هو اللسان الثاني، ويلحق به الكفُّ عن الدماء والازورار عن تخوضها بلا برهان شريعة، ويتبعه كذلك لحْظُ العين أو حركة اليد أو غيرهما بازدراء أو همزٍ أو لمزٍ، أو آيةٍ أذيةٍ لأحدٍ كان - حتى لو كان كافراً أو بهيمة أو طيراً - لم يأذن بها الله عز وجل.

ثالثاً: عفة الفرج عمّا حرّم الله تعالى: وهي أن يعفّ فرجه عن المحرمات والفواحش. وقد اشتدّت الحاجة في هذا الزمان للتذكير به، والتنويه بشأن أهله، والتحذير من تدنيسه، والله المستعان.

والفرج الحرام حفرةٌ إلى الجحيم، وأكثرُ أهل النار إنّما دخلوا منها ومن اللسان، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول

(١٧٦) البخاري (١٠).

اللَّهُ ﷻ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ؟ فَقَالَ: «تَقْوَى اللَّهِ وَحَسَنُ الْخَلْقِ»، وَسُئِلَ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ النَّارَ. فَقَالَ: «الْفَمُ وَالْفَرْجُ»^(١٧٧).

وَإِنَّ عَمَقَ الْإِحْسَاسِ بِالْجَمَالِ قَدْ يَسَبِّبُ أحيانًا فَسَادَ الْأَخْلَاقِ. لَذَا فَتَدْعِمُ رِكَائِزَ الْفَضِيلَةِ فِي نَفُوسِ أَوْلَئِكَ الْقَوْمِ أَوَّلَى، وَأَعْنِي بِهِمْ أَهْلَ الْفَنُونِ شِعْرًا وَقِصَّةً وَرِوَايَةً وَتَصْوِيرًا وَتَشْكِيلًا وَغِنَاءً وَنَحْوَهُمْ.

وَيَتَّبِعُ عِفَافَ الْفَرْجِ عِفَافُ رُسُلِهِ، كَالسَّمْعِ وَالْبَصَرِ وَالْكَلَامِ وَغَيْرِهَا. وَيَكْفِي فِي خُبَثِ الْمَعْصِيَةِ مَسْمَاها، لِأَنَّهَا جَرَاءٌ عَلَى مَخَالَفَةِ الْجَبَّارِ جَلِّ جَلَالِهِ، وَنَوْعُ كُفْرٍ لِنِعْمِهِ الَّتِي لَا تَعُدُّ وَلَا تَحْصِي، فَكَيْفَ نَعْصِي مَنْ لَا قِوَامَ لَنَا إِلَّا بِهِ! وَلَا خَيْرَ فِينَا إِلَّا مِنْهُ، وَلَا مَدْفَعَ لِلسَّوِّ إِلَّا بِهِ.

(١٧٧) أحمد (٢/ ٤٧٢، ٢/ ٢٩١) قَالَ مُحَقِّقُ جَامِعِ الْأَصُولِ (١١/ ٦٩٤): رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ، وَهُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ بِشَوَاهِدِهِ. وَابْنُ مَاجَهَ (٤٢٤٦).



إنَّ العَفافَ برهانُ التقوى، ودليل الاستقامة. والدنيا بأسرها
امتحانٌ صبرٍ، واختبارُ صدق، فمن عَفَّ وكَفَّ وصبرَ لله على
الاستقامة؛ فهو المؤمنُ حقًّا والفاضلُ صدقًا.

أَرَى فَاجِرًا يُدْعَى جَلِيدًا لظُلْمِهِ وَلَوْ كَلَّفَ التَّقْوَى لَكَلَّتْ مُضَارِبُهُ
وَعَفًّا يُسَمَّى عَاجِزًا لِعَفَافِهِ وَلَوْلَا التَّقَى مَا أَعْجَزَتْهُ مَذَاهِبُهُ
والعَفَافُ ضرورةُ الزمان، لأنَّا نعيشُ زمانًا عاصفًا بكلِّ
المقاييس، فأبوابُ الشهوات المحرمة مُسرعة على القلوب الضعيفة،
بلا رقيب إلا من لدن علام الغيوب.

بل قد تسلطت الشهوات على الشبهات حتى استبطنتها خفية،
فصارت الشبهات سلماً لبلوغ حظوظ النفس الأمارة بالسوء
والفحشاء. ففي الأموال - على سبيل المثال - ضَعْفُ وازعُ الخوف
من الربا، بسبب اشتباه معاملات الحلال بالحرام، وساعدَ على ذلك
فتاوى لمتفكِّهة التيسير - زعموا - الذين يسوِّغون للناس أبواباً ما كان
الشیطان يحلم بها في الزمن الأول، فابتدعوا للعامة معاملات تدور
هي والربا على رحي واحدة، وتصدر من نبعٍ سوء واحد وترجع

لَاخِيَّةٌ وَاحِدَةٌ، قَدْ يَقْتَرِبُ بَعْضُهَا حَتَّى يَكُونَ رَبًّا صَرِيحًا، أَوْ يَتَأَخَّرُ قَلِيلًا بِحَسَبِ حَقِيقَتِهِ، لَكِنَّهُ لَا يَخْرُجُ مِنَ الْمَشْتَبَةِ الْمَذْمُومِ حَتَّى وَلَوْ بِدُونِ شَبَهَةِ رَبٍّ؛ كَبَيْعِ مَا لَا يَمْلِكُ، وَالْبَيْعِ قَبْلَ الْحِيَازَةِ، أَوْ مَعَامَلَاتِ التَّدْلِيسِ، أَوْ الْمَيْسَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. وَلَا يَعْنِي هَذَا التَّعْمِيمُ بِحَالٍ، لَا بِأَوْصَافٍ وَلَا بِأَشْخَاصٍ، فَثُمَّ عَلَمَاءُ أَهْلِ فَضْلِ وَوَرَعٍ، وَثُمَّ مَعَامَلَاتُ أَحَدِثِهَا النَّاسِ لَا لِبَسٍ فِيهَا وَلَا اشْتِبَاهٍ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ عَلَى أَصْلِ الْحِلِّ وَالْإِبَاحَةِ، إِنَّمَا الْقَصْدُ تَنْبِيهِ النَّبِيهِ.

وَتَأْمَلُ الْوَرَعَ الدَّقِيقَ لِلْسَلَفِ، فَعَنْ عَاصِمِ بْنِ كَلِيبِ الْجَرْمِيِّ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: «حَاصِرُنَا تَوَجَّ، وَعَلَيْنَا رَجُلٌ مِنْ بَنِي سَلِيمٍ يُقَالُ لَهُ: مَجَاشَعُ بْنُ مَسْعُودٍ، قَالَ: فَلَمَّا أَنْ افْتَتَحْنَاهَا، وَعَلِيَ قَيْصٌ خَلَقَ؛ انْطَلَقْتُ إِلَى قَتِيلٍ مِنَ الْقَتْلَى الَّذِينَ قَتَلْنَا مِنَ الْعَجَمِ، فَأَخَذْتُ قَيْصَ بَعْضِ أَوْلَئِكَ الْقَتْلَى وَعَلِيهِ الدِّمَاءُ، فَغَسَلْتَهُ بَيْنَ أَجَارٍ، وَدَلَكْتَهُ حَتَّى أَنْقَيْتَهُ، وَلَبَسْتَهُ وَدَخَلْتُ الْقَرْيَةَ، فَأَخَذْتُ إِبْرَةً وَخِيوطًا، نَخَطْتُ قَيْصِي. فَقَامَ مَجَاشَعُ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَغْلُوا شَيْئًا، مِنْ غَلٍّ شَيْئًا جَاءَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَوْ كَانَ مَخِيطًا.



فانطلقتُ إلى ذلك القميص فنزعته، وانطلقتُ إلى قميصي فجعلت أفتقه، حتى والله يا بني جعلتُ أحرِقُ قميصي توقياً على الخيط أن ينقطع^(١٧٨)، فانطلقتُ بالخيوط والإبرة والقميص الذي كنت أخذته من المقاسم فألقيته فيها. ثم ما ذهبتُ من الدنيا حتى رأيتهم يغلّون الأوساق، فإذا قلتُ: أيُّ شيء هذا، قالوا: نصيبنا من الفيء أكثر من هذا»^(١٧٩).

فمن جعل بينه وبين المشتبهات حاجزاً، لم يقع في المحرمات، والمؤمن يحرس دينه بورعه، فيحرسُ الفرائض بالرواتب، فإنه إن حافظ على الرواتب؛ لم يُقصر في الفرائض، ويحرس الرواتب بكثرة النوافل المطلقة، فإنه يشقّ على الشيطان أن يدرك رواتبه بتركٍ لأنّ دونها النوافل المطلقة، وهكذا الحال في المحرمات والمكروهات وتَرَفِ المباحات، واحمل في قلبك وصية نبيك

(١٧٨) ذكر قيصين، الأول: المغلول وقد ردّه، والثاني: مملوك له سابقاً لكن فيه شقوق وفتوق رفاها بخيوط من الغنيمة فاجتهد على نزع الخيط كما هو حتى لا ينقطع ولو أدى ذلك لشق قميصه حفظاً للخيط. رحمه الله تعالى.

(١٧٩) مصنف ابن أبي شيبة، ترقيم عوامة (٣٨٩١٢) (١٥ / ٢٤٧).

الحادب الشفيق ﷺ: «دَعُ مَا يَرِيكَ إِلَى مَا لَا يَرِيكَ»^(١٨٠)، وقوله: «مَنْ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدْ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ»^(١٨١).

وفي الأنكحة؛ اخترع الشيطان للناس طرقاً قذف زُحُفَهَا فِي قُلُوبِ بَعْضِهِمْ، فَرَوَّجُوهَا حَتَّى اشْتَبَهَ السِّفَاحُ الذَّمِيمُ بِالنِّكَاحِ الشَّرِيفِ. وَحَتَّى لَوْ خَالَفَهُ فِي بَعْضِ صُورِهِ وَشُرُوطِهِ، لَكُنْه بَاقٍ فِي قَبِيلِ الْمُسْتَبْهَاتِ.

وَمِنْ ذَلِكَ مَا يُسَمَّى بِالنِّكَاحِ السِّيَاحِيِّ أَوْ الْمَسْفَارِ، فَيَتَزَوَّجُ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ فِي نَيْتِهِ طَلَاقَهَا، وَفِي عُرْفِ أَهْلِ تِلْكَ الْمَرْأَةِ أَنَّ الرَّجُلَ سَيُطَلَّقُ بَعْدَ أَيَّامٍ أَوْ أَسَابِيعٍ، لِذَلِكَ يَقْلَلُونَ الْمَهْرَ وَلَا يَشْتَرِطُونَ مَا يَشْتَرِطُونَهُ حَالِ النِّكَاحِ الْمَشْرُوعِ، وَرَبَّمَا احْتَالَتْ عَلَيْهِ الْمَرْأَةُ فَهَرَبَتْ مِنْهُ سَرِيعًا، بَلْ رُبَّمَا تَزَوَّجَتْ وَهِيَ فِي ذِمَّةِ غَيْرِهِ، عِيَاذًا بِاللَّهِ تَعَالَى. وَالْفُقَهَاءُ يَقُولُونَ: «الْمَعْرُوفُ عَرَفًا كَالْمَشْرُوطِ شَرْطًا» وَنَحْوُ تِلْكَ الْأَنْكِحَةِ الْمُرْتَدَّةِ بَيْنَ التَّحْرِيمِ وَالِاسْتِبَاحِ، قَالَ ﷺ: «إِنْ

(١٨٠) أخرجه أحمد (١٢١٢٠)، والترمذي (٢٥١٨) وصححه الألباني.

(١٨١) البخاري (٥٠)، ومسلم (٢٩٩٦).



الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتهيات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات فقد وقع في الحرام...» الحديث^(١٨٢). فإذا استمرَّ العبدُ المشتبه والمكروه؛ سهل عليه خوض الحرام الصريح، إذ ثوبُ الإيمان يتقلّص عن المؤمن شيئاً فشيئاً مع كثرة اختلاط المشتبهات والمكروهات في قلبه، وينقص حتى لا يطيق مدافعة الباطل ولا مجاهدة الأمارة، وقال ﷺ: «دع ما يُريك إلى ما لا يريك»^(١٨٣). والمعصوم من عصمه الله.

حتى في أمور السلطان جرت ببعضهم كلاليب شبيه ارتضعت لبان الشهوات، فصار دينُ بعضهم شهوةً سلطانه بلسان حاله، فأشبهوا إمامية الرفض وطُرُق الخرافة.

(١٨٢) البخاري (٥٠)، ومسلم (٢٩٩٦) واللفظ له.

(١٨٣) أحمد (٢٠٠/١) (١٢١٢٠) والترمذي (١٣/٢) وصححه الألباني في

الإرواء (١٥٥/٧).

وكذا في أمور الرئاسات وسباع الغضب وأدخنة اللهو وقتار الغفلة
ما لا يكاد يُحصى تنظيراً وتطبيقاً. لذا، كانت قيمة العفاف عزيزة
جداً في هذا الزمان.

إنَّ العفيفَ سيّد نفسه، غيرُ مستعبدٍ لهواه وطمعه، بل قد علّق
ناصية عبادته على وفق شرع ربه، كلّما هبت على نفسه عواصفُ
الشهوات؛ ثبت به العفاف الراسخ في قلبه كالجبل الأشمّ، يسمو
ببصيرته صُعداً في مراقي الفلاح، يتنَسَّمُ وحيَ ربه؛ فيتسَمَّ سبيلَ
رضوانه. قلبُه العامرُ بالغنى بربه كفاه عفافاً عمّا سواه، كان في
بداية أمره يجاهد نفسه الأمارّة، حتى رقّاها لتكونَ لوّامة، فما زال
بها حتى اطمأنت وسكنت وابتهجت واغتنت، وأيقنت أن الغنى
- كلّ الغنى - في الاستعفاف عما لا يحلّ، والاكتفاء بما أحلّ؛
فكانت من المفلحين.

حينها التفت بقلبه العفيف إلى ما خلقه من حطام وبهرج، ثم
أشاح عنه عازماً على لزوم ذلك المنهج، وأيّ منهج! إنه سبيل الله
وصراطه ودينه ورضوانه. يقرأ قول ربه الحاض على لزوم طريق



العفة بكل أنواعها في البطن والفرج والمال والجوارح، وهو يرى تكرار الأمر به في الشريعة: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور: ٣٠] فغض البصر يسبقه غض القلب عن خطرات الحرام، فيثمر حفظ الفرج وصيائته.

وكنْتَ متى أرسلتَ طرفَكَ رائداً لقلبِكَ يوماً أتعبتَكَ المناظرُ
رأيتَ الذي لا كَلَهَ أَنْتَ قادِرٌ عليه ولا عن بعضه أَنْتَ صابرٌ
قال الله تبارك وتعالى آمراً آمراً حاسماً جازماً قاطعاً لكل
تسويل باطل وتسويغ ذريعتيه: ﴿وَلَيْسَتَعَفِيفُ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣] فعليهم العفاف، ولهم من الله لهم الغنى.

والفقر ليس بعذر في الخطيئة: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢] وقد تكفل الله تعالى لأهل العفاف بالغنى والمعونة، فقد بشرنا ﷺ بوعده الله تعالى للمتعفين، وهو الوعد الذي

أحقّه على نفسه كرمًا وامتنانًا، وهو لا يخلف الميعاد، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: المجاهدُ في سبيلِ الله، والمكاتبُ الذي يريدُ الأداء، والناحُ الذي يريدُ العفاف»^(١٨٤). وتأمل حال النبي الصديق الذي رمى أشدَّ شهوة في الدنيا - شهوة النساء - خلف ظهره صارخًا في وجه الهوى: ﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣] فعاياه مولاه: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] حفظه ربه بالعفاف لإخلاصه ونقاؤه وصدق توحيده؛ فصرف حفرة الغفلة وسرداب الخطيئة عنه عليه السلام.

لقد كانت العفة محورًا من محاور دعوة نبينا العفيف الكريم صلوات ربي وسلامه وبركاته عليه منذ بدايات دعوته للهدى، فلقد كان العفاف حاضرًا في حياته بفعله قبل قوله، فقد كان

(١٨٤) أحمد (٧٤١٦) والترمذي وحسنه (١٦٥٥) وجود إسناده ابن باز في حاشية بلوغ المرام (٧٦٥).



العفيف الكامل في زمنٍ لم يكن يُستنكر فيه طمع الهوى الظلوم،
والرَّغب الغشوم، والنفس الحدوم، فقد كان هو الصادق
الأمين، والأمين هو المُستأمن على كلّ ما يُخشى عليه تلفُ
الاستطالة من دمٍ أو عرض أو مال.

ولقد كان العفاف من الأصول الأولى للإسلام، فقد كان
الأمر به واضحاً صريحاً من البداية، فقد ذكره أبو سفيان رضي
الله عنه لهرقل حينما سأله عن أوامر رسول الله ﷺ، ففي حديث
ابن عباس رضي الله عنه في شأن كلام هرقل لأبي سفيان ومن
معه من رجالات قريش، وفيه: «ويأمرنا بالصلاة، والصدقة،
والعفاف...»^(١٨٥).

والعفيف غني بقناعته، وطيب نفسه، وانشراح صدره، ورضا
فؤاده، فعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أنه قال: قال رسول
الله ﷺ: «أربعٌ إذا كنَّ فيك؛ فلا عليك ما فاتك من الدنيا:

(١٨٥) البخاري، الفتح ٦ (٢٩٤١) واللفظ له. ومسلم (١٧٧٣).

حَفْظُ أَمَانَةٍ، وَصَدْقُ حَدِيثٍ، وَحَسَنُ خَلِيقَةٍ، وَعَفَّةٌ فِي
طُعْمَةٍ»^(١٨٦).

لَقَدْ كَانَ الْعَفِيفُ الْأَكْبَرُ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْهِ
يُعَلِّي قِيَمَةَ الْعَفَّةِ، وَيُثْنِي عَلَى النَّاسِ بِهَا، إِذْ كَانَ الْعَفَافُ مِنْ
مَعَايِيرِ الْإِيمَانِ لَدَيْهِ. وَتَأْمَلْ حَدِيثَ عِيَاضِ بْنِ حِمَارِ الْمَجَاشِعِيِّ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي أَوْصَافِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، وَكَيْفَ كَانَ
الْعَفَافُ ظَاهِرًا جَلِيلًا مَعْتَبَرًا، وَيَكُونُ الْمِيزَانُ لغيرِهِ مِنَ الْخِصَالِ،
فَخَدَّثَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: «أَلَا إِنَّ رَبِّي
أَمَرَنِي أَنْ أَعْلَمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا». وَقَالَ: «وَأَهْلُ
الْجَنَّةِ ثَلَاثَةٌ: ذُو سُلْطَانٍ مَقْسُطٍ مُتَّصِدِقٌ مُوَفَّقٌ، وَرَجُلٌ رَقِيقُ
الْقَلْبِ لِكُلِّ ذِي قُرْبَى وَمُسْلِمٍ، وَعَفِيفٌ ذُو عِيَالٍ»^(١٨٧).

وَحَتَّى عِنْدَ أَعْنَفِ أَمْرِ وَهُوَ الْقَتْلُ؛ فَعَفَافُ الْمُؤْمِنِ حَاضِرٌ
هَنَالِكَ، فَلَا يَتَعَدَّى وَلَا يُمَثِّلُ، فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ

(١٨٦) أحمد (١٧٧/٢) (٦٦٦١) واللفظ له وقال الشيخ أحمد شاكر (١٠/

١٣٩): إسناده صحيح، وصححه الألباني في صحيح الجامع (١/٣٠١) (٨٨٦).

(١٨٧) مسلم (٢٨٦٥).



عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أَعَفَّ النَّاسَ قِتْلَةٌ أَهْلُ
الإيمان»^(١٨٨).

ومن أدعيته صلوات الله وسلامه وبركاته عليه لربه تعالى:
«اللهم إني أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»^(١٨٩).

والعفيف موعودٌ على لسان نبيه ﷺ بالجنة، فعن سهل بن سعد
رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ يَضْمَنُ لِي مَا بَيْنَ
لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، أَضْمَنَ لَهُ الْجَنَّةَ»^(١٩٠).

واعلم أنّ من أعظم أسباب العفاف؛ صدقُ الدعاء وديمومته،
والثقة بالعطاء، وحسن الظن بمن هو أرحم بنا من أنفسنا،
والعطاء أحبّ إليه من المنع، ويفرحُ إن دُعِيَ وسُئِلَ واستُعِينَ
واستُغِيثَ واستُنْصِرَ واستُغْنِيَ واستُعِفَّ. وأكرم بهذه البشارة
النبوية للمتغففين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنّ رسول الله

(١٨٨) أبو داود (٢٦٦٦) واللفظ له. وأحمد (١/٣٩٣) (٣٧٢٧) وقال
شاذان: إسناده صحيح (٥/٢٧٥).

(١٨٩) مسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه (٢٧٢١).

(١٩٠) البخاري (٦٤٧٤).

رَبِّكَ ﷺ قال: «عُرِضَ عَلَيَّ أَوَّلُ ثَلَاثَةِ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: شَهِيدٌ، وَعَظِيمٌ، وَغَفِيرٌ مُتَعَفِّفٌ، وَعَبْدٌ أَحْسَنَ عِبَادَةِ اللَّهِ، وَنَصَحَ لِمَوَالِيهِ»^(١٩١). فتأمل كيف وصفه بالعفاف والتَّعَفُّفَ، ذلك أنَّ النفس مهما كانت سامية عن الدنایا؛ فَإِنَّه لَا يَزَالُ يَعْرِضُ لَهَا مَا يَكَادُ يَصْرِفُهَا عَنْ اسْتِقَامَتِهَا، فَكَانَ الْعَبْدُ فِي حَاجَةٍ دَائِمَةً لِلْجَاهِدَةِ بِالتَّعَفُّفِ، وَفِيهِ مَعْنَى اسْتِمْرَارِيَةِ الْمَجَاهِدَةِ بِالتَّعَفُّفِ.

إِنَّ الْعِفَّافَ خَلَقَ يَسْمُو بِالنَّفْسِ جَدًّا، وَيَرْفَعُهَا وَيَنْزِعُهَا عَنِ الْإِهَانَةِ وَالْمَذَلَّةِ حَتَّى مَعَ ضَيْقِ ذَاتِ الْيَدِ، وَلَا بَدَّ لِلْعَظِيمِ مِنْ قَنَاعَةٍ تُبْرِدُ لَوَاجِحَ حَاجَتِهِ، وَتُشْبِعُ نَهْمَةَ فَاقَتِهِ. فَصُنَّ وَجْهَكَ عَنِ التَّأَكُّلِ بِهِ فَمَاؤُهُ عَزِيزٌ، فَإِنْ كَانَتْ لَكَ حَاجَةٌ مَلْحَةٌ لَدَى صَاحِبِكَ؛ فَأَلْمَحْ إِلَيْهَا فِي الْأَوَّلَى، ثُمَّ صَرِّحْ فِي الثَّانِيَةِ، ثُمَّ كَرِّرِ التَّصْرِيحَ فِي الثَّالِثَةِ - إِنْ رَأَيْتَ ذَلِكَ -، فَإِنْ كَانَتْ؛ وَإِلَّا أَغْلِقِ الْبَابَ لِلْأَبَدِ، فَمَاءُ الْوَجْهِ مَاءُ الرُّوحِ، وَلِلَّهِ أَبِي الْحَسَنِ النُّعَيْمِيِّ إِذْ يَقُولُ^(١٩٢):

(١٩١) الترمذي (١٦٤٢) وقال: حديث حسن واللفظ له. أحمد (٢ / ٤٢٥)

وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده حسن (١٨ / ١٣٧).

(١٩٢) نقله عنه الذهبي في: سير أعلام النبلاء (١٧ / ٤٤٧).



إِذَا أَظْمَأْتَكْ أَكْفُ الثَّامِ كَفْتَكِ الْقَنَاعَةُ شَبْعًا وَرِيًّا
فَكُنْ رَجُلًا رَجُلُهُ فِي الثَّرَى وَهَامَةٌ هِمَّتِهِ فِي الثَّرِيَّا
أَيُّهَا لَنَاثِلِ ذِي ثَرَوَةٍ تَرَاهُ بَمَا فِي يَدَيْهِ أَيُّهَا
فَإِنَّ إِرَاقَةَ مَاءِ الْحَيَاةِ دُونَ إِرَاقَةِ مَاءِ الْحَيَاةِ

هذا ويتأكد العفاف جدًا - بمعناه العام - في أزمنة المجاعات أو
الفتن التي يختلط فيها الحق بالباطل، ويستطيل البشر حينها في الدماء
والأموال والأعراض، وثمَّ حديثٌ عزيز جدًا، حريٌّ بنشره
وإشهاره، فعن أبي ذر رضي الله عنه قال: ركب رسول الله ﷺ
حمارًا وأردفني خلفه وقال: «يا أبا ذر، أرايتَ إن أصاب الناس
جوعٌ شديدٌ، لا تستطيع أن تقوم من فراشك إلى مسجدك، كيف
تصنع؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «تعفف». قال: «يا أبا ذر،
أرايتَ إن أصاب الناس موتٌ شديد يكون البيت^(١٩٣) فيه بالعبد،
كيف تصنع؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «اصبر». قال: «يا
أبذر، أرايتَ إن قتل الناس بعضهم بعضًا حتى تغرق حجارة

(١٩٣) أي: القبر.

الزيت^(١٩٤) كيف تصنع؟». قال: الله ورسوله أعلم. قال: «اقعد في بيتك، وأغلق عليك بابك». قال: فإن لم أترك؟ قال: «فأنت من أنت منهم^(١٩٥) فكن فيهم». قال: فأخذُ سلاحي؟ قال: «إذا تشاركهم فيما هم فيه! ولكن إن خشيت أن يروعك شعاع السيف^(١٩٦) فألقي طَرَفَ ردائك على وجهك حتى ييؤء بإثمه وإثمك^(١٩٧)». إذن فمن العفاف ما يكون في الدماء، وهو أعظم العفاف، والله المستعان.

(١٩٤) حجارة الزيت: موضع بالمدينة في الحرة، سُمي بها لسواد الحجارة ولمعانها حتى كأنما طليت بالزيت، والمراد: أن الدم يعلو حجارة الزيت ويسترها لكثرة القتل. وهذه إشارة إلى وقعة الحرة التي كانت زمن يزيد.

(١٩٥) أي: أهلك وعشيرتك ممن كان على عفافك وورعك.

(١٩٦) أي: إن غلب ضوء السيف وبريقه عينك ونفسك وخشيت أن تقتل؛ فغطّ وجهك حتى يقتلك، فتكون ابن آدم المقتول لا القاتل. وهذا خاص في أزمنة الفتن، أما في غيرها فللدافعة هي السنة، لما رواه مسلم ٨٧/١ (١٤٠) (٢٢٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أرايت إن جاء رجل يريد أخذ مالي؟ قال: «فلا تعطه مالك» قال: أرايت إن قتلتني؟ قال: «قاتله» قال: أرايت إن قتلتني؟ قال: «فأنت شهيد» قال: أرايت إن قتلته؟ قال: «هو في النار».

(١٩٧) أبو داود (٤٢٦١) وصححه الألباني (٨٠٣ / ٣) وابن ماجه (٣٩٥٨) والحاكم (٤٢٤ / ٤) وأحمد (١٤٩ / ٥) واللفظ له.



وهاتِكَ لفتةً عظيمةً جميلةً في شأن العفاف: وهي أنّ المرءَ في سِيره لإعفاف نفسه ومن يُعولُ؛ فهو مكتوبٌ من أهل سبيل الله، فعن كعب بن عجرة رضي الله عنه أنه قال: مرَّ على النبي ﷺ رجل، فرأى أصحاب رسول الله ﷺ من جَلَدِه ونشاطه. فقالوا: يا رسول الله، لو كان هذا في سبيل الله؟^(١٩٨) فقال رسول الله ﷺ: «إن كان خرج يسعى على ولده^(١٩٩) صغاراً^(٢٠٠)؛ فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين؛ فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفّها؛ فهو في

(١٩٨) قالوا هذا لمحبتهم الجهاد في سبيل الله، وضمّهم بأشدّاء الرجال إلّا يتوانوا عن تلك المواقف التي يُعزّوا بها دين الله، فأرشدهم ﷺ بلطفه المعهود إلى أن فضل الله واسع، وأنّ سبيله يشمل من كان ساعياً في شأن عفافه وعفاف عياله.

(١٩٩) الولد يشمل الذكر والأنثى، وفي التنزيل: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾.

(٢٠٠) يتبع الصغار من كان في حكمهم؛ لمرضه، أو إعاقته ونحو ذلك، وخصّهم بالذكر إخراجاً للأقوياء من الأولاد؛ حتى لا يتواكلوا ويكونوا عالة يقتاتون على جهد غيرهم وقد أغناهم الله بالقوة.

سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياءً ومفاخرة؛ فهو في سبيل
الشيطان»^(٢٠١) .^(٢٠٢)

هذا، والعفافُ الخالصُ لله عز وجل من أكبر أسباب كشفِ
الكربات بإذن الله تعالى، وتأمل حديث الثلاثة الذين انطبقت
عليهم الصخرة في الغار. وفيه: «فإن كنت تعلمُ أنني فعلتُ ذلك
من خشيتك ففرِّجْ عنا؛ ففرَّجَ الله عنهم، فخرجوا»^(٢٠٣) .

وعفيفُ البطن موعود بالفلاح، ولفظُ الفلاح هو أشملُ لفظٍ
لخيري الدنيا والآخرة، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي
الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورُزق
كفافاً، وقنَّه الله بما آتاه»^(٢٠٤) . فسرُّ العفافِ إذن هو القناعة!

هي القناعةُ فالزمها تعيش ملكاً لو لم يكن منك إلا راحةُ البدنِ

(٢٠١) فالاعتبارُ أنما هو بالنيات.

(٢٠٢) رواه الطبراني في الكبير (١٩ / ١٢٩) وقال المنذري في الترغيب
والترهيب: رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح (٣ / ٦٣). وصححه الألباني في صحيح
الجامع (١٤٢٨).

(٢٠٣) البخاري (٣٤٦٥).

(٢٠٤) مسلم (١٠٥٤).



وانظر لمن مَلَكَ الدنيا بأجمعها هل راحَ منها بغير القطنِ والكفنِ
وقال الحسن البصري: «لا يزالُ الرجلُ كريماً على الناسِ حتى
يطمع في دينارهم، فإذا فعل ذلك؛ استخفوا به، وكرهوا حديثه،
وأبغضوه». قلت: تصديقُ ذلك في حديث أبي العباس سهل بن
سعد الساعدي رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال:
يا رسول الله، دلّني على عملٍ إذا عملته؛ أحبني الله، وأحبني
الناس، فقال: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند الناس
يحبك الناس»^(٢٠٥). ذلك أنّ المال عزيزٌ بأيدي أصحابه، ولا يهون
عليهم أخذه من أيديهم، بل إنهم ليصولون دونه صيال السباع
الضواري، ﴿وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ [الفجر: ٢٠] فكما أنّه
يهمهم ويسوقهم تحصيله، فكذلك يؤرّقهم ويروّقهم حفظه،
فالشّح مغروز في نفوس البشر، فمن أراد مزاحمتهم عليه؛ قلّوه
وأبغضوه، إلا من سخّ نفسه منهم لأمرٍ خارجٍ عن ذلك؛ كزهد

(٢٠٥) أخرجه ابن ماجه (٤١٠٢) والحاكم (٣١٣/٤) وحسنه النووي في
الرياض.

أَوْ غِيَاثٍ أَوْ تَجَبِّ أَوْ صَدَقَةٍ وَنَحْوِ تِلْكَ الرِّغَائِبِ. فَأَقْلُّ النَّاسِ
أَهْلُ الْقَنَاعَةِ، وَأَقْلُّ قَلِيلِهِمْ أَهْلُ الزَّهَادَةِ.

إِذَا مَا كُنْتَ ذَا قَلْبٍ قَنُوعٍ فَأَنْتَ وَمَالُكَ الدُّنْيَا سَوَاءٌ
وَاعْلَمْ أَنَّ فِتْنَةَ النِّسَاءِ أَشَدُّ مِنْ فِتْنَةِ الْمَالِ عِنْدَ بَعْضِهِمْ، وَالْعَكْسُ
صَحِيحٌ لَدَى آخَرِينَ، وَكُلُّ امْرِئٍ قَدْ رُكِبَ فِيهِ ضَعْفٌ وَمِيلٌ بِحُكْمِ
بَشَرِيَّتِهِ، فَيَسْتَحْكِمُ فِي جِهَةٍ دُونَ الْآخَرَى، وَقَدْ حَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ
ﷺ أُمَّتَهُ مِنَ الْفِتْنَتَيْنِ، فَقَالَ فِي شَأْنِ النِّسَاءِ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي
فِتْنَةً هِيَ أَضَرُّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»^(٢٠٦). وَقَالَ فِي فِتْنَةِ الْمَالِ:
«لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةٌ، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ»^(٢٠٧).

فَلَدَى بَعْضِ النَّاسِ مِيلٌ غَرِيزِيٍّ لِلنِّسَاءِ أَكْثَرَ بِكَثِيرٍ مِنْ مِيلِهِ
لِجَمْعِ الْمَالِ، وَلَدَى آخَرِينَ طَمَعٌ وَجْشَعٌ وَشُحٌّ وَهَلَعٌ لِلْمَالِ مَعَ زَهْدِهِ
فِي أَمْرِ النِّسَاءِ، وَالشَّيْطَانُ يَشُمُّ قَلْبَ عَدُوِّهِ وَابْنِ عَدُوِّهِ آدَمَ، فَيُشِمَا
وَجَدَ ضَعْفًا وَلَجَ مِنْهُ، سَوَاءٌ مِنْ هَذَيْنِ الْبَابَيْنِ أَوْ مِنْ سِوَاهُمَا كَحَبِ

(٢٠٦) البخاري ١١/٧ (٥٠٩٦) ومسلم ٨/٨٩ (٢٧٤٠) (٩٧).

(٢٠٧) الترمذي (٢٣٣٦) وقال: حديث حسن صحيح غريب. وصححه الألباني

في صحيح الجامع (٢١٤٨).



الرئاسة أو محبة الظلم أو غير لك. وقد جمعهما حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلُوءٌ خَصِرَةٌ»^(٢٠٨) وَإِنَّ اللَّهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَنَظَرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا فِتْنَةَ الدُّنْيَا وَفِتْنَةَ النِّسَاءِ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةٍ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي النِّسَاءِ»^(٢٠٩). وقال ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةٌ، وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ»^(٢١٠).
فَفِتْنَةُ الْمَالِ مِنْ أَوَّلِيَّاتِ فِتْنَةِ الدُّنْيَا لِلْعَالَمِينَ.

وَإِنَّ لَكَ ثَوْبَ إِيْمَانٍ نَاصِعٍ الْبَيَاضِ فَلَا تَلَوُّهُ بِسَوَادِ الْخَطَايَا، وَالْعَفَافُ نَزْهُ نَخْطُوَةِ الْخِيَانَةِ تَلَوُّثُ أُمِّيَالًا مِنَ الْعَفَافِ.
وَأَسْأَلُ رَبَّكَ الْعَفَافَ فِي أَمْرِكَ كُلِّهِ، وَمِنْ الْأَدْعِيَةِ الْمَأْثُورَةِ:
«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَى، وَالتَّقَى، وَالْعَفَافَ، وَالْغِنَى»^(٢١١). وَمِنْهَا:

(٢٠٨) خَصِرَةٌ: غَضَّةٌ نَاعِمَةٌ طَرِيَّةٌ نَضِرَةٌ، كَالثَّمَرَةِ الطَّيْبَةِ.

(٢٠٩) مسلم (٧١٢٤).

(٢١٠) الترمذي (٢٣٣٦) وأحمد (١٧٤٧١) وصححه الألباني.

(٢١١) مسلم ٨١/٨ (٢٧٢١).

«اللهم اكفني بحلالك عن حرامك، وأغنني بفضلك عمن سواك»^(٢١٢). فألح على ربك أن يحفظك بالعفاف في شأنك كله. * ومنها: الاعتصام بالملك العلام. فإنّ الاعتصام بالله عصمة من الهلكة، ووقاية من الخلل، وأمان من الخذلان، وطمأنينة للسالك، وسلامة من عثرات الطريق.

وجوهر الاعتصام: صدق الاعتماد، وتجريد التعلق، وتمام الثقة، ورسوخ اليقين، وقرار الإيمان. فمن اعتصم بماله قلّ، ومن اعتصم بعقله ضلّ، ومن اعتصم بجاهه ذلّ، ومن اعتصم بالله عز وجل فلا قلّ ولا ضل ولا ذل، بل إلى ذرى المنى يقيناً قد وصل.

وجاء رجل لابن الطّلاية وقال: سلّ لي فلاناً في كذا وكذا، فقال: «قم معي فصلّ ركعتين، واسأل الله تعالى، فإني لا أترك باباً مفتوحاً، وأقصد باباً مغلقاً»^(٢١٣).

(٢١٢) الترمذي (٣٥٦٣) وحسنه الألباني في السلسلة (٢٦٦).

(٢١٣) ذيل طبقات الحنابلة (٤٩ / ٢).



تقول سَلِ المعروفُ يحيى بنَ أكرمٍ فقلتُ سَليه ربُّ يحيى بنَ أكرمِ
 ذلك أنَّ الاعتصامَ بالله هو ركنُ التوفيق، فالمرءُ في كلِّ أطواره
 وأزمانه متردد بين جلب الخير وثباته ونمائه، أو دفع الضرر أو
 رفعه، ليس له حول وطول على الحقيقة البتة، إنما غاية جهده
 اتخاذ الأسباب المأمور بها من لدن المسبِّب الخالق البارئ، فهو
 لا شيء إلا بمعونة إلهه وسيده ومولاه.

يا من يُرجى للشدائدِ كلِّها يا من إليه المُشكى والمَفزَعُ
 وهذه الأسباب لا تستقل بحدوث تأثيراتها، بل لا بدَّ من
 صرف موانعها، ولا يكون شيء من ذلك إلا بمشيئة رب
 العالمين، فعاد الأمر كما ابتداء لمن بيده مقاليد^(٢١٤) الأمور
 وتصارييف الأشياء، فمن رام التوفيق؛ فليد ذلك الركن،
 وليعتصم بمن لا يأتي بالخير ولا يدفع الشر سواه. قال الفضيل
 رحمه الله: «من عرف الناس استراح» أي أنَّهم لا ينفعون ولا
 يضرّون.

(٢١٤) المقاليد: المفاتيح، مفردها إقليد.

والمعتصم بالله حقاً في تحصيل إيمانه فغاياته الجليلة ليس وراءها مرمى، كيف لا، وهو بالله يسمع، وبه يبصر، وبه يبطش، وبه يمشي، وبه يقوم وبه يقعد، وبه يحكي وبه يموت، وإليه يرجع ويؤوب! فلا يقوم لقوته قوة، ولا يتخلف عن معيته توفيق. فالأمر كله راجع لتوفيق الله لعبده أو خذلانه، كما قيل: «وحدّ قسّ بن ساعدة وما رأى رسول الله ﷺ، وكفر ابن أبيّ وقد صلى القبلتين»!

ومتى أحسن العبد الاعتصام بربه، انتظمت له سائر أعماله، وتيسرت له، وانشرح صدره بها، فإن الله شكور حميد. قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «إنّ في القلب فاقة لا يسدها شيء سوى الله تعالى أبداً، وفيه شعث لا يلهمه غير الإقبال عليه، وفيه مرض لا يشفيه غير الإخلاص له وعبادته وحده، فهو دائماً يضرب على صاحبه حتى يسكن ويطمئن إلى إلهه ومعبوده، فحينئذ يباشر روح الحياة ويزوق طعمها، ويصير له حياة أخرى غير حياة الغافلين المعرضين عن هذا الأمر الذي له خلق الخلق، ولأجله خلقت الجنة



والنار، وله أرسلت الرسل ونزلت الكتب، ولو لم يكن جزاؤه إلا
نفس وجوده؛ لكفى به جزاء، وكفى بفوته حسرة وعقوبة»^(٢١٥).
قال الله جل ذكره موصياً عباده بالاعتصام بحبله المتين الواصل
إليه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ
مُسْلِمُونَ﴾^(١٠٢) وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ
اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ
بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا
كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران
١٠٢ - ١٠٣] فالاعتصام وصيته سبحانه للمؤمنين به. وقال جل
وعلا في بيان ألا معصوم من كل كراهة إلا من عصمه برحمته:
﴿قَالَ لَا عَصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾ [هود ٤٣].
فاشدد يديك بحبل الله معتصماً فإنه الركن إن خانتك أركانُ

(٢١٥) إغاثة اللهفان لابن القيم (١ / ٧١).

وأوصى الحريصُ الشفيق صلوات الله وسلامه وبركاته عليه
بتحقيق الاعتصام بالله، وبين طرق تحصيله، فعن سفيان بن
عبد الله الثقيفي رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله: حدثني
بأمر أعتصم به، قال: «قل ربي الله، ثم استقم». قلت: يا رسول
الله ما أخوف ما تخاف علي؟ فأخذ بلسان نفسه ثم قال:
«هذا»^(٢١٦).

وأخبر ﷺ أَنَّ صِمَامَ أَمَانَ الْمُؤْمِنِ اعْتَصَامُهُ بِكِتَابِ رَبِّهِ الَّذِي لَا
يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ،
فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال - في حديث الحج
الطويل -: «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به؛
كتاب الله»^(٢١٧).



(٢١٦) الترمذي (٢٥٢٢) وقال: حديث حسن صحيح، وابن ماجه (٣٩٧٢)،
وصححه الألباني، صحيح سنن ابن ماجه (٣٢٠٨).
(٢١٧) مسلم (١٢١٨).



كَفَاكَ حَيْرَةً وَتَرَدَّدًا

كثيرٌ من الشباب يعيش في حيرة من أمره ويقول: إنّ الأمور
قد التبست عليّ، ولا أدري أين الجادة النبوية حتى أضمن
السلامة.

فأقول لكل من ضربته الحيرة: أيّ أخي الصالح، إنّ الحكمة
عند الالتباس تقتضي التوقف تماماً حتى لا تقع في الإلباس،
وتكرّع في حقوق الناس، لذلك فعُدّ بالأمر من أوله، واترك هذه
المناهج كلّها، واعتصم بالقرآن والسنة ففيهما مقنعٌ عن كلام
الناس وجدالهم ومراءئهم. وأول الانحراف: الخللُ في مصدر
التلقي.

واعلم أنك متى انطرحت بين يدي مولاك، وضرعت إليه
بكفٍّ فقيرٍ كسيرٍ قلبٍ، ورددتَ بصدقٍ وإلحاح: «اللهم ربّ
جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالمَ



الغيب والشهادة، أنتَ تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون؛
اهدني لما اختلفَ فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى
صراط مستقيم»^(٢١٨)، وأخذتَ بأسباب الهدى؛ من الاعتصام
بالله، ثم بما أوحاه من القرآن والسنة، ثم انشغلتَ بما أجمعَ عليه
أهل العلم من العلوم التي لم يتفرَّق فيها هؤلاء، فأكبتَ على
حفظ كتاب الله وتفهمه وتفسيره، وحفظ ما استطعت من سنة
نبيك ﷺ، وقرأتَ عليها ما تيسر من شروح أهل السنة، وثبتت
ركبتك عند دروس من وثقت بعلمه وورعه، وثبتت خناصرك
على كتب أهل الدعوة الإصلاحية ومن سبقهم من كتب الأئمة
كشيخ الإسلام وابن القيم وابن كثير وابن رجب وابن عبد
الهادي والذهبي ونحوهم ومن سبقهم من الأئمة الأعلام كمالك
والشافعي وأحمد والمروزي والدارمي وابن أبي عاصم وابن بطة
وابن منده والخلال والآجري واللالكائي وأبي عبيد القاسم بن
سلام وابن عبد البر ونحوهم، ومن سبقهم ولحقهم من أهل

(٢١٨) مسلم (١/ ٧٧٠).

السنة. وكنت ذا حظٍّ من عبادة ظاهرة وباطنة، وكانت لك خبيثةٌ من عملٍ صالحٍ لم يطلع عليه سوى علام الغيوب، واجتنبت ظاهر الإثم وباطنة؛ فأنا ضمين لك - بإذن الله - بتوفيقٍ وفلاح. فالله تعالى لا يضيع أولياءه، ولا يردّ سائله متى بذل أسباب الإجابة ولو بعد حين، ولتذوقن حلاوة الإيمان، وانفساح الصدر، وانسراح النفس، وراحة البال، وهنأة العيش، والسلامة من قيل وقال، وردّ فلانٌ وكتبَ فلان، وانظروا فضيحةَ فلان، وانشروا كلام فلانٍ في فلان... إلى آخر ذلك الغناء الذي لا يصفو منه بعد التحقيق الا القليل مما قد كُفّيته بردود الراسخين، دون الشاغبين المتفهبين.

وبعدُ فيا أخي الكريم: حيثك الورودُ الناطقةُ بمحمدٍ من سكب فيها الجمال، وضوع منها الشذى، وأخرج منها الثمر؛ إني - يا محبّ - قد نصحتُ لك، مع علي بنقصي وجهلي وذنبي وتقصيري، فلا أزرّكي نفسي، فإني موقنٌ بقصورها وتقصيرها وذنوبها وجهلها، لكنها المحبة والإخاء.



وما ذكرته مما حذرتك منه؛ فمن باب اتقاء الشرِّ قبل نزوله،
ورفعه بعد وقوعه، شفقةً ورحمةً ونُصحاً ومحبةً، وليست من باب:
إنَّ الشفيق بسوء ظنٍّ مولعٌ. وما قصدتُ بهذه الحروف الهدمَ
والنقد، بل البناء والحفظ، وما التوفيق إلا بالله العلي العظيم، وما
الحال إلا كما قال عمر بن ذر رحمه الله: «اللَّهُ المستعان على ألسنةٍ
تصفُ، وقلوبٌ تعرفُ، وأعمالٌ تخلفُ»^(٢١٩).

فلا تأخذُ بتقصيري وسهوي وخُذْ بوصيتي لك إن رُشدتَا
سائلاً ربِّي أن يستغرسني والقارئ في طاعته، وأن يجعلنا من
أهل خشيته في الغيب والشهادة، ومن أهل كلمة الحق عند
الغضب والرضا، ومن لا تأخذهم في الحق لومةٌ لائمٍ، ولا قدحُ
قادحٍ، ولا مدحُ مادحٍ، ولا لغير الحق رَغَباً ورَهَباً ورجاء ومحبة.
نحاربُ من عادى من الناسِ كلَّهم جميعاً وإن كان الحبيبَ المصافيا
ونعلمُ أنَّ اللهَ لا ربَّ غيره وأنَّ كِتَابَ اللهِ أصبحَ هادياً



الخاتمة

على المؤمن أن يتحقق من سلامة مقصده، ومن صحّة منهجه، فإن تمّ له ذلك؛ فليتوكل على من بيده مقاليد الأمور، وأزِمّة النواصي، وليعلم أنّه مُبتلى بأذى من لدن صادقين جهلة، أو خبيثاء سفلة، فطريقُ الأنبياء كذلك.

فإن نَهَى عن شقّ عصا الطاعة لذي سلطان مسلمٍ، وأمرَ بنبذِ أسبابِ الفرقة؛ رُمِيَ بأنّه من فئة كذا، وإن أمرَ بالمعروف ونهى عن المنكر وعلمَ القرآنَ واحتسب الدعوة إلى الله؛ نُزى بأنّه منتمٍ لفصيل كذا، وإن دعا إلى التذكير بشعيرة الجهاد في سبيل الله، ودعّم المجاهدين والمرابطين ممن صحّ منهمجهم، وسلّوا من الغلو؛ فسيُرمى بالتكفير والخروج، وإن تعاهد الناس بالمواعظ والرقائق وحسن الأخلاق؛ وُصم بأنّه من جماعة كذا، ونحو ذلك مما تلفظه الألسُن، ويحفظه الكرام الكاتبون.



وليس هذا بجديد، فمن سبق من أهل السنة لما أمر بتعظيم شأن التوحيد والسنة؛ رُميَ بتهمة الوهابية، ولما دعا لتقديم مذهب السلف في الإيمان والأسماء والصفات والقدر؛ رمي بالتيمة، فإن شدد في الاحتشام والأمر بالفضيلة؛ قيل: حنبي، وهكذا الحال.. صراعٌ ودفعٌ ومداولةٌ بين الحق والباطل، إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً، ويأتي أمرُ الله وينفذ حكمه الموافق لحكمته، وتستبين سبيل المجرمين والمدّعين والمرجفين، والله الأمر من قبل ومن بعد، ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١]. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وهذا أُن الخاتمة أسألُ الله حسنَهَا، فللكلام غايةٌ، ولنشاط القارئ نهاية، عائداً برّبي من الهذر والرياء والإملا، سائله سبحانه العفو والغفران.

ومضةً قبل الرحيل: كلُّ أمرٍ تلججَ في صدرك، وتردّدت فيه؛ فأغْمَضَ عينيك، ثمَّ تخيّلَ مقامك بين يدي الله تعالى غداً، فمتى كنتَ كذلك؛ فستعرفُ حينها ما ينبغي عليك فعله، إذ قد زالتْ عن عينيك غشاوةُ الهوى. وختاماً:

أقولُ وقولوا معي يا أباةُ بصوتٍ يطولُ أعالي القممِ
إذا الدِّينُ أضْحى ينادي رجالاً فلا خيرَ فينا إذا لم نَقُمْ

إلهي، كم عودتني لطفك ورحمتك وإحسانك، أجبْتَ الدعاء، وأسدَيْتَ الرزق، ورفعتَ البأس، وسترتَ العيب. أنا عبدُك الآثمُ الآبقُ، وأنتَ ربي الكريم الرحيم. وانتهى الأمرُ بحمدك يا رب كما ابتداءً بحمدك. وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه ما سَجَّتِ الغواسقُ، وهَمَّتِ الغَوادِقُ، ودامتِ الخلائقُ، وعددَ أنفاسِ أهلِ الجنة.

